

دراسات في تاريخ مصر

١

عصر البطالمة

المدايات ٢٠٠٠
د.د. رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

لطفى عبد الوهاب يحيى

دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لبنان
أستاذ التاريخ والحضارة المأهولة
في جامعة الاسكندرية

دراسات في تاريخ مصر

١

عصر البطالمة

مركز التعاون الجامعي
٣٦ شارع سويفر — دبل الاسكندرية
ت ٣٧٦٤٥

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى ذكرى أستاذي
الدكتور جمال الدين الشيال
الذي كان يتمجّل ظهور هذه الدراسات
محاولة للوفاء من أحد أبنائه
ببعض ما كان له من فضل المعلم
ورعاية الابوة

تقديم

١- هدف الدراسات

الدراسات التي أقدمها على الصفحات التالية لا تستهدف كتابة تاريخ مفصل شامل للفترة التي تغطيها هذه المرحلة من تاريخ مصر التي تبتدىء بعد فتوح الاسكندر في الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م. وتنتهى بدخول مصر في دائرة الإمبراطورية الرومانية في ٣٠ ق.م. ، وهى الفترة التي يمتد عبرها حكم البطالمة ، أو ملوك البيت الحاكم الذى أسسه فى مصر بطليموس بن لا جوس ، أحمد فواد الاسكندر ، فقد كان فضل السبق فى هذا المجال الذين اهتموا بهذا النوع من الدراسة من الباحثين العرب ، فقدموا لنا ، كتابة أو ترجمة أو تعليقا ، ما يضع تحت يد القارئ العربى المادة التي يحتاج اليها فى أغلب جوانب هذه الفترة ، والتي تشكل فى عمومها ، أساسا علميا متكاملًا لمن يريد أن يواصل البحث على مستوى التخصص فى جانب أو أكثر منها .

ولمّا تشكل هذه الدراسات محاولة هيكلية لابرار الاتجاهات العامة التي سادت عددا من جوانب الحياة فى مصر فى تلك الحقبة من تاريخها ، وتحليل النظريات التي قامت عليها هذه الاتجاهات . وهى بهذا الوصف لا تغنى عن السكتابات التاريخية التي أشرت إليها ، ولمّا تسير إلى جانبها من حيث أنها تعمل على إظهار هيكلها الذي قد يغيب عن القارئ أن يستنبطه فى غمرة التفاصيل .

وايس معنى هذا أن كل ما عالجته من اتجاهات لم يكن موضع بحث أو مناقشة قبل الآن ، فقد لمس غيرى من دارسى التاريخ العرب ، جوانب من هذه الاتجاهات بدرجات متفاوتة من الاهتمام بالتفصيل أو التحليل . ولكن ذلك جاء فى أغلب الأحيان فى معرض التعريف باللقاءات وتفسير الأحداث ، أكثر مما كان هدفا فى حد ذاته ، تصبح معه الأحداث مجرد شواهد على الاتجاهات .

٢- منهج الدراسات

وقد حاولت فى القسم الأول من هذه الدراسات أن أرسم الملامح الرئيسية للعصر الذى افتتحه الاسكندر على أساس أن هذا العصر طبع باتجاهاته الحضارية ، وعلى مدى عدة قرون ، المنطقة المحيطة بالقسم الشرقى للبحر المتوسط ، ومن ثم فهو بشكل ، بالضرورة ، الحلقة الحضارية التى لا يمكن فهم تاريخ مصر فى عصر البطلمة دون إلمام بأبعادها . وكان هدفى من الدراسات التى ينطوى عليها هذا القسم أن أبين أن هذا العصر كان عصر انفتاح بين الشرق والغرب تكافئ فيه أكثر من عنصر الوصول إلى هذه النتيجة . فالتداخل السياسى الذى وصل إليه كل من الشرق وبلاد اليونان فى الشطر الأخير من القرن الرابع مكن مقدونية ، التى كانت قد بدأت تظهر فى تلك الفترة من أن تدخل كلا منها داخل دائرة سيطرتها ، وشخصية الاسكندر ربطت بين الجانبين برابط حضارى يظمر فيه العنصر الشرقى والعنصر الغربى ، وتصل بين العنصرين فيه همزة وصل قوامها كفاءات لغربية وثقافة إغريقية ولغة لهذه الثقافة هى اللغة الإغريقية فى شكل مشترك جديد - الأمر الذى حاولت به أن أبرر تسميتى لهذا

على سبيل المثال ، Seleukos بدلا من Seleucus ، وكتبت إلى جانب
بلازيون Pelouseon بدلا من Peluseum

أما الملاحظة الثانية فبى أن بعض الأفكار وبعض المواضيع التي
اشتملت عليها هذه الدراسات سبق لي أن تناولتها في كتابات سابقة لي .
وقد وردت هذه الأفكار والمواضيع أساسا في أجزاء من القسمين الأول
والرابع من هذه الدراسات . ونذكرى الذى أقدمه أنى وجدت في إيرادها
استكالا ضروريا للحديث من بعض الاتجاهات التي عالجتها . وقد انهرت
فرصة العودة إليها ، في أكثر من مناسبة ، لصقل فكرة لم تكن مصقولة
من قبل ، أو لتوزيع جديد بنم الاتجاه الذى أعلمه ، أو لزيادة تعليق
أو توضيح وجدت من صالح الموضوع أن أزيده .

وفي ختام هذه الملاحظات أود أن أذكر أن بعض الأفكار التي جاءت
ضمن هذه الدراسات كانت نتيجة مناقشات أثرتها أو أثارها معى بعض
زملائي من المعنيين بدراسة العصر الذى تناولته ، أو نتيجة استيضاحات
واسنفسارات وجهها إلى تلاميذى في فاعة الدرس على مدى السنوات
الماضية . وقد نهتني هذه المناقشات والاسنفسارات إلى جوانب كان من
السهل أن أغفل ذكرها أو معالجتها . فإلى أوائك وهؤلاء أدين ، في
أكثر من موضع من هذه الدراسات ، بالاقتراب خطوة من استكمال
جوانب الحديث عما طرحته أو طرقتة من آراء واتجاهات ؟

ل.ع.ى

الاسكندرية
ديسمبر (كانون أول) ١٩٦٧

الحكم لم تكن تشكل استمرارا لسياسة التراجع أمام التدخل الروماني وإنما تشكل محاولة بارعة وجريئة من جانب كايوباتره لاحتواء هذا التدفق عن طريق استغلال الشقاق الذي كان يفرق بين السيدين المسيطرين على مقدرا رومه في ذلك الوقت ، وهما أكتافوس وأنطونيوس - وهى محاولة لم يقد لها النجاح وانتهت بدخول مصر في دائرة الامبراطورية الرومانية .

وأخيرا ، فقد خصصت القسم الرابع لدراسات تتعاق بمدينة الاسكندر التى كانت عاصمة البطالمة وثغرعم الاول فى آن . وقد دفعنى إلى إفر قسم بأكمله للحديث عن هذه المدينة أمرا : الامر الاول هو أنها بميزاتها موقعا وموقعا ، كانت خير واجهة تلبى فى مواجهتهم لظروف العصر المتأغرق واحتياجاته النابعة من إحدى صفته الاساسيتين وهى الدولية . والامر الثانى أنها بوضعها المزدوج كعاصمة لدولة تدع فى حكم نظاما مركزيا ، ومدينة يونانية لها إطار دولة المدينة ، التى تدين بالنظر الشعبى ، كانت تمثل الصفة الاخرى الاساسية للعصر المتأغرق وهى الازدواجية التى تأرجحت بهذا العصر بين النظامين .

٣ - ملاحظات

بقيت بعض ملاحظات أود أن أذكرها فى ختام هذا التقديم . وأول هذه الملاحظات تخص الهجاء الاوربي لاسماء الاعلام التى وردت فى الدراسات وقد كتبت هذه الاسماء بالتهجئات اليونانية لها التى غالبا ما تأخذ شكل s أو on ، بدلا من النهايات اللاتينية التى تستعمل عادة فى الكتابات الاوربية وهى us أو um ، كما ابقيت على استخدام حرف k اليوناني بدلا من c المقابل اللاتيني له . وهكذا كتبت إلى جانب سليوقوس

على سبيل المثال ، Seleukos بدلا من Seleucus ، وكتبت إلى جانب
بوزيون Pelouseon بدلا من Peluseum

أما الملاحظة الثانية فبى أن بعض الأفكار وبعض المواضيع التي
اشتملت عليها هذه الدراسات سبق لي أن تناولتها في كتابات سابقة لي .
وقد وردت هذه الأفكار والمواضيع أساسا في أجزاء من القسمين الأول
والرابع من هذه الدراسات . ونذكرى الذى أقدمه أنى وجدت في إيرادها
استكالا ضروريا للحديث من بعض الاتجاهات التي عالجتها . وقد انهرت
فرصة العودة إليها ، في أكثر من مناسبة ، لصقل فكرة لم تكن مصقولة
من قبل ، أو لتوزيع جديد بنم الاتجاه الذى أعلمه ، أو لزيادة تعليق
أو توضيح وجدت من صالح الموضوع أن أزيده .

وفي ختام هذه الملاحظات أود أن أذكر أن بعض الأفكار التي جاءت
ضمن هذه الدراسات كانت نتيجة مناقشات أثرتها أو أثارها معى بعض
زملائي من المعنيين بدراسة العصر الذى تناولته ، أو نتيجة استيضاحات
واسنفسارات وجهها إلى تلاميذى في فاعة الدرس على مدى السنوات
الماضية . وقد نهتني هذه المناقشات والاسنفسارات إلى جوانب كان من
السهل أن أغفل ذكرها أو معالجتها . فإلى أوائك وهؤلاء أدين ، في
أكثر من موضع من هذه الدراسات ، بالاقتراب خطوة من استكمال
جوانب الحديث عما طرحته أو طرقتة من آراء واتجاهات ؟

ل.ع.ى

الاسكندرية
ديسمبر (كانون أول) ١٩٦٧

القسم الأول

عصر جديد و حضارة جديدة

الباب الأول

حول بدايات عصر جديد

١ - العصر الجديد والانتقاء الحضارى الشرق والغرب

فى بعض مراحل التطور الحضارى يظهر على مسرح التاريخ شخص يستطيع ، اكثر من غيره ، أن يعبر بعمله الذى يعكس إرادته أو شخصيته ، عن اتجاهات هذا التطور واحتياجاته . وفى هذه الحال يكون ظهور مثل هذا الشخص ، سواء أكان رجل سياسة أو رجل حرب أو فكر ، أو كانت له صفة أخرى غير هذه الصفات ، إيذانا ببدء عصر جديد أو شوط جديد من أشواط الرحلة الحضارية الإنسانية .

وقد عرفت مصر فى شخص الاسكندر المقدونى واحدا من الذين ينطبق عليهم هذا الوصف حين دخلها فى ٣٣٢ ق.م ليضع نهاية للحكم الفارسى فيها ويضع مصر بذلك على أبواب مرحلة حضارية جديدة (١) . والواقع أن مصر لم تكن المكان الوحيد الذى قدر له أن يشهد هذا الانتقال الحضارى فى تلك الفترة ، فإن الاسكندر ، حين انطلق قبيل

(١) هذه هى الفترة الثانية من الحكم الفارسى فى مصر ، وقد امتدت من ٣٤٦ ق.م . إلى دخول الاسكندر مصر ، وكانت الفترة الأولى من هذا الحكم بين ٥٢٥ و ٤٠٤ ق.م . راجع :

نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم (ج ٢ ، ط ٦) صفحات ٣٨٨-٤٠٠ و ٤٠٨-٤١٠ قارن : Drioton & Vandier: Les peuples de l'Orient Méditerranéen, II (L'Egypte), pp. 600-605, 612-14 الذين ينهى الفترة الأولى عند ٤٠٥ ق.م .

ذلك بعامين على رأس قواته من المقدونيين واليونان عبر حدود العالم اليونانى متجها نحو الشرق فى صدامه الكبير مع الامبراطورية الفارسية كان يطوى فى حقيقة الامر نهاية عصر ويخطو نحو عصر جديد له ملامحه الخاصة وقوامه الحضارى المتميز .

لقد كانت المنطقة التى أصبحت مسرحا لنشاط الاسكندر تمثل قبل ظهوره عالمين مختلفين : أحدهما شرقى فى نظمه ومعتقداته وقيمه ونظراته للحياة بوجه عام ، ويضم أغاب المناطق الآسيوية والإفريقية المتاخمة للبحر المتوسط وامتداداتها نحو الشرق ، والآخر غربى يختلف عنه اختلافا بينا فى كل هذه الاشياء ، وهو الجزر وأشباه الجزر الأوروبية التى تضم مقدونية وبلاد اليونان إلى جانب المدن اليونانية الواقعة على الشريط الساحلى الغربى لشبه جزيرة آسيه الصغرى .

ولكن نشاط الاسكندر العسكرى والسياسى شكل همزة وصل بين هذين العالمين المتباينين . وكان العامل الأساسى فى هذا المجال هو أنه استطاع أن يحقق السيطرة الفعلية على المنطقة التى تجمع بينهما بحيث توفرت إمكانية اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب . فالاسكندر قد خلف أباه فيليب فى زعامة الحلف اليونانى الذى تكون فى ٣٣٨ ق م . والذى كان فى حقيقة الامر أداة لسيطرة مقدونية على المدن اليونانية والتدخل فى شئونها ، وإن لم يكن كذلك من الناحية الرسمية . غير أن الاسكندر لم يكتف بهذه الزعامة أو السيطرة التى ورثها عن أبيه ثم وطدها بالفيالق المقدونية حين أرادت بعض هذه المدن أن تظهر تدميرها وتمرد على هذا الحلف . وإنما نجده يرمى ببصره عبر الحدود التى توقف عندها

النشاط السياسى والعسكرى لفيليب ، وعبر النطاق التقليدى الذى عرفه اليونان فى المجال الدولى منذ أن أصبح لليونان سياسة خارجية دولية فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس ق . م . وهكذا يقدم ، وهو بعد فى العشرين بحد عمره ، على مغامرة عسكرية قدس لها أن تنتهى بسيطرته ، إلى جانب بلاد اليونان ، على المنطقة التى تضم أغلب آسيه الصغرى وسورية ومصر ثم تمتد شرفاً حتى شواطئ المحيط الهندى . وهى المنطقة التى كانت تشمل أملاك الامبراطور الفارسى .

* * *

وقد كان اتجاه الاسكندر ، ومن ثم اتجاه المرحلة الحضارية التى افتتحها ، نحو الشرق أمراً طبيعياً ، إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن التوجيه الجغرافى لبلاد اليونان كان نحو الشرق . فبحر ايجه الذى يفصل بين شبه جزيرة البلقان من جانب وبين شبه جزيرة آسيه الصغرى من جانب آخر ينتشر فيه عدد كبير من الجزر التى تجعل من السهل الاتصال المستمر بين الشاطئين الاوروبى والآسيوى ، والتعاريج الكثيرة التى تتميز بها سواحلها تشكل موانئ طبيعية من الطراز الاول تجعل التنقل البحرى بين هذه السواحل أمراً ميسوراً ، هذا إلى جانب هدوء هذا البحر الذى تحده اليابسة من ثلاث جهات فى الغرب والشمال والشرق لتجعل منه فى حقيقة الامر خليجاً كبيراً .

وقد أدى هذا إلى اتجاه اليونان شرقاً منذ أن أصبح لهم نشاط خارجى اقتصادى أو سياسى . فالهجرات اليونانية كانت على أكثرها على السواحل الغربية لآسيه الصغرى ، كما عرفت أعداد لا بأس بها منهم

الاستقرار في مصر منذ عهد الأسرة السادسة والعشرين (*) ، كذلك انجذبت بلاد اليونان في تغطية حاجتها من الحبوب إلى شواطئ القسم الشرقى للبحر المتوسط أو المناطق المتاخمة لها ، سواء في مصر أو في سورية أو في المناطق المطلة على البحر الأسود . فاذا تركنا المجال الاقتصادي إلى المجال السياسى وجدنا أول احتكاك لبلاد اليونان مع القوات السياسية الكبيرة يتم في هذه المنطقة أثناء الثورة الايونية ثم أثناء الحروب الفارسية (في العقود الأولى من القرن الخامس ق . م) التي وضعت بلاد اليونان لأول مرة في تاريخها ، موضوع الاشتراك الفعلى في تيارات السياسة الدولية .

وقد ساعد على هذا الاتجاه الشرقى عند اليونان عامل آخر . هذا العامل هو وجود قوة في القسم الغربى للبحر المتوسط كانت قد اتخذت منه مجالا لنشاطها التجارى والسياسى . هذه القوة هي قرطاجة التي أسسها المهاجرون الفينيقيون على الشاطئ الافريقى (مكان تونس الحالية) والتي استطاعت أن تفرض نفوذها الاقتصادى وزعامتها السياسية على بقية المدن التي أقامها المهاجرون الفينيقيون في المنطقة . وقد كان وجود هذه السيادة القرطاجية وبخاصة في المجال التجارى ، في القسم الغربى للبحر المتوسط عاملا أدى ، دون شك إلى تأكيد اتجاه اليونان في نشاطهم نحو الشرق - وهو الاتجاه

(*) عن الاغريق في مصر راجع :

Drioton & Vandier ; op. cit., pp. 581-4, 594.

الذى وجده الاسكندر طبيعياً حين قام بحملته ضد الامبراطور
الفارسي (٢) .

(٢) هذا لا يعنى أن اليونان لم يكن لهم نشاط في القسم الغربى من البحر المتوسط إطلاقاً . فقد كان لليونان نشاط تجارى واستعماري (استيطاني) في هذه المنطقة . بل لقد تفوقوا على منافسيهم من الفينيقيين والأترويين في هذين المجالين حتى أواسط القرن السادس ق . م . وكان هذا التفوق يرجع إلى ثلاثة أسباب : التفوق العددي عند اليونان ثم قرب بلاد اليونان من مجال هذين النوعين من النشاط في القسم الغربى للبحر المتوسط (وقد كانت هذه ميزة على منافسيهم من الفينيقيين الذين كانت نقطة انطلاقهم هي الساحل السورى) ، أما السبب الثالث فهو عدم تعرضهم ، نتيجة لموقعهم ، للضغط العسكرى الذى تعرض له سكان الساحل السورى من جانب الآشوريين ثم البابليين بين القرنين التاسع والسادس ق . م .

ولكن الوضع سينعكس في خلال القرن السادس ق . م . فالمستعمرات أو المدن التى أقامها الفينيقيون في القسم الغربى للبحر المتوسط (في غربى صقلية وجنوبى أسبانية وشمال غربى إفريقية) ستند تحت زعامة قرطاجة ، وبخاصة من الناحية العسكرية ، للوقوف في وجه التوسع اليونانى . كذلك فإن سقوط الامبراطورية البابلية في ٥٣٨ ق . م . أمام قورش ، مؤسس الامبراطورية الفارسية ، قد حرر المدن الفينيقية الام (الواقعة على الساحل السورى) إلى حد كبير لإذاتجه الفرس إلى إعطاء علاقاتهم بهذه المدن طابع التحالف فتركوا لها بحال نقوية نفسها إلى حد لم تكن تعرفه من قبل . وقد كان من نتيجة هذا الوضع الفريد الذى تمتعت به هذه المدن أن انفتحت أمامها طرق التجارة إلى أواسط آسية كما أصبحت تحظى بنوع من الاستقرار الذى يعتمد على التدعيم العسكرى والسياسى الاقتصاى من جانب الامبراطورية الفارسية . وقد انعكس هذا الوضع القوى بطبيعة الحال على المدن الفينيقية في القسم الغربى للبحر المتوسط ، فالعلاقة كانت متصلة بشكل دائم بين الفينيقيين في موطنهم الاصل وفى مهجرهم الغربى وأخيراً فقد ساعد على توقف الاتجاه اليونانى نحو الغرب التحالف الذى عقده الفينيقيون الغربيون تحت زعامة قرطاجة مع الاترويين ضد اليونان .

راجع :

Arnold Toynbee : Hellenism , the History of a Civilization

صفحات ٦٠ - ٦٣ .

هذا الانجاه الشرقى الذى سيطر على تكوين امبراطورية الاسكندر سيكون مقدمه طبيعية لانتقال مركز الثقل السياسى إلى البحر المتوسط ، وهو المكان المتوسط الذى يربط امبراطورية الاسكندر فى الشرق بمنطقة نفوذه فى بلاد اليونان . وسيتأكد هذا المركز الجديد للثقل السياسى بعد موت الاسكندر ، فالصراع الذى سيقوم بين قواده حول اقتسام امبراطوريته سيقوم فى هذه المنطقة والمعارك الرئيسية التى ستجسم هذا الصراع ستتم هناك . وفى هذه المنطقة ، بعد أن ينتهى الصراع ، ستقوم الدول التى يؤسسها هؤلاء القواد على انقاض امبراطورية الاسكندرية فى مصر وسورية وآسية الصغرى ومقدونية .

وسيكون انتقال مركز النشاط السياسى إلى هذه المنطقة مقدمة لانتقال ما تبقى من الحضارة اليونانية إليها ، وبخاصة بعد أن انتقلت إلى هذه المناطق موجات كبيرة العدد من اليونان ، سواء منهم الذين كانوا جنودا تحت إمرة الاسكندر أو الذين هاجروا فى أعقاب فتوحه من وجدوا فى هذه الممالك الجديدة مجالا حيويا وحياة جديدة فيها من الفرص ما أصبحوا يفتقدونه فى بلادهم الأصلية . وطبعى أن ينتقل مع هؤلاء اليونان المهاجرين ما عرفوه من عادات وتقاليد وعبادات وثقافة وخبرات ، لىكى يصبح كل ذلك أحد التيارين (الشرق والغرب) اللذين قامى نتيجة لالتقاءهما حضارة العصر الجديد .

٢ - اللقاء الحضارى قبل هذا العصر

العصر الذى افتتحه الاسكندر ، إذن ، كان عصر لقاء بين حضارة الشرق ، بمثابة فى مصر وفى بقية المناطق التى كانت فى العقود الأخيرة من القرن الرابع ق . م تشكل ولايات الإمبراطورية الفارسية من جانب ،

وحضارة الغرب بمثابة في بلاد اليونان أساسا (ومقدونية التي كانت تتبع الحضارة اليونانية) من جانب آخر . على أن هذا لايعنى بأية حال أن أجزاء المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها لم تكن على اتصال ببعضها ، أو أن النشاط الحضارى لم يتردد بينها قبل قيام امبراطورية الاسكندر ، فالأمثلة كثيرة على هذا الاتصال الذى قام فى أكثر من اتجاه وشمل أكثر من جانب وتم على أكثر من مستوى .

ولعل فى ذكر بعض الأمثلة فى هذا المجال مايعطينا فكرة سريعة عن هذه الظاهرة . فالمصريون مثلا عرفوا شواطئ هذه المنطقة فى أكثر من فترة من فترات تاريخهم المبكر وبخاصة فى عهد الامبراطورية ، ففي ميدان السياسة نجد أنهم مدوا نفوذهم الى سورية وفلسطين ودفعوا هذا النفوذ فى الاسرة الثامنة عشرة إلى جزر بحر إيجة التي أقام تحتس الثالث أحد قواده حاكما عليها . وفى مجال الاقتصاد تظهر لنا الرسوم الحائطية التي ترجع الى عهد هذه الاسرة النشاط التجارى بين الشواطئ المصرية واليونانية . وفى مجال الفن نجد الاثر المصرى ظاهرا بشكل واضح فى المراحل الاولى التي مر بها الفن الاغريقى ، قبل ان يتطور وتتكامل شخصيته ، من مراحل عمارة الأعمدة والأبهاء - التي ابتدأت عند المصريين منذ الألف الثالثة ق م - بما فيها من قنوات طويلة انتقلت الى بلاد اليونان وظهرت أول ماظهرت فى أعمدة الطراز الدورى التي تشبه شيها تماما الأعمدة المصرية المبكرة . وفى النماذج الاولى التي وصلت إلينا من فن النحت اليونانى نجد النقل عن النحت المصرى يكاد يكون تاما ، فالتماثيل اليونانية المبكرة تظهر فيها نفس الصلابة التي فى نظائرها المصرية ، كما تظهر

ففيها نفس الاوضاع بالنسبة لأعضاء الجسم ، فالاذرع ملاصقة للجاني الجسم ، والأيدى مقبوضة والقدم اليسرى تتقدم اليمنى والنظرة متجهة الى الامام. كذلك في عالم الموسيقى نجد الناي المصرى ينتقل في عصر مبكر الى جزيرة كريت ، ثم الى بلاد اليونان التي تطور فيها ليصل في عصر الطفافة الى مستوى رفيع من الابداع الفني (٣) .

والاثر المصرى لا يقتصر على هذه النواحي بل يمتد الى جانب العقائد . فنحن نجد عبادة آمون مثلا تنتشر خارج مصر وبخاصة بين اليونان ، سواء منهم المقيمون ببلاد اليونان الاصلية أو الذين اقاموا في مهاجرهم على شواطئ البحر المتوسط المختلفة ، فقد أصبح امون الها لبرقة كما يظهر لنا من نقوش العملة التي سكنت في هذه المنطقة في الفترة السابقة لعصر الاسكندر . كذلك نجد لهذا الاله مكانته في أثينة التي عرفت عبادته قبل ٢٧١ - ٢٧٠ ق م. وكان له بها معبد قبل ٣٣٢-٣٢٧ ق م. ومما يدل على هذه المكانة أننا نجد عددا من كبار الشخصيات اليونانية يتقدمون لاستشارة عرافيه في أزمتهم ومواقف هامة في جوانب حياتهم المختلفة ، ففي إحدى محاورات أفلاطون يحكى سقراط عما سمعه

(٣) عن السياسة راجع : J. H. Breasted : History of the Ancient Times, pp. 107-8

عن الفن راجع : Ibid., op.cit., pp. 369 - 73 ، أنظر كذلك الصور

المقارنة للاعمدة والتأثيل على صفحتي ٣٧١ و٣٧٣

عن التجارة أنظر : هوميروس، الأوديسية، الشيد الرابع ، سطر ١٣٠ وما بعده

كذلك A. Lang : The world of Homer, p.19

عن الحرب بين أثينس واسبرطة من أن الالينيون ذهبوا الى عراف
آمون ليسأله عن السبب في خسائرهم المتتالية في هذه الحرب ، كما
يذكر لنا أنهم وضعوا هذا العراف في مصاف أولئك الذين كانوا في
دلفي Delphi ودودونه Dodona ، وهى أماكن لها قدسيتهما الكبيرة
في بلاد اليونان . (٤)

* * *

ولم تكن مصر وحدها هى الجهة الى انتقلت منها هذه المؤثرات
الحضارية الى بقية المناطق المحددة بالقسم الشرقى للبحر المتوسط ،
فالفيينيون الذين استوطنوا الساحل السورى قاموا بدورهم كذلك في هذا
المجال . وهنا نجد أشعار الاوديسية تظهرهم لنا وهم يبيعون المجوهرات
لنساء اليونان و الخيطون ، أو الجلباب لرجالهم . وقد اقتبس اليونان
هذا النوع من الملابس في آخر عهد بداوتهم بعد أن كانوا لا يعرفون
سوى رداء خشن مصنوع من جلد الأغنام ، كما أطلقوا على الرداء
الجديد نفس الاسم الذى عرف به عند الفيينيين . ولم تكن هذه السلع
هى كل ما نقله الفيينيون الى بلاد اليونان منذ أن بدأت أساطيلهم
التجارية تغزو القسم الشرقى للبحر المتوسط حوالى ١٠٠٠ ق.م . بعد أن
اختفت منه سفن مصر فى أعقاب انهيار الامبراطورية المصرية بعد
١٢٠٠ ق.م . فقد انتقل معهم الى بلاد اليونان الفن الزخرفى المكون من
مقومات مصرية أو سورية مثل أفرع النخيل وأزهار اللونس ومناظر
الصيد على النيل ، ومثل شجرة الحياة التى عرفت فى الرسوم الآشورية ،

Plato : Nomoi, 738 c, Aikib. II, 148 E- 149 B.

(٤)

ارستوفانيس : الطيور ، سطور ٦١٩ ، ٧١٦

والمخلوقات الخيالية التي تفتق عنها الخيال الشرقى والتي تبرز بين الانسان والحيوان كأبي الهول والحصان ذى الأجنحة وغيرها - وكلها مقومات انتقلت الى الشواطىء الاوربية لتترك بعد ذلك فى عالم الفن الزخرفى فى اليونان ، ثم الغربى عموما ، طابعا لا يزال واضحا حتى اليوم . كذلك انتقلت الى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين حروف الهجاء التي اقتبسها هؤلاء عن الهيروغليفية المصرية مع من اقتبسها من الشعوب السامية حول ١٨٠٠ - ١٦٠٠ ق.م. (٥)

* * *

وغير المصريين والفينيقيين نجد شعبا ثالثا من شعوب هذه المنطقة يقوم بنشاط تجارى وحضارى بين شواطئها الثلاثة . فالـيونان جاؤوا بتقواهم التجارية أرجاء القسم الشرقى للبحر المتوسط بعد أن ورثوا فن الملاحة والتجارة عن الفينيقيين ، كما عرفت الاجزاء المختلفة لهذه المنطقة اكثر من موجة من موجات هجراتهم . وهكذا ظهر على الساحل الغربى لشبه جزيرة آسيه الصغرى عدد من المدن التي أسسها هؤلاء المهاجرون على نسق المدن اليونانية فى بلاد اليونان الأصلية ونقلوا اليها نظم تلك المدن وتقاليدها وعقائدها وثقافتها . وقد عرفت الموجات المتأخرة من

(٥) عن التجارة أنظر هوميروس : الإلياذة ، نشيد ٢٢ ، سطر ٧٤٣ وما بعده

عن الفن راجع : Breasted : op. cit., p.19

عن الحروف الهجائية راجع نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ،

ج ٣ ، ط ٢ ، صفحات ٥٥ - ٥٨

هذه الهجرات الاراضى المصرية ولقيت تشجيعا من الفراعنة ، لسبب أم
آخر ، منذ أيام الأسرة السادسة والعشرين ، بل لقد أقام اليونان في
مصر ، قبل عهد الاسكندر ، مدينة نقراتيس (نقراش) ليعيشوا فيها
على نمط الحياة التي عرفوها في بلاد اليونان . (٦)

كذلك شهدت هذه المنطقة احتكاكات عسكرية وسياسية بين
الامبراطورية الفارسية التي احدثت حدودها بشواطئ القسم الشرقى للبحر
المتوسط (ومن بينها مصر التي دخلت في دائرة هذه الامبراطورية في
فترة من الزمن) وبين المدن اليونانية الواقعة على ساحل آسية الصغرى
والتي تعرضت بين الحين والحين لضغط الحكام الفارسيين لولايات شبه
الجزيرة . كما قامت الحروب المديدة بين فارس وبلاد اليونان مدة
عشر سنوات أعقبتها فترة طويلة امتدت عبر القرن الخامس وشطر من
القرن الرابع ق م . عرفت فيها بلاد اليونان أنواعا من التدخل المباشر
وغير المباشر من قبل الملك الفارسي في العلاقات بين المدن اليونانية ،
تمثلت في مساعدته لمدينة ضد أخرى وتدخله ليقض المنازعات التي تثور
بينها في بعض الاحيان ، بعد أن يحدد جانبا على الأقل من شروط
الصالح أو السلام ، كما حدث في حالة سلم أنتاكيداس الذي عقد بين
المدن اليونانية المتحاربة في ٣٨٧-٦ ق م . والذي اشتهر بسلم الملك لإشارة
الى أن الملك الفارسي كان القوة الموجهة في الوصول اليه وقراره
وفرضه بطريقة أو بأخرى على بلاد اليونان . (٧)

J. B. Bury : A History of Greece (3rd, ed.) pp. 86-120 (٦)
Drioton & Vandier : Op. cit., pp. 5871-4.

Bury, op.cit , p. 552

(٧)

واذن فقد كان هناك التقاء بين حضارات المناطق المطلقة على شرق البحر المتوسط قبل مجيء الاسكندر بوقت طويل . ولكنه لم يصل الى الدرجة التي تؤدي إلى قدر ملبوس ومستمر من الترابط ، أو حتى من التقارب ، وإنما ظل مجرد التقاء تسرب من طريقه بعض التفاصيل الحضارية من جهة الى جهة وتنقل عنده منطقة عن منطقة أخرى جانباً من تجارة أو عقيدة أو فن أو ثقافة أو صناعة أو غير ذلك ، ولكنه ، كما ذكرت ، لا يعدو هذا التسرب الحضارى بحال من الأحوال ليصل الى درجة الترابط أو التقارب في النظرة الى القيم السياسية والاجتماعية والحضارية . فالأثر المصرى الذى ظهر فى بلاد اليونان مثلاً اذا كان قد ترك فيها طابعاً معيناً فى مجالات الموسيقى أو النحت أو العمارة أو اضاف الى آلهتها إلهاً جديداً ، فإنه لم ينقل اليها نظرة المصرى الى حياته اليومية أو العائلية أو فكرته عن الثواب والعقاب أو تقديسه للحاكم ووضعه فى مصاف الآلهة .

واليونان اذا كانوا قد هاجروا الى شواطئ آسية أو الى مصر ، فقد تبلور استيطانهم فى هذه المناطق على هيئة مدن يونانية يسكنها اليونان ويمارسون فيها حياة يونانية ، دون أن يتعدى ذلك الى الخروج بقيمتهم الجماعية أو الفردية عبر حدود هذه المدن ليمزجوا بينها وبين القيم التي عرفها سكان المناطق التي هاجروا اليها والتي أصبحت تحيط بمدنهم ، والفرس اذا كانوا قد اشتبكوا مع اليونان فى حرب امتدت عشر سنوات ، وإذا كان أباطرتهم قد تدخلوا فى تصريف العلاقات السياسية والعسكرية بين المدن اليونانية فى أكثر من مناسبة طوال قرن ونصف تقريباً ، فإن هذه الصلة الطويلة لم تصل يوماً للدرجة التي تصبح معها نقطة تقارب

بين النظام السياسى أو الاجتماعى عند كل من الطرفين . حقيقة هرف اليونان شيئا عن النظام السياسى الفارسى عن طريق هذا الالتقاء وكتب عنها وعلق عليه ادباؤهم وكتابههم ومفكروهم من أمثال ايسخلوس وكسونوفون وأرسطو وقارنوا بينهما وبين نظمهم السياسية ، ولكنهم لم يتبنوا هذا النظام أو يعتنقوه أو يدجوا فى نظمهم جزئا منه ، بل ظلوا دائما ينظرون اليه على أنه نظام لا يلىق بهم ولا يتفق مع عقليتهم أو اتجاههم أو القيم التى تسيطر على حياتهم (*) .

كان هذا قبل مجىء الاسكندر . ولكن السنوات الإحدى عشر التى قضاها هذا الفاتح الشاب فى تكوين امبراطوريته كانت نقطة تحول كبيرة فى تاريخ المنطقة التى نحن بصدد الحديث عنها ، فقد أفسحت الطريق أمام قدر من المزج لم تصل إليه أو تقاربها من قبل بين الجوانب الشرقية والغربية من الحضارات التى ظهرت فيها . وقد كان هذا القدر هو الأساس الذى قامت عليه حضارة العهد الجديد .

٣ - تعريف العصر الجديد وطبيعته

العصر الذى افتتحه الاسكندر ، إذن ، كان عصر انفتاح بين الشرق والغرب ، توفرت فيه فرص التداخل بين المقومات الحضارية التى ينطوى عليها كل من الجانبين أو بين ردود فعل هذه المقومات على أقل تقدير ، بحيث كان كل من الشرق والغرب ممثلا بطريقة أو بأخرى . وقد تعارف

(*) انظر على سبيل المثال مسرحية Persae التى نجد فيها الشاعر المسرحى اليونانى ايسخلوس Aeschylos يذمت الفرس بالبرية مرة (سطور ٢٥٨) ويقارن فيها مره أخرى بين الفرس الذين يخضعون لحاكم له السيادة والسيطرة واليونان الذين « لا يستطيع لسان أن يصفهم بأنهم عبيد أو رعايا لآحد » (سطور ٢٤٣-٢٤٤) وقد ظهرت هذه المسرحية التى قامت بين الفرس واليونان بين ٣٩٠-٤٨٠ ق.م .

الغربيون على تسمية هذا العصر الجديد الذى تداخلت فيه العناصر الحضارية الشرقية والغربية لتشكيل حضارة من نوع جديد باسم «العصر الهلنستى» ، وهى تسمية أطلقها المؤرخ الألماني يوهان درويسن Johann Droysen فى أواخر النصف الأول من القرن الماضى ليميز بها الحضارة الجديدة عن الحضارة اليونانية أو الإغريقية الكلاسيكية التى عاصر العالم المتحضر مرحلة نضجها فى القرنين الخامس والرابع ق.م. - والتى عرفت باسم الحضارة الهلينية - على أساس أن الحضارة الجديدة منتسبة لهذه الحضارة السابقة أو متأثرة بها ، كما تدل على ذلك نهاية كلمة هلنستى (Hellenistic, Hellenistique, Hellenistisch) التى تشير إلى الانتساب أو التأثير. (٨)

وكنيت قد رأيت فى دراسة سابقة أن اشتق لفظا عربيا يفيد هذا الوصف ، فاخترت تسمية « متأعزق » لوصف العصر الجديد « و « متأغرة » لوصف الحضارة التى سادت فيه والتى انتسبت إلى الحضارة الإغريقية الكلاسيكية وتأثرت بها ، وعلى وجه الخصوص بالجانب الثقافى منها ، كذلك كنيت قد اتخذت لهذه التسمية مرادفا هو « العصر السكندرى » و « الحضارة السكندرية » على أساس أن الاسكندرية أصبحت منذ أوائل عصر البطالمة ، بما ظهر فيها من اتجاهات حضارية ، علما على عصر بأكمله ، له حضارته المميزة سواء تمثلت فى علومه أو أدبه أو فنه أو ثقافته بوجه عام. (٩)

(٨) ظهرت دراسة درويسن تحت عنوان *Geschichte des Hellenismus* وقد كان ظهور الجزء الأول منها فى عام ١٨٣٦ والثانى فى ١٨٣٣ .
 (٩) لطفى عبد الوهاب يحيى : مقدمة لحضارة الاسكندرية (الطبعة الثانية ١٩٥٩) صفحات ١٣٥ و ١٤ .

وأود الآن أن أضيف إلى ما ذكرت كلمة أو كلمتين في ضوء بعض الاعتبارات التي جددت أو التي تراءت لي منذ أن أقدمت على هذا التعريف وأول هذه الاعتبارات شكلية ويتعلق بتسمية «هلنستي» المتعارف عليها بين الكتاب العرب هنا حتى الآن . واللفظة ، كما هو واضح ، صورة منقولة عن التسمية الأوروبية ، وتعليل استخدامها هو أنها قد تحولت إلى اصطلاح يمكن استخدامه كما هو دون تعديل . ويمكنني أرى أنه إذا كان جذر هذه اللفظة يونانيا وبشكل اسم جنس بحيث يجوز لنا أن ننقله إلى العربية كما هو إذا أردنا ، فإن نهاية الكلمة ليست اسم جنس وإنما صورة نسبة في اللغات الأوروبية الحديثة (فيما عدا حرف الياء الذي يدل على النسبة في اللغة العربية) ، بحيث يصبح القسم الأول من لفظة «هلنستي» يونانيا وقسمها الثاني أوروبيا حديثا (دون سبب يدعو إلى ذلك) ونهايتها عربية . وربما كان من قبيل التساهل في إبقاء المتعارف عليه أن نترك هذه التسمية كما هي ، وفي رأي أن تسمية «متأغرق» وهي المرادف العربي الحرفي للكلمة الأوروبية التي نحتما أو استحدثها المؤرخ درويسن ، أقرب إلى إرضاء المثبت بالصورة العربية الكاملة كما كان ذلك ممكنا .

والاعتبار الثاني يدور حول المفاضلة بين تسمية «متأغرق» وتسمية «سكندري» ، في وصف العصر الذي نحن بهدد الحديث عنه . وقد ظاهرا في السنوات الأخيرة رأى مؤداه أن تسمية «متأغرق» تسمية غير دقيقة علميا . والرأى يقوم من ناحية على أساس أن الاغريق في العصر الجديد (وهو عصر التداخل بين حضارتى الشرق والغرب) تأثروا

بالحضارة الشرقية أو استشرقوا ، ، أكثر عما تأثر الشرقيون بالحضارة الإغريقية أو تأغرقوا ، . ومن ناحية أخرى على أساس أن الحضارة الإغريقية ، بمفهومها الكلاسيكي ، كانت قد أخذت في الذبول ، فاختفى أبرز مظاهرها ، وهو نظام دولة المدينة ، وأصبحت هناك بمالك واسعة يسيطر عليها ملوك ليسوا من الإغريق أصلاً ، وإنما من المقدونيين الذين أخذوا بقسط من الحضارة الإغريقية ، (١٠) . أما الشق الثاني فهو أن تسمية « سكندري » ، هي التسمية الدقيقة لهذا العصر على أساس أن الاسكندرية أصبحت مركز الثقل السياسي والاقتصادي والثقافي والغنى في المنطقة التي انطبعت بالطابع الحضاري للعصر الجديد ، بعد أن أصبحت أكبر مراكز الالتقاء الحضاري بين الشرق والغرب . (١١)

* * *

وفيما يخص الشق الأول من هذا الرأي ، فلا أستطيع أن أنكر أن ظاهرة الاستشراق أو التأثر بالحضارة الشرقية في المقام الأول كانت أمراً وارداً في العصر الجديد ، وهي ظاهرة تنبئ إليها أكثر من مؤرخ ممن تناولوا بالبحث حضارة هذا العصر . ولكنهما تقتصر على القسم الشرقي فحسب من المنطقة التي دخلت في الدائرة الحضارية للعصر

(١٠) محمد عواد حسين : الاسكندرية عاصمة العالم الهلنستي (المحاضرة الرابعة عشرة من سلسلة المحاضرات العامة في العام الجامعي ١٩٦٤/٦٣) ، ص ٦ .

(١١) محمد عواد حسين : نفس المرجع السابق ، ص ٩ - ٢٢

الجديد (١٢) . وهكذا ، إذا كانت مصر ، على سبيل المثال ، من المناطق التي تغلب فيها العنصر الحضارى الشرقى على العنصر الحضارى الإغريقى فإن هذا لم يكن الحال فى المدن اليونانية فهذه المدن إذا كانت قد فقدت محورها الحضارى الذى قام على أساس من نظام دولة المدينة ، فإنها لم تستبدل به نظاما شرقيا . والحقيقة أن المنطقة التي انطبعت بالحضارة الجديدة واجهت تحديات العصر بصيغ أربعة اكتسبت كل منها أبعادها حسب الظروف التي أحاطت بها .

وقد كانت الصيغة الأولى هي نظام الدولة الكبيرة التي تقوم على أساس من الفكرة الشرقية التي تقترب بجهاز الحكم كثيرا من درجة التقديس ، وترتفع بالحاكم الى مرتبة التآليه أو ما يقترب من مرتبة التآلية ، كما حدث فى مصر على سبيل المثال . والصيغة الثانية هي نظام الدولة الكبيرة التي تجمع بطريقة ما بين مركزية الحكم وفردية الحاكم من جهة (وهو اتجاه إذا كان يمثل ما كان موجودا فى الشرق إلى حد ما فإنه لم يكن شرقيا بالضرورة ، وإنما عرفه الغرب فى إحدى درجاته على

(١٢) راجع تعليقات المؤرخ Bell والمؤرخ Milne التي أوردها الدكتور عواد فى نفس المرجع ويلاحظ أنها تخص مصر بالذات . راجع كذلك ماذكرته المؤرخة Claire Preaux فى مقالها Les Egyptiens dans la Civilisation Hellénistique d'Egypte (Chr. d'Egypte, xvii) pp. 148 - 60 وفيها تؤكد الآثار المتفوق للناصر الثقافية المصرية على حضارة مصر فى العصر الذى نحن بصدد الحديث عنه . مقتبس فى : H. I. Bell : Egypt (Fom Alexander The Great to the Arab Conquest, p, 138, n. 12

عهد الملكية المومرية (وبين الاتجاه الشعبي الذى يتمثل فى إشراك المواطنين فى تصريف بعض شئون الحكم من الجهة المقابلة ، ومقدونية هى مثالنا على ذلك . أما الصيغة الثالثة فهى نظام الاتحادات أو الجامعات (بالمفهوم السياسى لا الثقافى) التى قامت بين بعض المدن اليونانية فى محاولة من جانب هذه المدن لتحافظ على كياناتها فى مجابهة الدول الكبيرة الصاعدة التى كانت تهدد هذا الكيان ، كما كان الحال مثلاً فى جامعة المدن الآيتولية وجامعة المدن الآختية . والصيغة الرابعة هى المحاولات التى تمت فى عدد من المدن اليونانية لإضعاف أو القضاء على حدة النزعة الانفصالية والحواجز السياسية القديمة بينها والتى تجسدت فى صورة منح حقوق المواطنة من قبل مدينة لواحد أو أكثر من أبناء مدينة أخرى ، وهو إجراء كان يتسع فى بعض الأحيان ليتحول إلى مواطنة متبادلة يتمتع بها ، داخل حدود وشروط معينة ، كل المواطنين فى مدينتين تتفقان على ذلك - كما حدث مثلاً حين أضقت أثينيه حقوق المواطنة الآثينية على مواطنى بريينى Priene فى أوائل القرن الثالث ق م . ، وكما حدث بعد ذلك بين أثينيه ورودىس وبين مسينى Messene وفيجاليه Phygaleia وبين پاروس Paros والألاريه Allaria على سبيل المثال (١٣) .

(١٣) عن النظرية التى قامت عليها المصيغة الأولى (الملكية الشرقية)

راجع :

C.W. Mc Ewan : The Orriental Origin of Hellenistic Kingship, (Studies in Ancient Oriental Civilization, XIII, Chicago, The Oriental Institute =

هذه هي الصيغ السياسية والحضارية الأساسية التي واجهت بها المنطقة التي انسحب عليها وصف الحضارة الجديدة تحديات العصر . وإلى جانبها وجدت صيغ أخرى لم تتمثل في نظام سياسي محدد ، وإنما ظهرت في أشكال أخرى من بينها الاتفاقات التي كانت تقوم بين المدن اليونانية وبين ملوك الدول التي ظهرت على أثر تقسيم إمبراطورية الاسكندر على اعتبار منطقة ما منطقة مقدسة أو منطقة حراما asyla بحيث لا تجوز مهاجمتها أو إعلان

of Chicago, 1934)

Henri Frankfort : Kingship and the Gods (Chicago, 1948).

T.S. Gaster ; Divine Kingship in the Ancient Near East (\ Review of Religions, IX, 1944 — 5) pp. 267—281

عن التقاء الفكرة الشعبية مع النظرية الفردية في الصيغة الثانية (مقدونية) راجع :

Geyer ; Makedonia (Real-- Encyclopædie der Class. Altertumswissenschaft, XIV) 712, 769—70

Tarn ; Cambridge Ancient History, VII. 201-2, 751

Julius Kaerst : Gesch. des Hellenismus, I, 181—9

عن الصيغ الثلاثة الأولى راجع :

M.Hammond : City-State and World State, pp. 28-38

عن الصيغ كلها مندرجة في ثلاث صيغ راجع :

W.W. Tarn (& G.T. Griffith). Hellenistic Civilisation (3rd. ed.), pp. 47-125

الحرب عليها . وقد كانت أولى المدن التي استفادت من هذا الوضع مد
سمورنه Smyrna (حوالي ٢٤٠ ق م) وتبعثها في ذلك ماجنيسية gnesia
والأباند Alabanda وميليتوس Miletos وخالقدون Chalkedon .
أخرى غيرها . (١٤)

وظاهر من كل هذا أن العصر الجديد إذا كان الاتجاه الش
قد مثل جزءا من حضارته أكد وجوده وتفوقه في الملك
التي قامت على شواطئ القسم الشرقى للبحر المتوسط ، فإن العنصر الغ
كان لا يزال سائدا في بقية المنطقة بحيث يصبح اتجاه الاستشر
فيها أمرا غير وارد . ومن هنا تصبح القضية التي تخص المنطقة
أنطبحت بحضارة العصر الجديد ليست قضية تغلب للبقومات الشرفية
للبقومات الأغريقية بوجه عام ، فقد رأينا أن تغلب هذه أو تلك مر
بالمظروف التاريخية والحضارية التي مر بها كل قسم في أقسام المنطق
ولكن مع ذلك فقد كان هناك طابع مشترك بين كل هذه الأقسام
المنطقة كلها . هذا الطابع هو انفتاح هذه الأقسام على بعضها وزوال

(١٤) n (& Griffith) : op. cit., 82 - 4

على أن وجود هذه الطرق والصيغ المختلفة لا يعنى أن كل الما
اليونانية اعتنقت بالضرورة واحدة أو أخرى منها ، فقد ظا
هناك بعض المدن التي لم تحاول أن تنخرط في أى من هذه الصيغ
وإنما واجهت التحدى الجديد ، الذى مثلته القوى الكبيرة الصاع
الطامعة في السيطرة ، بحمودها على ما كانت عليه من نزعة انفصا
وبشأن سياسى وحضارى أدى إلى ضياعها .

تخلخل الحاجز المسكاني والحضارى الذى كان يفصل بينها إلى حد كبير . حقيقة إن المنطقة لم تصبح وحدة سياسية واحدة ، كما أنها بالتأكيد لم تصبح وحدة حضارية واحدة لها نفس النيم وتشترك فى نفس النظرة إلى كل جوانب الحياة . ولكنها إذا كانت لم تندمج فى نسيج حضارى واحد ، فإنها من الجانب الآخر لم تعد تمثل عاملين متباعدين أو منفصلين لا يتم التقارب بينهما إلا فى شكل تسرب حضارى عفوى . وإنما أصبح الشرق والغرب فى المنطقة يمثلان قسمين من عالم واحد تقوم فيه كل إمكانيات الاتصال الاثنابى السهل بين هذين القسمين .

وفى كانت همزة الوصل أو الامكانية التى تم من خلالها أو عن طريقها هذا الاتصال بين كافة أرجاء المنطقة هى الثقافة الاغريقية التى قامت على ركبتين أساسيتين : الركيزة الأولى هى اللغة اليونانية التى أصبحت لغة الثقافة فى المنطقة بأكملها والتى أصبحت تمثل جواز المرور لكل من يريد أن ينال حظا من ثقافة العصر سواء كان ما يبغيه علما أو أدبا أو فنا . بل لقد أصبحت هناك ، إلى جانب اللهجات المتعددة التى كانت شائعة بين أبناء العالم اليونانى ، لهجة أو لغة أغريقية مشتركة أو عامة Koine من الممكن أن تحمل الانسان عبر المنطقة بأكملها من غربها إلى شرقها ، تماما كما تحمل اللغة الانجليزية السائح عبر الدول المختلفة الواقعة فى غربى وأوروبا على سبيل المثال . وهكذا نستطيع أن نقول إن اللغة الاغريقية ، فى لهجتها هذه المشتركة أو العامة أصبحت لغة التفاهم أو التعامل الدولى إلى جانب كونها لغة لثقافة العصر .

أما الركيزة الثانية للثقافة اليونانية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة فهى

الآغريق أنفسهم الذين هاجروا ، في أعداد غير قليلة ، إلى مختلف أرجاء المنطقة في أعقاب فتوح الاسكندر وبخاصة بعد أن أقام خلفاؤه دولهم الجديدة على أنقاض إمبراطوريته . فقد حاول هؤلاء الخلفاء أن يجتذبوا أعداداً كبيرة من الآغريق سواء للاعتماد عليهم كجنود مرتزقة أو كفننيين في كافة المجالات سواء كان المجال إدارة أو تجارة أو حرفاً صناعية أو غير ذلك^(١٥) لقد كان هؤلاء الآغريق دون شك عنصراً مشتركاً متحركاً في المنطقة بأكملها ، سواء بوصفهم سكاناً يمثلون ، كما كانت تمثل لغتهم ، همزة وصل بين أقسام المنطقة ، أو بما يشيرونه حولهم بالضرورة من قيم في هيئة عادات وتقاليد وعقيدة ، بصرف النظر عن المدى الذى وصل إليه تأثير هذه القيم في الأقسام غير اليونانية من المنطقة ، فالقضية التى أمامنا هى مدى وضع هذه القيم كحلقة وصل موجودة فعلاً بين كل أقسام المنطقة ، وليست نسبة تأثيرها فى كل قسم من أقسام المنطقة على حدة .

(١٥) يدل على هذا فى حالة مصر ، على سبيل المثال : العدد الكبير من الخطابات التى كان يرسلها المهاجرون الآغريق إلى أبولونيوس ، وزير المالية فى عهد بطليموس الثانى ، يطلبون إليه فيها قطعة من الأرض يقومون بزراعتها أو قرضاً يعدون بسداده . راجع برديات :

P. Cairo Zen. , 59284; P. Col. Zen., 41; P. ich. Zen., 33, 46.

Claire Preaux : Les Grecs en Égypte, p 84

وعلى هذا الأساس ، ومن هذه الزاوية التى تمثل « نقطة اشتراك » ، لا تقتصر على قسم من المنطقة دون قسم وإنما تنتظم أقسام المنطقة بأكملها ، نستطيع أن نقول إن المسحة أو الصبغة الاغريقية التى تجسدت فى صورة الثقافة الاغريقية « المشتركة » ، وليست تلك القاصرة على بلاد اليونان فقط ، بركيزتيها المذكورتين وهما اللغة التى أكتسبت لهجة جديدة مشتركة بين كل أقسام المنطقة ، والاغريق الذين أصبحوا ، هم الآخرون ، عنصرا مشتركا بين كل هذه الأقسام - هذه المسحة أو الصبغة الإغريقية أصبحت هى العنصر المشترك ، مهما كانت نسبته فى الأقسام المختلفة فى المنطقة التى نحن بسبيل الحديث عنها ، فى ذلك العصر . وهكذا نستطيع أن نقول إن الصفة الأساسية للعصر هى أنه « العصر المتأغرق » .

ولعل فى ذكر مثال فى هذا الصدد على سبيل المقارنة ، ما يلقى شيئا من الضوء على هذه التسمية . والمثال الذى أود أن أورده هو ما حدث بعد الفتوحات العربية فى القرن السابع الميلادى فى المنطقة التى شملتها هذه الفتوح (وقد كانت من بينها بعض أجزاء المنطقة التى شملها فتوح الاسكندر قبل ذلك بنحو الف عام - وهى مصر وسورية) . لقد عرب الفاتحون من الجزيرة العربية المنطقة التى يمتد عبرها العالم العربى الآن . ولكن مع ذلك فإن المقومات الحضارية لشبه الجزيرة العربية لم تطغ على المقومات الحضارية فى المناطق المفتوحة التى استعربت ، فلم تذب الحضارة المصرية مثلا فى حضارة جديدة غازية ، ولم يحدث ذلك فى سورية أو على طول الساحل الأفريقى الشمالى . وإنما الذى حدث هو أن أقسام المنطقة التى غزاها عرب شبه الجزيرة ، انفتحت على بعضها وأصبحت هناك امكانية للاتصال الحضارى الايجابى بينها عبر الثقافة العربية التى قامت ، على نسق الثقافة الاغريقية فى المنطقة التى شملتها فتوح الاسكندر ،

على ركيزتين هما اللغة والعرب المهاجرون ، بحيث أصبحت اللغة العربية هي لغة الثقافة وأداة الاتصال الإيجابي بين حضارات المنطقة ، وأصبح العرب المهاجرون من شبه الجزيرة العربية ، سواء بأشخاصهم أو بما أشاعوه من قيم وعادات وتقاليد ، بصرف النظر عن مدى الأثر الذي تركته هذه القيم والعادات والتقاليد على الحضارات التي كانت موجودة في المنطقة ، يمثلون عنصرا مشتركا متحركا ، بحيث أصبح من الأمور العادية أن يولد الشخص مثلا في الحجاز ويتعلم في القيروان ويستقر في مصر أو الشام ثم يموت في بغداد ، تماما كما كان الإغريق في العصر المتأغرق يولد في أثينا مثلا ثم ينزح ليتعلم في جامعة الاسكندرية ويستقر في أنطاكية ويموت في رودس .

• • •

نم ببقى الحديث عن النقطة الثانية التي تتعلق بتسمية العصر المتأغرق بالعصر السكندري . وقد ذكرت في مناسبة سابقة أني كنت قد استخدمت منذ سنوات ، هذه التسمية كمرادف ، وليس كبديل ، لتسمية « العصر المتأغرق » . والتسمية بهذا المعنى واردة في كتابات الذين عالجوا حضارة العصر الذي نحن بسبيل الحديث عنه في واحد أو أكثر من جوانبها ، سواء في ذلك الجانب التاريخي أو الأدبي أو الفني أو غيرها ، ولإن كانت هناك خلافات جمانية حول تحديد الجوانب الحضارية التي يمكن أن تنطبق عليها هذه التسمية من جهة وحول نقطة أو تاريخ ابتداء العصر السكندري وتاريخ نهايته من جهة أخرى . (١٦)

(١٦) راجع على سبيل المثال في مجال الادب :

== J.W. Mackail: Lectures on Greek Poetry ، وهو يرى

والاسكندرية لعبت دوراً أساسياً ، وفي بعض الأحيان الدور الأول ، في العصر المتأغرق في أكثر من مجال . ففي عهد البطلمية

== أن العصر السكندري يبدأ بوفاة الاسكندر في ٣٢٣ ق.م. وينتهي بضم سورية إلى أملاك الجمهورية الرومانية (٦٥ ق.م.) كذلك Knack ; Alexandrinische Litteratur, Real Encycl-opaedic I, 1300 الذي يرى أن تسمية العصر السكندري غير مناسبة . هذا اهتمام بحكام البيت البطلمي بثقافة العصر ، ووضع الاسكندرية كمركز أساسي للفنون والعلوم آنذاك ، وإن كان يرى أن هذه التسمية لا تؤدي إلى أن تفقد تسمية العصر المتأغرق ، أهميتها أو مبررات وجودها .

كذلك : Logrand: La Poesie Alexandrine, p, 14 الذي يرى أنه تسمية العصر السكندري تبدو في غير موضعها كوصف للعصر الذي نتحدث عنه في مجال الدراسات التاريخية العامة ، ويجب أن تحل محلها في مجال هذه الدراسات تسمية العصر المتأغرق ، ولكنها تصبح في موضعها تماماً في مجال تاريخ الأدب .

وقد وردت الإشارة إلى هذه المراجع في الدراسة التي قام بها الدكتور السلاّموني حول تحديد العصر السكندري ، في مجال الأدب الاغريقي، راجع :

M.M. El- Salamouni ; An Attempt for defining the "Alexanprian Period" as an Independent Era of Greek Literature, pp. 3-5 nn. 1-7

راجع كذلك تحديد العصر السكندري ، من الناحية الزمنية ، بالفترة التي كانت فيها الاسكندرية عاصمة لمصر في : لطفي عبد الوهاب يحيى : مقدمة لحضارة الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ص ٦ .

الأوائل كانت الاسكندرية ، كعاصمة لمصر ، هي منطلق السياسة التوسعية التي عرفت طريقها إلى أغلب شواطئ المنطقة التي انطبع بها بالطابع المتأغرق ، وإذا كانت الفترة التالية من حكم البطلمة قد بدأت تشهد تدهورا ثم ضياعا في المركز السياسي للبطلمة أمام تدخل رومه التدريجي وسطوتها في شرق البحر المتوسط ، فإن عهد كليوباتره السابعة ، آخر حكام البيت البطلمي ، قد قفز بالاسكندرية مرة أخرى لتصبح المحور الذي تعلق به لفترة متوترة من الزمن مصير مصر من جانب ومصير الجمهورية الرومانية من الجانب المقابل ، أثناء الصراع الرهيب الذي قام بين القائدين الرومانيين اكتافيوس وأنطونيوس ، على الانفراد بمركز السيادة في الجمهورية الرومانية وممتلكاتها على شواطئ البحر المتوسط ، والذي حاولت كليوباترة ، من مركزها في الاسكندرية ، أن تستغله لصالحها ، بأن تجتذب إلى صفها أحد الخصمين ، وإن كانت الظروف قد لعبت ضدها فكانت الهزيمة من نصيب القائد الذي اجتذبه إلى صفها - وعلى أى الأحوال فإذا كانت موقعة أكتيوم (٣١ ق م) هي التي فتحت طريق النصر أمام اكتافيوس ، فإن هذا النصر لم يحسم إلا في موقعة الاسكندرية في العام التالي .

ولم يقتصر دور الاسكندرية في العالم المتأغرق على الجانب السياسي فحسب ، بل تعداه إلى الجوانب الأخرى وبخاصة الجانب الثقافي عموما ، الذي تجسد في ظهور جامعة الاسكندرية بكل من اشترك في أبحاثها من العلماء الذين أتوا من كافة أنحاء العالم المتأغرق ومن بينهم أسماء احتل

أصحابها مركز الطليعة في أفرع المعرفة التي عالجزوها ، طبا كانت أم فلكا
أم رياضة أم فيزياء أم غيرها . وفي صورة مكتبة الاسكندرية التي كانت
أكبر مكتبة وأول مكتبة عامة في العالم القديم ، والتي تخايل البطالمه بكافه
الطرق حتى يغدوها بأندر وأكبر قدر من الكتب الموجودة في
زمنهم (١٧) .

كذلك ظهر طابع الاسكندرية في الأدب ليس فقط في الإسكندرية ، وإنما
ظهر أثر هذا الطابع في المراكز الأدبية الأخرى في العالم المتأغرق
وبخاصة تحت حكم البطالمة الثلاثة الأول الذين يقع ضمن عهدهم أوج
العصر السكندري . وقد بلغ من قوة هذا الأثر أن الشعراء الاغريق في
الانحاء المختلفة للعالم المتأغرق لم يكن بوسعهم أن يتجاهلوا التقدير الأدبي
لأدباء الاسكندرية وأبرزهم كان كاليماخوس Kallimachos الذي أخذ مكانه
كعميد النقاد الأدبيين في عصره ، بحيث أصبحت دائرة الأدباء السكندريين
هي العامل الحاسم في نجاح أى شاعر في أى قسم من أقسام المنطقة المتأغرفة،
ومن ثم تركت طابعها على الشعر الاغريقى كله في العصر المذكور (١٨) .

W.L. Westermann The Library of Ancient Alexandria (١٧)
pp. 2-16

لطفي عبد الوهاب محي : الاسكندرية في العصر البطلمي ، (في تاريخ
الاسكندرية منذ أقدم العصور) صفحات ٣٥ - ٤٣

El-Salamouni ; op. cit., pp. 11-13 & n. 28 (Koothe: The (١٨)
Hellenistic poetry الترجمة الانجليزية p. 01)

ولا أريد هنا أن استرسل في بيان الدور الذي قامت به الاسكندرية في هذا المجال أو في بعض المجالات الأخرى ، وبخاصة في الجوانب الاقتصادية في العصر المتأغرق فسيأتى هذا في حينه في سياق هذه الدراسات وقد كان هذا الدور كبيرا دون شك وغير قاصر على هذه المدينة كعاصمة لمصر ، وإنما كانت أبعاده تمتد لتشمل دائرة العالم المتأغرق أو قسما لا بأس به من هذه الدائرة (١٩). وهو دور يجز لنا ، وبخاصة من الناحية الثقافية والادبية على وجه التحديد كما أسلفت ، أن نطالع على العصر المتأغرق تسمية العصر السكندري .

ولكن مع ذلك فإن هذه التسمية لا يمكن إلا أن تدور داخل مفهوم معين لا ينطبق في كافة جوانبه على كل أقسام العالم المتأغرق ولا على كل فتراته . فمن الناحية السياسية الخارجية مثلا ، إذا كانت الاسكندرية قد شغلت العالم المتأغرق في عهد البطلمة الاوائل وإذا كانت قد شغلت رومه أثناء احتيكاكها بالعالم المتأغرق في عهد كليوباتره السابعة ، فإنها لم تكن تمثل في الفترة المتوسطة من تاريخ البطلمة إلا فترة ضياع ثم تبعية في هذا المجال . وكذلك من الناحية السياسية الداخلية فإن نظام الحكم الذي كان سائدا فيها ، وهو نظام حكم يمثل في أحد شقيه عاصمة دولة تسير على النظام الفردي المركزي ويمثل في شقه الآخر مدينة لها إطار دولة المدينة ولكنها تفتقد محتواه . أقول إن نظام الحكم الذي كان سائدا في الاسكندرية إذا كان يمثل وضع بعض المدن في الدولة السلوقية التي قامت في سورية مثلا فإنه لم يكن ممثلا للعالم المتأغرق كله بآية حال .

(١٩) يجد القارىء موجزا شاملا لهذا الدور في

محمد عواد حسين : نفس المرجع ، صفحات ١٢ - ٢٣

وفي ضوء هذا الظرف بتحدد المفهوم الذي يجب أن تدمير
في نطاقه تسمية العصر المتأغرق والعصر السكندري برجسه عام .
وفي حدود هذا المفهوم نستطيع أن نقول إن العصر قد طبعته حضارة
الاسكندرية في مجال الثقافة وبخاصة في مجال الأدب والبحوث العلمية ،
كذلك كانت الاسكندرية في مجال الاقتصاد أثرها الظاهر في العالم المتأغرق
وإن كان هذا يقتصر على الجانب التجارى فحسب ، أما الفن فربما شهد
أكثر من مركز أساسى وأكثر في طابع إلى جانب الطابع السكندري ،
وأخيراً ففي مجال السياسة كانت هناك التحفظات التي أشرت إليها فيما يخص
السياسة الخارجية والداخلية .

وتبقى كلمة أخيرة في هذه الصدد تخص الحدود الزمنية للعصر السكندري
بمفهومه هذا ، وهل هو ينطبق على العصر المتأغرق بأكمله ، بمعنى أنه
يبدأ من الوقت الذى أتم فيه الاسكندر فتوحاته ومن ثم اكتملت له
السيطرة على المنطقة (في صورة زعامة إجبارية على اليونان وفي صورة
سيادة إمبراطورية على القسم الذى كانت تقوم فيه الإمبراطورية الفارسية
قبل ذلك) ، وينهى باتمام رومه سيطرتها على آخر قسم من أقسام
المنطقة المتأغرة ، وهو مصر ، في ٣٠ ق.م. ، أم أنه يختلف عنه في هذه
الحدود الزمنية (١٢٠) .

(٢٠) التحديد الذى أقدمه هنا للعصر المتأغرق لا يمكن إلا أن يكون
تحديداً عاماً ، شأنه في هذا شأن أى تحديد تقدم في هذا المجال
(سواء كانت بدايته هي بداية فتوح الاسكندر أو انتهاء الاسكندر
من فتوحه أو موت الاسكندر في ٣٢٣ ق.م. أو تدعيم خلفاء
الاسكندر لمركزهم كملوك للامم التي قسموها إليها إمبراطوريته)

وأورد في هذا المجال رأيا ظهر مؤخرا وهو ، وان كان يقتصر على جانب النشاط الأدبي من حضارة العصر ، إلا أنه يقدم اتجاهها يصلح كنموذج يمكن تطبيقه في الجوانب الحضارية الأخرى ، بعد أن تأخذ في الاعتبار الظروف الخاصة بكل جانب (٢١) . والاتجاه الذي يقدمه هذا الرأي هو أننا لا نستطيع أن نقول إن العصر السكندري بدأ إلا بعد أن بدأت الآثار الأولى للعمل الثقافي السكندري في الظهور ، وبعد أن بدأت الزهرات الأولى للشعر الوطني في التفتح ، ومن ثم أصبح من الممكن أن يكون لها أثر في العالم المتأغرق . وقد ظهرت السمات المميزة للشعر السكندري لأول مرة في القصائد التي كتبها الشاعر كاليماخوس Kallimachos ، وهي السمات التي أثرت في أدب العصر المتأغرق بعد ذلك . وكان أول إنتاج لهذا الشاعر هو الديشيد الذي كتبه تحت عنوان « إلى زيوس » (كبير آلهة اليونان) حوالي ٢٨٠ - ٢٧٥ ق.م . ومن هنا ، تمشيا مع هذا الرأي ، فإن العصر السكندري يجب أن يبدأ من هذا التاريخ . وهكذا يمكننا أن نقول إن « العصر المتأغرق » ، من حيث انطباقه أو عدم انطباقه

== فالجوانب التاريخية التي بدأ فيها العصر قد وجد حتى قبل فتوح الاسكندر ، ومقومات هذا العصر امتدت حتى بعد أن دخلت المنطقة المتأغربة رسميا تحت سيطرة رومه ، بل لعلنا لا نبتعد كثيرا عن الصواب إذا قلنا إن الذي حدث لفترة هو أن رومه تأغرقت في المجال الثقافي بعد أن سقط العالم المتأغرق سياسيا في يدها .

على « العصر السكندري » ، ينقسم إلى قسمين : القسم الأول هو « ما قبل العصر السكندري » ، وهو يشمل فترة ما قبل ٢٨٠ - ٢٨٥ ق.م. والقسم الثاني ، وهو « العصر السكندري » ، الذي يغطي بقية العصر المتأغرق ، بعد هذا التاريخ .

والأى ، في الواقع يمثل محديدا علميا دقيقا للعصر السكندري فيما يخص جانب الأدب . والاتجاه الذي يمثله يمكن أن يطبق ، بتجديدات زمنية أخرى (من حيث البداية) فيما يخص جانب الفن أو جانب الاقتصاد أو أى جانب آخر من الجوانب التي نشتمل عليها حضارة العصر . ولكن مع ذلك فهناك نقطة أود أن أضيفها في هذا المجال . هذه النقطة هي أن الفترة الأولى من العصر المتأغرق لم تكن في الواقع فترة استقرار وإنما كانت مرحلة دفع وجذب وبأبليس وتكوين استمرت فترة غير قصيرة بعد وفاة الاسكندر ، وعبر فترة الصراع الذي قام حول مصير الامبراطورية التي كنزها ، وبعد أن استنفذ خنفاؤه في المناطق التي شهدت قيام حكمهم . ومن هنا فالفترة التي وقعت بين موت الاسكندرية والعقود الأولى من القرن الثالث ق.م. نستطيع أن نقول إنها لم تشهد نشاطا إبداعيا حضاريا في أكثر الجوانب . إلا في أضيق الحدود ، وإنما كانت في أغلبها مرحلة تكوين وهكذا فإن تسمية الفترة الأولى من العصر المتأغرق بفترة ما قبل العصر السكندري تصبح تحديدا زمنيا نظريا دون أن يكون لها محتوى حضارى عملي ذو أبعاد أو اتجاهات محددة .

وهكذا نستطيع أن نقول ، في حدود هذا الرأي وفي ضوء الآراء والاعتبارات السابقة ، وإذا نظرنا من ناحية التناج الحضارى الذي أصبحت

له سمات وملامح محددة - إنه كان هناك عصر سكندري تقع بدايته بعد العقود الأولى من القرن الثالث ق.م ، وهو من ناحية المادة والأثر الحضاريين ينطبق بشكل تام على العصر المتأغرق أما من الناحية الزمنية فإنه يبدأ متأخرا عن العصر المتأغرق بحوالى نصف قرن يقع عبر العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الرابع ق.م. والعقدين الأولين من القرن الذى يليه على وجه التقريب ، إذا اتخذنا موت الاسكندر كبداية رسمية للعصر المتأغرق ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هناك تطابقا زمنيا تقريبا بين العصرين إذا أهملنا الفترة الأولى من العصر المتأغرق على أساس أنها كانت ، كما أسلفت ، فترة اضطراب ليس ليس لها وزن كبير فى حساب النتاج الحضارى الإيجابى .

الباب الثاني

الشرق واليونان والعصر الجديد

١ — اتجاه الحضارة الشرقية

العصر المتأغرق ، إذن ، كان عصر انفتاح بين عناصر أو مقومات حضارية شرقية ، وأخرى غربية (وهى يونانية فى المقام الأول) . وقد التقت هذه العناصر أو المقومات بدرجات متفاوتة فى المناطق المختلفة التى شملتها حضارة العصر الجديد . وسأدير الحديث عن هذه العناصر من ثلاث زوايا : هى القاعدة أو النظرية التى يقوم عليها نظام الحكم فى كل من الشرق وبلاد اليونان ، ثم الاتجاه الذى اتخذته هذا النظام فى الشؤون الداخلية ، وأخيرا الاتجاه المناظر فى الشؤون الخارجية .

ولنبداً بالشرق الذى كانت تمثله حتى الوقت الذى نحن بصدد الحديث عنه ، الامبراطوريات والملوكيات التى ظهرت فى المناطق المناخمة للقسم الشرقى للبحر المتوسط . ولتسكن مصر ، التى ستكون موضوع هذه الدراسات ، مثالا لنوع الحياة الذى كان يمثل الاتجاه الحضارى الشرقى . وهنا نجد فى المجال الداخلى أن ملكية الأرض استقرت فى يد طبقة كبار الملاك الذين سخرُوا بقية أفراد الشعب فى زراعة هذه الأرض كأجراء أو أنصاف أرقاء ، ولم يكن أمام هذه الغالبية المحكومة ما يتيح لها الادراك الايجابى الواعى لهذا الوضع الاقتصادى غير المتكافئ . فمن جهة لم تكن هناك

فرصة مقارنته بتنظيم اجتماعى آخر مقارنة تشير إلى ما هو عليه من نقط الضعف . فالبلاد واسعة والطبقة المحكومة متناثرة في الريف بعيدة عن أى مصدر من المصادر التى تعلمهم على أحوال المجتمعات الأخرى . ومن جهة أخرى لم تكن لديهم فرص المساومة الطبقيـة الاجتماعية مع الطبقة الحاكمة ، فالبلاد تعتمد أساساً على الزراعة ، وعليه فامتلاك هذه الطبقة للأراضي الزراعية يضع في قضيتهم وحدهم المورد الاقتصادى الأساسى الذى يتحكمون عن طريقه في حياة الطبقة المحكومة دون أن يكون أمام هذه الأخيرة أية فرصة المساواة الاجتماعية ، وهكذا استطاعت الطبقة الحاكمة من كبار الملاك الزراعيين وعلى رأسهم الفرعون ، المالك الزراعى الأكبر ، أن تسيطر على الشعب وأن تفرض عليه بكافة الطرق المباشرة وغير المباشرة ، لإرساء هذه السيطرة على أساس أدبى أو شرعى راسخ ، تفسيراً جعل من الملك ، وهو يمثل طبقة الملاك ، إلهاً أو سليلاً للآلهة ، وجعل من حكمه حقاً أو تفويضاً نهياً ينزل من أفراد الشعب منزلة التقديس وينطبع الانحناء له بطابع التدبىن العميق ، وبدخل التذمر منه أو التردد عليه فى نطاق المروق الدينى بكل ما يستوجبه هذا من عقاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة (٢٢).

هذا التفسير الذى يفرض السيطرة التامة من الطبقة الحاكمة ويستلزم الخضوع التام من الطبقة المحكومة ويضفى على هذا الوضع كل صفات

التقديس والتنظيم الالهي الازلي الذي لا يقبل اعتراضا ولا يسبح
بمراجعة ، نرى صدهاء وانسجا في الادب المصرى القديم في جميع مراحلها .
ولنستمع في هذا المجال إلى صفات المنسجات الثالث (١٨٤٤ - ١٧٩٧ ق م .)
التي ضمنها أحد كبار الطلبة الحاكمة إحدى شعائده (٢٣) وفيها نرى الفرعون
لها يمنح رعايا الحياة ويملك عليهم حق الموت ويضع في الأرض من فضله
خصبا نذبت به رزقا يهبه من يشاء ويحرم منه من يشاء ، بل أن النور
الذي يغمر الكائنات ويهدي الناس نعمة من نعمه يوليمهم إياها ويتجلى
بها عليهم .

• إنه يدرك ما بدور في القلوب ، ويرى بنظره الفاحصة كل
إنسان ، وهو الإله رع الذي يسيل أشعته هدى للناظرين .

إن النور الذي ينبعث عنه ليغمر الأرضين (الوجهين) أقوى من
ضياء الشمس ، والخصوبة التي يضيفها عليهما أكثر من تلك التي يأتي
بها النيل عند الفيضان ، لقد ملأ الأرضين بنصرة والحياة .

أنه يهب القوة من يقومون على مصالحه . ويمد بالموت أولئك الذين
يسعون في خدمته . وهو القوة العارمة والحياة النابضة لرعاياه
المخلصين . أنه يتعهد بالتمام كل وليد ، وله غوة الإله خنوم الذي يرعى
الاجنة في الارحام .

A. Erman : The Literature of the Ancient Egyptians (٢٣)

(الترجمة الانجليزية قام بها M. Blackman) صفحات ٨٤ - ٨٥

« إن رحمته ورعايته من روح الإلهة باستت التي تحمى الأرضين ،
وأولئك الذين يحترمون سلطانه لن يعصيه ضمير ، ولكن له شراسة الآلهة
سخرت حين يجرؤ أحد على عصيان أمره .

كافح لرفع اسمه ، وادرم السوء عن بابه ، تنج من كل أذى ، فن
يكن صديقاً للملك يصبح الشرف خدنه وحليفه . بينما لن يقوم لمن
يعاديه حتى الحدث الذي يضم رفاته ، .

وما يقال عن سلطة الفرعون الإدارية يقال عن سلطاته العسكرية والحربية ،
فهنا كذلك نجد التفويض الإلهي رائداً للملك في كل ما يقوم به أو يقدم عليه
يظهر ذلك في الأناشيد أو التراثيم التي كانت تصاغ بأمر من الحكومة
أو الكهنة لتتقش على آثار الملوك مخلدة أفعالهم . ولتأخذ كمثال على ذلك ،
أبياتا من نشيد يعدد انتصارات تحتمس الثالث ، وهي في صورة خطاب
من الإله آمون إلى هذا الملك (٢٤) .

« هذا قول آمون رع سيد الكرنك : إنك تأتي إلى مفعما بالسرور
حيث ترى طلعتى البهية يا د من خبروع » (الاسم الرسمي للملك) ،
ولدى الذى يحمى حماى ، والذى له الحياة الأبدية .

لنى أشرق على الناس من أجل حبي لك ، ويغمر فؤادى الحبور
حين تحضر إلى المعبد يحف بك البهاء والجمال ، ويبدى أدفع عنك
السوء وأسبغ عليك الحياة ، .

ثم يمضى الاله ليعدد المعسارك التى انتصر فيها الملك ، والبلاد التى
أخضعها لسلطانه فى شتى أرجاء العالم المعروف ، كل ذلك بعونه ورعايته
وتدبيره ، حتى ينهى النشيد بقوله لتحتمس :

د انى أركاك واحوطك بحمايتى أى بنى العزيز ، يا حورس ، أيها
السيد العظيم الذى يشرق بطلعته فى طيبه ، أى ولدى الذى أنجبته من
صلى ، تحتمس الذى له الخلود ... لى انصيك على عرش حورس للملايين
السنين حتى يكون لك الحكم الأبدى على الأحياء ،

هذا هو وضع فرعون ، الممثل الأول للطبقة الحاكمة ، فى مصر القديمة ،
هو إله أو من سلالة الآلهة . والآله بعد هذا وفوق هذا ليس بالقوة
البسيطة أو الاعتبار التافه ، بل هو قادر مقتدر يسيطر بقوته التى لاحد لها
على العالم ومن فيه . ولناخذ مثلا على ذلك ايمانا قليلة من المزمور
الأول من نشيد آمون العظيم .

د الحمد لك يا آمون رع ، يا سيد مدينة الشمس ، يا سيد الكرنك
والسيطر على طيبة .. ياذا الباع الطويل والخطا السديدة ، صاحب
المقام الأعلى فى مصر العليا ، وسيد أرض الماتوى (النوبة) وأمير
بونت . يا أعظم من فى السماء وأول من فى الأرض وسيد كل
الخلوقات ، الذى نفخ من روحه فى الكائنات . أنت سيد الخليقة
وابو الآلهة الذى خلق الانسان والوحش والشجر والعشب الأخضره

أنت الذى خلق الانسانى على الأرض وابدع الاجرام فى السماوات ،
الذى يضىء الأرضين .. وييده سيادة البلاد فى الشمال والجنوب .

يا سيد الأرضين ، يا صاحب القوة والعظمة ، يا سيد الليل وخالق
الكون ، لك الابهال والتسبيح يا من خلق الآلهة ورفع السماء ودحا
البسيطة .. الخ . ،

وفد كان طبيعيا في ظل هذا الحق الإلهي للملك أن تتجمع كل خيوط
السلطة في يد الحاكم والبطانة التي يعتمد عليها بشكل لا يسمح بمناقشة
ما يجب أن يقوم بين الحاكم والمحكوم من حقوق وحدود . وهكذا
لا نجد في الأدب المصرى القديم ، فيما يتعلق بهذا الجانب من الحياة العامة ،
سوى انعكاسات لسلطة غير محدودة من جانب الطبقة الحاكمة تقابلها
انطباعات لطاعة غير محدودة من جانب الطبقة المحكومة ، دون أن يكون
بين النقيضين مجال للدفع والجذب . ولنتظر ، مثلا ، إلى النصائح التي تلقاها
الملك مري كارع من والده ، والتي كانت لا تزال نموذجاً أدبيا حيا في
الأسرة الثامنة عشرة ، رغم أنها ترجع إلى الفترة التي شهدت انتهاء الدولة
القديمة وقيام الدولة الوسطى ، ففي جانب من هذه النصائح يقول
الملك لابنه (٢٥) :

وأما عن ذلك الذى يجمع حول نفسه الاتباع ويحظى ، عن
طريق معاملته الحسنة ، بولاء من يعملون في خدمته ؛ أو الذى يميل
إلى الاكتنار فى المناقشة والكلام ، فنصحتى كملك ، هى أن تقضى عليه .
اذبح وامح اسمه نهائيا من الوجود ثم اقتلع ذكراه وذكرى أتباعه
الذين يحبونه ويلتفون حوله .

وهذا التملط والجبروت من جانب الفرعون نلمس اعترافا وتسلية به من جانب الشعب ولستمع ، في هذا المجال ، إلى النصائح التي تنسب إلى بتاح حتب والتي وضعت في فترة مبكرة من التاريخ المصري القديم ، ثم أعيدت كتابتها في الدولة الوسطى وظلت شائعة بعد أن قامت الأسرة النامنة عشرة والكلام هنا يخص مسألة معاملة الرؤساء (٢٦) :

« نحن خضوعا لمن هو أعلى منك ، لرئيسك الحكيم في الإدارة الملكية ، لكي يظل ببتك عارا ومرتبك جاريا ، أما مقاومة صاحب السلطان ، فذلك شر مستطير ، فإن حياة المرء رهن بانحنائه لرغبات رؤسائه . »

وهي نغمة نسمعها في كافة جوانب الأدب الحكيم الشعبي ، فها هي نصائح آتني أحد الكتبة في الدولة الحديثة تردد نفس الفكرة في ألفاظ أخرى حين يقول (٢٧) :

« لا ترد على نقريح يوجهه إليك رئيس في سورة غضبه ، ولا تقف في طريقه . وإذا كان في كلامه لأحد الأشخاص شدة أو احتداد ، فليكن ما تقوله له عذبا لطيفا . واجتهد في تهدئته ، فإن ردود التحدى لا تجلب عليك سوى الأذى والعقاب الذي يوهن من قوتك . فانك أن تحليت بهذا الهدوء لن يلبث (رئيسك) أن يعود ليمتدح

ibid. : op. cit. , p. 76

(٢٦)

ibid. : op. cit. , p. 62

(٢٧)

شمالك حين تهدأ سورة غضبه ، والألفاظ المسالمة تجد سبيلها إلى القلب
لذ بالصمت وروض نفسك على الخضوع لكل ما يقرر من أمور . . .

» » »

أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية : فقد عرف المصريون ، شأنهم في ذلك شأن الدول الشرقية التي ظهرت قبل مجيء الاسكندر ، فكرة الامبراطورية التي تستهدف السيطرة على أراضى وشعوب من أجناس غير جنس الدولة الحاكمة ، بما يستتبعه ذلك من تنظيم وتفصيل في العلاقة التي تربط هذه الدولة بالدول أو الشعوب المحكومة . وفى هذا المجال إذا كان دارا الأول ، الامبراطور الفارسى ، قد أعلن منذ القرن السادس ق . م أنه « ملك الملوك » ، وملك الدنيا الواسعة ، ، وإذا كان بعض ملوك آشور قد أخذوا لانفسهم قبل ذلك بخمسة قرون لقب « ملك العالم » ، فإن فكرة الامبراطورية والسيادة على أرض غير الاراضى المصرية قد عرفت لدى ملوك مصر هم الآخرون . ولنستمع فى هذا المجال إلى أجزاء من النشيد الذى أسلفت الإشارة إليه والذى يمثل خطاب الإله امون إلى تحتمس الثالث :

« انى أهبك القوة ، وأمكن لك النصر على كل الجنود ، وأعلى اسمك ، وأنتشر الرهبة من سطوتك فى جميع البطاح ، وأدخل لصيحة الحرب التى تطلقها صدى بين شعوب العالم التسع .

أنك تجمع فى قبضتك رجالا من البلاد الاجنبية وأنا نفسى أشد لك

وثاقهم يبدى ، وأجمع فى الأسر بدو الصحراء بعشرات الألوف ،
وسكان الشمال بمئات الألوف ، تماما كما تجمع أعواد القمح .
أنى أحمل أعداءك على أن يعنوا لك الجباه ، ويجثوا عند نعليك ،
كما أمنحك الأرض بطولها وعرضها .

انك تعبر البلاد الأجنبية من مكان إلى مكان بقلب يفعمه السرور ، وحيثما
امتد سلطانك لا يجرؤ على الوقوف فى وجهك أحد ، فأنا رائدك
حتى تضع يدك على أعدائك .

لقد عبرت الفرات فى نصر رقوة اسبغتها عليك . لأنهم هناك
يسمعون صيحة الحرب التى تطلقها مدويه ، فيهرعون إلى جحورهم .
لقد حرمتهم نسيات الحياة وملاّت قلوبهم رعبا منك .

٢ — اتجاه الحضارة اليونانية

هكذا ، إذن ، كانت فكرة الحكم عند الشرقيين ، قاعدة من الحق الإلهي
تمثل الملك الها أو متصرفا بوحى من الآلهة ، يقوم عليها حق السلطة
المركزية المطلقة فى تصريف الأمور داخل البلاد ، وحق الإمبراطورية
أو السيطرة على الشعوب والأجناس الأخرى خارج البلاد . والآن سأحاول
أن أعرض بشكل سريع لما كان يقابل ذلك عند بلاد اليونان ، ولنبدأ هنا
كذلك بالقاعدة التى يقوم عليها الحكم .

لقد عرف اليونانيون في بدء حياتهم السياسية فكرة الحق الالهي ، وقد ارتكن اليه الملوك اليونان في بداية الفترة التي ظهرت فيها المدن اليونانية . وفي هذا المجال تظهر الالياذة أحد اتباع أجاممنون وهو يصفه بأنه ابن آتريوس ، أجاممنون ملك الرجال ، الذي أعطاه زيوس (كبير الالهة) السلطان وحق الفصل في أمور الناس . (٢٩) . كما تظهر الاذيسية الملك أوذيسيوس وقد عمد بعد عودته إل إثنائه إلى تدعيم ملكه باستفصال دين تقدم فيه القرابين حين وجد أكثر من واحد من النبلاء ينازعه سلطانه (٣٠) .

ولكن الوقت الذي ينكلم فيه هوميروس عن هذه الحوادث كان قد بدأ يشهد اضمحلال النفوذ الديني كدعامة للحكم في بلاد اليونان ، وحين وزعه سلطنة الملك بين طبقة الاسقراطيين اخفى الداعي لوجود هذا النفوذ . حقيقة أن التمسح بما يتصل بالدين ظل قائما . بعض الوقت ، فيزستراتوس سينشر عبادة ديونيسيوس ، وأحد أبنائه سيقوم معبد الهسكاتومبيدون للالهة أثينة ، ولكن الآلهة التي عرفها اليونان حتى حين كان الملوك يحكمون بوحى من نفوذها الروحي كانت من نوع آخر غير الذي عرفه المصريون أو عبرهم من الشعوب الشرقية . لقد كان آلهة اليونان شديدي الشبه بعبادهم ، تحركهم . كما تحرك بن الانسان ، العواطف والانفعالات الانسانية بما في ذلك الغيرة والحقد والغضب والمكر والخداع والميل إلى المجون واشتهاء الملذات ، كما كانوا يتمتعون

(٢٩) هوميروس : الالياذة ، النشيد التاسع ٩٦٠

(٣٠) هوميروس : الاوديسية ، النشيد الرابع عشر ، ٤٨٣ - ٤٥٦

كبنى الانسان أيضا . بالطعام والشراب وإن كان طعامهم وشرابهم يخالف ما اعتاده الآدميون . بل هم حبر . محاربون يجرحون وتسيل دماؤهم تماما كما يحدث عند المحاربين اليونان ، وإن كان دهم بطبيعة الحال من نوع أصفى وأنبى ، ولعل القول فى هذا المجال بأن الالهة اليونانية لم تصور اليونانيين على شاكتها ، وإنما صورها اليونانيون على شاكلة أنفسهم لا يخلو من جانب من صدق الحكم على الاشياء .

ولننظر الان إلى بعض الأوصاف التى وصف بها اليونان آلهتهم لنرى إلى أى حد ابتعدت هذه الالهة عن القداسة اللازمة لقبام أى حق ألهى يعتمد به فى شئون الحكم . أن الالهة التى يتكلم عنها هيرودوس مثلا لم تحل العالم فقد وبست الأرض قبل أن توجد الالهة . وهى لا تملك السيطرة على مصائر الناس بشكل كامل وإنما يسيطر القدر على هذه المصائر ويخضع الالهة هم الآخرون له . وهم يسلكون لتحقيق أهدافهم كافة الطرق الآدمية المعروفة . دوية أو ماثوية . فالالهة زيوس مثلا ، وهو كبير الالهة اليونانية ، يريد أن يذقم من اليونان استجابة لدعاء ثيتيس ، فيعمد لتحقيق هدفه هذا إلى الكذب والخداع الصريح ، وذلك بأن يوعز إلى إله الأحلام أن يترامى لأجائون ، قائد اليونان ، فى صورة صديق له يحضه على الاستيلاء على طروادة ويعده بالنصر ، بينما يدبر فى الخفاء فترة طويلة من الألم والأسى لسكل من اليونان والطرواديين .

ثم هو لا ينحدر إلى الدرك الانسانى فى هذا الجانب فحسب ، وإنما نجده كذلك يستسلم سريعا لما تدفعه اليه فورة الشباب فهو يميل للنساء بشكل ظاهر ولا يحسد من نفسه المندرة على مقاومة اغرائهن ، وهو

يعاملهم معاملة لا تختلف عما يقوم بين البشر من معاملات فيها الحب والهجر والغيرة والكراهية ، ونحن نلمس كل هذه الصفات في أشعار هزودوس التي تضمنت قائمة حافلة بزوجات هذا الاله وحبيباته ، وهي قائمة شملت إلى جانب الإلهات طائفة من نساء البشر ، بل هي تضم إلى جانب النساء أحد الشبان ، وكان زيوس قد فتن بجاله فاخطفه لكي يتخذة ساقيا له فوق جبل الالمبوس ؛ وهكذا لا يختلف كبير الآلهة عن بقية البشر من اليونانيين فيما اشتهر عنهم من ميلهم في مجونهم إلى الجنسين على السواء .

وهؤلاء الآلهة لا يقتصر نزولهم إلى مستوى البشر على معاملاتهم مع بني الانسان ، بل يظهر كذلك في معاملاتهم فيما بين أنفسهم ، وفي هذا المجال نجد الآلهة أثينة تضم كراهية شديدة للاله آريس الذي يفكر في الحرب والقتال ويتسبب في الخراب والدمار دون وجه حق ، وهي لذلك تحض البطل ديوميديس على قتال هذا الاله ولا تفتأ تشجعه حتى يسدد لآريس سها نافذا يخترق جسمه ويحطم كبريائه ، ولا تسكت في ذلك بل تصر على مقاتلته بنفسها حتى تلحق به هزيمة أخرى (٣١) .

هذه إذن هي الآلهة اليونانية ، لها وجودها وعبادتها ، ولها معابدها وطقوسها واحتفالاتها ، وهي آلهة شديدة الشبه ببني الإنسان ولا يحيط

(٣١) عن وضع الآلهة وصفاتهم راجع :

Will Drant : The Life of Greece (The Story of Civilization,
١٨٧-١٧٧ pp. 177-187) . كذلك . محمد صقر خفاجة : هوميروس صفحات ٦٧-٧٣

بها الغرض الذى يحيط بالهة المصريين أو البابليين ، وهى قبل كل هذا لها حدود لا بد أن تعرفها وتقف عندها ، فهى لا تتدخل فى شئون الحكم التى انتزعها اليونان من نطاق النفوذ الدينى منذ أن انتهى عهد الملوك فى أواخر العصر المومرى ، وقد كان لكل هذا دون شك ، أثره البالغ على نظرية أو قاعدة الحكم عند اليونان الذين فصلوا فى كثير من الوضوح بين شئون الدولة وشئون الدين .

لم يكن الحق الالهى ، إذن ، أساسا لفكر الحكم عند اليونان منذ أن عبروا مرحلة الحكم الملكى فى تاريخهم المبكر ، وباختفاء هذا الحق اختفت بالضرورة فكرة الحكم الفردى المركزى المطابق لتحل محلها فكرة الحكم الجماعى التى وصلت إلى ذروة نضوجها ، فى بعض المناطق اليونانية ، فى صورة الحكم الشعبى . حقيقة إن هذه لم تتحقق إلا على عدة مراحل ، ولم تتخذ فى كل الأحوال نفس المستوى من النضوج فى الدويلات اليونانية المختلفة ، ولكنها وجدت بشكل ما فى النهاية ، والأهم من هذا أنها قضت على فكرة تركيز السلطات التى يمثلها الحكم الفردى لتحل محلها فكرة توزيع السلطات على القاعدة الشعبية وإن اختلف تقييم هذه القاعدة من دويلة إلى دويلة .

وقد كان ذلك نتاجا لظرفين طبيعيين أحاطا ببلاد اليونان من بداية تاريخها . ويتعلق أول هذين الظرفين بالوضع الاقتصادى الذى ساد القسم الأكبر من هذه البلاد . وهنا نجد أن هذا الوضع كان مختلفا فى جوهره عما عرفته مصر أو نظائرها من الملكيات أو الامبراطوريات الشرقية ، فبينما اعتمدت اقتصاديات هذه الدول أساسا على مورد رئيسى واحد هو الاراضى الزراعية أو الرعوية فى أغلب الاحيان - الأسر الذى أدى إلى

تركيز موارد الإنتاج في يد طبقة واحدة لم تجد من يقف أمامها في مجال المسارمة الاجتماعية بين الطبقات : ومن ثم تمكنت من السيطرة النامة على مقدرات المجتمعات الشرقية على نحو ما رأينا ، نجد من الجانب الآخر أن الظروف في بلاد اليونان اختلفت كثيراً عن هذا الوضع . حقيقة اعتمدت أغلب المجتمعات اليونانية في بداية تطورها على الزراعة كمورد لإنتاجى أساسى ، ولكن التربة الفقيرة والسطح الوعر لهذه البلاد حددوا هذا الإنتاج من البداية بحيث لم يكن من الممكن أن يساير تزايد السكان أو تطور مستواهم المعيشى . وهكذا عرفت بلاد اليونان التجارة في فترة مبكرة من تاريخها ، ولم تلبث هذه أن أصبحت تشكل قسماً أساسياً من موارد الإنتاج سواء كانت تجارة داخلية بين المدن أو المناطق اليونانية وبعضها أو امتدت إلى خارج بلاد اليونان لتصل إلى الشواطئ الأخرى المطله على البحر المتوسط . وبطبيعة الحال استتبعت التجارة قيام الصناعة التي كان لا بد أن تزايد من مرحلة إلى مرحلة بقدر اتساع دائرة التبادل التجارى بين بلاد اليونان وجيرانها ، وأدى هذا بدوره إلى قيام طقة من أصحاب الحرف سيطرت بدورها على قسم من موارد الإنتاج .

وهكذا نجد أن سيادة أصحاب الاراضى الزراعية أو الرعوية لم تكن تتركز ، كما كانت في الدول الشرقية ، على أساس بالغ في الرسوخ ، إذ كانت هناك موارد إنتاجية أخرى في ميادين التجارة والصناعة لا تدخل ضمن نطاق سيطرتهم . وقد أعطى ذلك الطبقات المحكومة نوعاً من السند المادى في موقفهم من الطبقة الحاكمة ، وهو وضع يهيء الجو لظهور أية طبقة من بينهم ، إذا وافتها الظروف ، ظهروا تنافس به الطبقة الحاكمة في سيطرتها

على موارد البلاد ، ومن ثم تنفسح أمام الطبقات المحكومة فرص المساواة في ميدان الحقوق السياسية - وهو الذى حدث فعلا في بلاد اليونان من مرحلة إلى مرحلة حتى انتهى الأمر إلى الحكم الشعبى .

أما الطرف الآخر الذى أدى إلى وصول بلاد اليونان إلى هذا النوع من الحكم بشكل سريع فهو طبيعة البلاد الجغرافية التى تخترقها الجبال فى كافة اتجاهاتها بحيث قسمتها إلى مناطق صغيرة تكاد كل منها تكون منعزلة عن الأخرى . وليست الجبال هى العائق الوحيد بين هذه المناطق التى تنقسم إليها بلاد اليونان . فان الممرات الموجودة عبر هذه الجبال ، وهى التى يمكن أن تسهل الاتصال بين المناطق وبعضها ، يقع أغلبها على جانب كبير من الارتفاع يقف عقبة فى سبيل الاتصال السهل إلى جانب أنه يجعل هذه الممرات مغطاة بالثلوج طيلة فصل الشتاء ويفقدها بالتالى قيمتها كوسيلة للاتصال فى هذا الفصل . أما الوسيلة الثالثة للاتصال الداخلى بين هذه المناطق ، وهى الأنهار ، فقليل منها هو الذى يصاح للملاحة لمسافات معقولة ، وحتى مع ذلك فليس فى كل فصول السنة (٣٢) . ومن هنا كانت المجتمعات اليونانية التى قامت فى هذه المناطق المنعزلة عن بعضها تقريبا والتى أصبحت قوام الدويلات اليونانية المستقلة عن بعضها ، مجتمعات صغيرة تم وتظهر فيها التطورات الاجتماعية والسياسية بشكل سريع ، وهذا إلى جانب الطرف السياسى الذى اشرت إليه ، وهو الذى عجل بانتقال فكرة الحكم

من المركزية الفردية التي عرفتھا بلاد اليونان في عهد الملكية إلى الجماعية التي تقوم على توزيع السلطات في عصر الحكم الشعبي .

* * *

ولنأخذ إحدى المدن أو الدويلات اليونانية كنثال لنرى إلى أي حد أبتعدت بلاد اليونان عن فكرة الحكم التي عرفتھا مصر والدول الشرقية في هذا الصدد ، ولتكن أمينة هي مثالا فهي التي نعرف عنها أكثر ، بما نعرف عن غيرها من جانب ، وهي من جانب آخر تمثل فكرة الحكم الشعبي في ذروته التي توزع كافة جوانب السلطة بين جميع المواطنين ، بما يزيد اتضاح المقارنة التي نحن بسبيلها . لقد كانت السلطة التشريعية مثلا تقع أساسا في يد الجمعية الشعبية أو المجلس الشعبي ، وكان تكوين هذا المجلس يمثل الفكرة الشعبية في أوسع نطاق يمكن أن تصل إليه ، فهو لم يكن يضم ممثلين ينوبون عن الشعب حسب المفهوم الحديث لفكرة الحكم الشعبي ، كما قد يقفز إلى أذهانتنا لأول وهلة ، وإنما كان أعضاؤه هم كل المواطنين دون قيود أو حدود ، ولم تكن سلطاته تشمل جانباً من أمور الدولة دون الآخر وإنما كانت تنظم كل ما يتصل بها . فأعضاء هذا المجلس هم الذين يناقشون القوانين ويضعونها ويعدلونها وينقحونها أو يألونها ، لا يحتاجون في ذلك إلى الحصول على أغلبية أصوات الحاضرين ، وفي أيديهم كان عقد المعاهدات والمحالقات وإعلان الحرب والمهادنة والصلح ومحاكمة السفراء والقواد وفرض الضرائب وتحديد قيمتها وهكذا .

والاتجاه ذاته ينطبق على السلطة التنفيذية للدولة التي كانت لها كل المقومات التي تبعدها عن التركيز في أيدي أفراد فلائيل من الممكن أن

تتاح لهم ، لسبب أو لآخر ، فرصة التحكم في الجهاز الإداري للدولة ،
بقدر ما تقرهم من الفكرة الشعبية التي أحاول إيضاحها . فالموظفون
لا يعينون وإنما يقترح عليهم من بين أسماء الذين يتقدمون لشغل الوظائف
(فيما عدا حالات قليلة جدا كان شغل الوظائف فيها يتم عن طريقة
الانتخاب) ، وهم لا يشغلون وظائفهم هذه بصفة دائمة أو لمدة
طويلة ، وإنما لمدة سنة فحسب (فيما عدا أمثلة محدودة كانت المدة
فيها تمتد إلى أربع سنوات) وبذلك تنعدم أمامهم أية فرصة لتكوين
بناء طبق أو لتنمية مصالح طبقية ، ثم هم لا بد أن يقدموا لمجلس العامة
في آخر السنة الإدارية ، كل في وظيفته ، قائمة عما حققوا أو ما قصروا
في تحقيقه مما وكل إليهم من مهام ، وهكذا يظلون طيلة الوقت تحت سمع
الشعب وبصره بحيث يصبح الشعب ، مثلاً في المجلس الشعبي هو الحاكم
الحقيقي - وهكذا تتحقق فكرة توزيع السلطة بين أفراد الشعب
تحقيقاً كاملاً .

فاذا انتقلنا إلى السلطة القضائية نجد أن الرغبة في الابتعاد عن فكرة
التركيز تظهر في نظام قضائي شعبي من نوع لا يمكن أن نفهمه أو نقدره
في ظل المفهوم القانوني وحده للعدالة ، ولكنه يتضح لنا إذا نظرنا إليه في
ظل الاعتبار الشعبي الذي ذكرته فالقضاة في المحكمة الواحدة كان عددهم
يصل إلى المئات ، وهم لا يعينون وإنما يشغلون أماكنهم عن طريق الاقتراع
وحتى هذا الاقتراع لا يتم إلا في صبيحة اليوم الذي تعتقد فيه جلسات
القضايا التي يراد الفصل فيها ، أما أحكامهم فيصاوت إليها عن طريق أغلبية
الاصوات . وواضح من كل ذلك أن الغرض الأساسي هو أن يمثل
هؤلاء القضاة قطاعاً عريضاً شعبياً لا يعطى فرصة تركيز السلطة القضائية

في يد افراد قلائل أو لوضع مجريات التحقيق تحت تأثير أفراد قلائل حتى ولو كان ذلك على حساب الكفاية القانونية التي كان المفروض أن تكون الركن الأول للعدالة. (٣٣)

* * *

وإذا كان الاتجاه اليوناني قد اختلف عن الاتجاه الشرقي في تصريف الأمور الداخلية فإن اتجاههم في السياسة الخارجية كان مختلفا هو الآخر . وفي هذا المجال نجد أن فكرة السيادة أو السيطرة على أراضى غير الأراضى اليونانية واخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ في إطار ادارى له أصوله وتفصيله ومقوماته التي عرفها الامبراطوريات الشرقية - أقول إن هذه الفكرة لم ترسب في اذهان اليونان كبداً سياسى أصيل خالق بأن يتبعوه . فما عرف في التاريخ مثلاً بالامبراطورية الاثينية لم يكن يزيد في الوقع عن زعامة مستبدة لحلف يوناني هو حلف ديلوس الذي تكون في اعقاب الحروب الفارسية لصد أى خطر جديد من هذه الناحية ، وهو حلف كان أعضاؤه يقفون من الناحية الرسمية على قدم المساواة . وإذا كانت أئمة قد استغلت زعامتها له لتحقيق مصالحها الشخصية فإن ذلك يدخل في دائرة الانحراف في الزعامة دون أن ينتقل بهذا الحلف إلى المفهوم السياسى للامبراطورية . والوصف ذاته ينطبق على زعامة اسبرطة التي لم تكن هي الأخرى تزيد عن أن تكون زعامة مستبدة للحلف البلوبونيزى . وحتى في حالة امبراطورية ديونسيوس

Aristoteles : Ath. Pol. XLIII-LXIX

(٣٣)

راجع كذلك دراستنا عن « الديمقراطية الاثينية » القسم الثالث ،

التي خرجت عن حدود بلاد اليونان الاصلية نجد أنها تبلورت حول المدن اليونانية التي أسسها المهاجرون اليونان في صقلية وجنوبي ايطاليا .

" " "

على هذا الاساس، إذن، قام النظام السياسى عند اليونان ، تحده حدود المدينة ، ويعالج مشاكلها بطريقة لا يمكن تحقيقها إلا في مجتمع صغير أساسه سكان منطقة صغيرة هي في غالب الاحيان مدينة واحدة والاراضى المحيطة بها ، ويعتمد أساساً على مجالس (أو جمعيات) شعبية أعضاؤها هم كل المواطنين الذين بلغوا سن الرشد وعلى هيئة تنفيذية يختار أعضاؤها بطريق الاقتراع المباشر من بين المواطنين جميعاً . وبهذا الاساس الاجتماعى والسياسى ارتبطت الجوانب الحضارية المختلفة عند اليونان ، فالمفكرون يبلورون أفكارهم حوله ويناقشونه ويحللونه ويفصلون في جوانبه المتعددة ، والفنانون يستلهمون هذه النزعة المدنية الضيقة لتطبع كل مايدعونه بطابعها الخاص ، والادباء والشعراء وكتاب المسرحيات في تعبيرهم عن عواطفهم وانتقائهم لأفكارهم واختيارهم لشخصيات راواياتهم والمواقف التي تظهر بها مرة ضاحكة عابثة ساخرة ، وأخرى جادة رصينة وثالثة محزنة باكية إنما يناقون عن واقع الحياة اليومية التي يضطرب بها هذا المجتمع الصغير بظروفه السياسية والاجتماعية وبمشاكله التي تنبثق عن هذه الظروف . (٣٤)

(٣٤) من الصور المعبرة في هذا المجال ما كتبه الشاعر المسرحى الساخر ارسطوفانيس عن الحرب والسلام والموظفين والقواد والمجلس الشعبى (أو الجمعية الشعبية) والنظام الديمقراطى بوجه عام في مسرحياته :

Ekklesiazusae, Hippeis, Acharnae

٤ — الشرق واليونان في فجر العصر الجديد

هكذا إذن اختلف الاتجاه اليوناني عن الاتجاه الشرقي في النظرة إلى فكرة الحكم ، كجانب من جوانب الحضارة التي عرفها كل من الجانبين . ولكن إذا كان هذا الاختلاف قد وقف حائلا دون التقاء التقيضين حتى الشطـ الأخير من القرن الرابع ، فإن كلا من الجانبين كان يحمل البذور التي قدر لها أن تخلخل السياج الحضاري المانع الذي كان يحيط بكل منهما ويحول بالتالي دون التقائهما ، بحيث تهيأت فرص الانفتاح ، ومن ثم اللقاء ، بين النظرتين الحضاريتين بمجرد انفجار الطرف التاريخي المناسب .

وقد ظهرت بذور التخلخل فيها يتعلق بالجانب الشرقي في حالة التدهور التي أصبحت عليها الإمبراطورية الفارسية في أكثر من ناحية خلال القرن الرابع ق.م . ففيما يخص الإدارة المركزية لهذه الإمبراطورية وعلاقتها بولاياتها نجد أنها كانت تعاني من التفكك بشكل واضح . فالعرش الإمبراطوري كان يحيط به قدر غير قليل من المؤامرات ووجو الاضطراب الذي تستتبعه بالضرورة ، وقد كان آخر هذه المؤامرات ، قبل سقوط الإمبراطورية على يد الاسكندر ، تلك التي انتهت باغتيال الإمبراطور أرتاخشتر Artaxerxes (أوخوس) في ٣٣٨ ق.م . وسنوات الفوضى التي أعقبتها قبل اعتلاء دارا الثالث عرش الإمبراطورية في ٣٣٥ ق.م .

والتباعد والتفكك الذي ساد العلاقة بين الولايات وبين الحكومة الإمبراطورية يظهر لنا من خلال العدد الكبير من الثورات التي قامت

ضد الحكم الفارسي سواء في آسية الصغرى أو قبرص أو فينيقية أو مصر ، وقد زاد من هذا التباعد والتفكك المتعجرف والتعسف اللذين اتصفت بهما الإدارة الفارسية في الولايات ، كما حدث في مصر مثلاً في عهد الامبراطور أوغسطس الذى استعاد مصر بعد أن كانت قد خرجت على السيطرة الفارسية ، فقد عهد هذا الامبراطور إلى إهانة العقيدة الدينية في مصر حين أغرق العجل المقدس حابي (أبيس) وبالف في سخرية بهذه العقيدة فجعل الحمار هو الحيوان المقدس في مصر . وقد كانت نتيجة هذا الموقف من جانب الادارة المركزية الفارسية أن شاع عدم الولاء بين الامبراطورية وولاياتها ، ويكفى للتدليل على هذا الوضع أن نتذكر أن منطقة واسعة من مناطق الامبراطورية ، هي آسية الصغرى ، سقطت أمام قوات الاسكندر في معركتين اثنتين تفصل بينهما سنة واحدة فقط ، كانت المعركة الاولى منهما هي التي دارت في ٣٣٤ ق م . على شواطئ نهر جرانيقوس على الباب الامامى لشبه الجزيرة من ناحية بلاد اليونان ، والمعركة الثانية هي لمسوس ، على بابها الخافي من ناحية سورية ، وأن ولاية مثل مصر نظر سكانها إلى الاسكندر كمحرر من النير الفارسي وليس كمستعمر .

أما عن القوة العسكرية الفارسية فقد كانت متخلفة عن التطورات التي عرفها اليونان في مجال الحرب بنصف قرن . حقيقة إن الفرس كانوا يعتمدون في بعض الاحيان على الجنود المراتزة اليونان ، ولكن ذلك لم يكن له أثر جوهري على الوضع العام للجيش الفارسي . فالقادة الفرس لم يكونوا يفكرون في دراسة التكتيك الحربي الذي يتبعه أعداؤهم والتوصل إلى طرق فعالة لمجابهته . كذلك لم يكونوا يدخلون المعركة بخطة

حربية مسبقة ، وإنما كانوا ينتظرون مبادأة العدو ثم يهاتفون بجوابتهم على أساسها معتمدين أساساً على كثرة أعدادهم وعلى ما قد يبدية محاربوهم من شجاعة فردية وعلى العجالات الحربية بصرف النظر عن ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للمعركة .

وأخيراً فإن الإمبراطورية الفارسية ، في الفترة التي قدر لها أن تلتقي فيها بقوات المغرب في صدام مصيري ، كان يجلس على عرشها ويقود جيشها رجل ، إذا كان يتمتع بالفضيلة ودماثة الخلق ، وهما صفتان قربتا إليه أتباعه إلى حد كبير ، فقد كان يفتقر بشكل ظاهر إلى حدة الذكاء وقوة الشكيمة ، وهما الصفتان اللتان توفرتا بشكل ظاهر في الرجل الذي وقف على الطرف المقابل في هذا الصدام المصيري (٣٥) .

هذا الظرف الذي وجدت فيه الإمبراطورية الفارسية جعل من المناطق التي كانت تتكون منها هذه الإمبراطورية مناطق منهكة إلى حد كبير من الناحيتين الإدارية والعسكرية ، بينما فقدت جانباً كبيراً من الإيجابية الحضارية التي كثيراً ما تشكل سياجاً قوياً يقلل فرص التفاعل مع التيارات الحضارية الآتية من الخارج أو التأثير بها . وهكذا أصبح المجال

(٣٥) عن حالة الإدارة والجيش وشخصية الإمبراطور في فارس راجع :
J. B. Bury: A History of Greece, pp. 748-9

عن حالة مصر وموقفها راجع :
Drioton & Vandier : L'Egypte, pp. 612-14

مفتوحا ، في غياب هذا السياج الحضارى ، أمام أية قوة تقدم إلى الشرق تيارا أو عنصرا حضاريا جديدا .

* * *

أما الطرف الآخر الذى شهدته الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م . فقد كان يخص بلاد اليونان ، وهو ظرف ترك هذه المنطقة في وضع يشبه إلى حد كبير ما وصلت إليه الإمبراطورية الفارسية من حيث تدهور السياج الحضارى (وإن اختلفت التفاصيل) ، بحيث أصبح المجال . هنا كذلك ، مفتوحا أمام أية قوة تشكل همزة وصل حضارية بين بلاد اليونان وأية منطقة أخرى . وقد تجسد هذا الظرف في صورة تخلخل النظام الذى عرفته بلاد اليونان منذ ظهورها على مسرح التاريخ ، والذى يقوم على أساس من الدويلات الصغيرة التى تدور حول نفسها وتتلور حول المدن التى تشكل القيام الرئيسى لها .

وفي الواقع فإن هذا النظام لم يكن ليستمر على ما هو عليه إلا طالما ظلت بلاد اليونان بمعيدة عن المجال الدولى الذى تظهر فيه الدول الكبيرة بإمكانياتها الواسعة في الجوانب السياسية والاقتصادية والحربية وكل ما يتصل بهذه الجوانب من اتجاهات نحو فرض السيطرة ومد النفوذ . وقد بدأت المدن اليونانية تلمس جانبا من هذا المجال الدولى في الحروب الفارسية التى واجهت في أثنائها لأول مرة في تاريخها خطر الغزو الخارجى ، وفي الفترة التى تلت هذه الحروب لتمتد عبر القرن الخامس وخلال شطر من القرن الرابع ق م . والى شهدت فيها بلاد اليونان أنواعا من التدخل

الفارسي في صورته الجانيية أو المقلعة . ولكن إذا كان الفرس قد قصرُوا تدخلهم على الشؤون الخارجية كلها وجد الملك الفارسي في ذلك تأميناً للمنطقة الواقعة على حدود أملاكه في آسيه الصغرى ، فإن قوة كبيرة أخرى ، هي مقدونية ، كانت قد بدأت تظهر في أواسط القرن الرابع ق.م . في شبه جزيرة البلقان إلى شمال بلاد اليونان مباشرة ، ولم تكن هذه القوة الجديدة قانعة بما قنع به الفرس ، وإنما كان هدفها هو ادخال المدن اليونانية في دائرة نفوذها واخضاعها لسيطرتها اخضاعاً تاماً .

وفي الصراع الذي كان لابد أن ينشب بين المدن اليونانية التي درجت على الاستقلال التام وبين القوة الكبيرة الناشئة التي كانت تعمل جاهدة على التوسع ، كان من الطبيعي أن يفقد نظام دولة المدينة توازنه وان تنهار مقوماته الواحدة تلو الأخرى . فمقدونية ، كدولة كبيرة ، كان لها من اتساع المساحة ما يضمن اكتفاءها الذاتي من الناحية الاقتصادية ، وكان لها من وفرة السكان ما يضمن قيام جيش كبير من ابنائها ، وكان لها من التماسك التام بين بلادها ومدنها المختلفة ما يجعل لكلتها وزناً في ميدان السياسة الخارجية . وعلى عكس ذلك كانت بلاد اليونان ، فمن الناحية الاقتصادية كانت الدويلات اليونانية أبعد ما تكون عن الاكتفاء الذاتي ، فهي بلاد فقيرة من حيث الزراعة وبخاصة في إنتاج الحبوب ، ولا بد أن تعتمد إلى حد كبير على التجارة الخارجية لاستيراد ما يلزم لتغطية ما تحتاجه من الخبز اليومي . ولناخذ مثلاً على ذلك منطقة أتيكا . وهي تمثل من حيث كمية الإنتاج الزراعي قطاعاً متوسطاً في بلاد اليونان فهي منطقة جافة لا يزيد منسوب المطر فيها عن ٤٠ سم في العام ، ثم

هى إلى جانب جفافها على جانب كبير من الوعورة في سطحها ، فمساحة المناطق الجبلية فيها تبلغ ٦٣٧٪ من مساحة أراضيها مجتمعة . أما الأماكن الباقية وهى الصالحة للزراعة نسبيا فليست على جانب كبير من الخصوبة - حقيقة أن لها انتاجا لا بأس به من الكروم والزيتون ، ولكن تربتها من النوع المقسير في انتاجه للجبوب ، التي لم تكن تغطى إلا نحو ربع حاجة السكان (٣٦) .

ولم تكن الامكانيات الدفاعية باكثر قوة أو وفرة من الامكانيات الاقتصادية ، فالقوات اليونانية لايه مدينة ، مهما بلغ عددها ، كانت بطبيعة الحال أقل مما تستطيع أن تقدمه دولة كبيرة مثل مقدونية ، التي كانت قد بدأت تظهر كقوة صاعدة على الحدود الشمالية لبلاد اليونان منذ أواسط القرن الرابع . ولعل هذا كان أحد الأسباب التي دفعت بالدويلات اليونانية في القرن الرابع إلى الاعتماد على الجنود المرتزقة بشكل متزايد . ولناخذ كمثال لذلك نفس المدينة التي عرفنا شيئا عن إمكانياتها الاقتصادية ، حتى تكون الصورة العامة أكثر اظهارة للحقيقة . لقد بدأت أثينا في القرن

Struck : Zur Landeskunde von Griechenland, (٣٦)
Kulturgeschichte und Wirtschaft. p. 167 ; Jardé :
Les Céréales dans l'Antiquité Grèques, p. 72 & n. 2.;
Boeckh : Staatshaushaltung der Athener, I, pp. 571sq.
راجع كذلك دراستنا عن ، أثر العامل الجغرافي في تاريخ أثينا ، ط ٢ ،
صفحات ٦ - ٧ .

الرابع ، الذى كان حافلا من بدايته بالنشاط الحربي والسياسي ، في استخدام هذا النوع من الجنود بشكل فيه كثير من التردد ، كما يدلنا على ذلك ما يصفهم به كسينوفون من أنهم « الأجانب المحاربون في كورنث » ، ولكنها لم تلبث أن تساهمت كثيرا في نظرتها اليهم ، بل لقد أقدمت على استخدامهم في كثير من التهاافت حتى إذا وصلنا إلى أواسط القرن ، وهو الوقت الذى بدأت فيه مقدونية تظهر في أفق السياسة اليونانية ، وجدنا الاسم الذى يطلق على هؤلاء المرتزقة هو « الجنود » ، وهو وصف يدل على أنهم أصبحوا العماد الأول للقوات الأثينية ، بل أصبحت أثينة تعتمد في بعض الأحيان على هذا النوع من الجنود فحسب . كما يظهر من كلام ديموستينيس في ٣٤٩ ق.م. الذى يوبخ فيه أبناء أثينة « الذين يقبعون في عقر دارهم منتظرين أن تصلهم الأخبار بأن الجنود المرتزقة الذين يحاربون تحت قيادة فلان أو غيره قد كسبوا نصرا لأثينة في ميدان القتال » ، (٣٧) .

أما عن الناحية السياسية فقد سيطرت عليها النزعة الانفصالية التي لم تمكن المدن اليونانية من تكثيل جهودها سواء في ميدان الموارد الاقتصادية أو القوات الدفاعية تكثيلا يستطيعون معه الوقوف أمام الخطر المقدوني الزاحف . حقيقة ظهرت بين المدن اليونانية من حين لآخر اتجاهات نحو التكتل ، كما تدل على ذلك مثلا الأحلاف التي كانت تقوم بين وقت وآخر

Xenophon : Hellenika, IV, 5, 11-18; Demosthenes : (٣٧)
IV, 24; XIII, 35.

بين المدن اليونانية ، مثل حلف ديالوس (أو الحلف الاليني الاول)
الذى كونه وترعته أثينة ابتداء من ٤٧٩ ق.م . والحلف الاليني الذى
كونته فى النصف الاول من القرن الرابع ، وحلف بويوتيه وحلف أركادية
الذى ظهر فى ٣٧٠ ق.م . وحلف تساليه الذى تميز بأن أعضائه كانوا
يشكلون مجموعات إقليمية هى فى حد ذاتها مجموعات من المدن . كذلك
كان من الاتجاهات التى تقرب من التكتل ظهور الوعامة التى كانت تربط
إلى حد ما بين المدن اليونانية مثل زعامة أسبرطه بعد انتصارها على أثينة فى
٤٠٤ ق.م . وزعامة طيبة بعد انتصارها على أسبرطه فى ٣٧١ ق.م . وسيادة
ديونيسيوس الاول فى صقلية وجنوب إيطاليا .

ولكن رغم كل ذلك فقد ظلت النزعة الانفصالية التى ذكرتها باقية
وقوية وقد كان لهذا أثره حتى على الأحلاف والتكتلات التى شهدتها
القرن الرابع ، فهذه لم تمتد ، بعد قيامها ، خارج الحدود الإقليمية الضيقة
التي ابتدأت فيها ، وكل ما أمكن أن تصل إليه فى هذا المجال هو أن
يصبح الحلف البويوتى مثالا يحتذى فى الوقت الذى ترعمت فيه طيبة بلاد
اليونان . ثم هى لم تعمّر طويلاً ، بل تفككت فى مناسبة أو فى أخرى .
وفى هذا المقام إذا كان حلف تساليه قد استمر حتى نهاية تاريخ هذه
البقعة كوحدة سياسية ، فإن حلف خالكيدىكى لم يلبث أن سقط أمام
عدوان أسبرطه التى كانت تعمل دائماً على عدم قيام أى حلف - فيها هذا الحلف
البلوبونيزى الذى تنزعه - بينما انقسم حلف أركاديه ، ولما يمتز على تكوينه
عشرة سنين ، إلى كتلتين منفصلتين متعاديتين . كما ظهر الشعور الانفصالى فى
فى صور أخرى . فسلم انتاكاداس مثلاً نص على أن تكون جميع المدن

اليونانية حرة - فيما عدا لمنسوس وامبروس وسكبروس (التي احتفظت
أثينة بالسيطرة عليها) وقد نفذ هذا المبدأ بالفعل حين انحلت الجامعة
البويوتية على أثر الصالح إرضاء لاسبرطه ، كما ظهر هذا التيار الانفصالي
مرة أخرى في ٣٥٧ - ٣٥٥ ق.م. أثناء حرب الحلفاء التي تزعمتها بيزنتيون
ضد أثينة .

هذه النزعة الانفصالية التي وضعت المدن اليونانية في مجابهة بعضها
كانت قد وصلت ، منذ أواسط القرن الرابع إلى نقطة اللاعودة ، إذا
جازى أن استخدم هذا الوصف ، بمعنى أنه لم يعد هناك أمل في أن
تتراجع هذه المدن عن هذه النزعة مهما كان هناك خطر خارجي يهدد
كيانها . ولعل أقوى دليل على هذه الدرجة في الاتجاه الانفصالي في
الفترة المذكورة أنه حين هددتهم الخطر الفارسي في العصور الأولى من
القرن الخامس اتحد عدد لا بأس به من المدن اليونانية لمواجهة (وإن
كان هذا لا ينفي أن قسما منهم لم يأخذ مكانه في الصف المتحد) ، أما في
أواسط القرن الرابع فإن الخطر المقدوني لم يؤد إلى هذه النتيجة ، بل
إن الذي يقرأ خطب ديموستينيس ، السياسي الأثيني ، في تلك الفترة
لا يملك إلا أن يرى بوضوح مدى مدى إمعان المدن اليونانية في الابتعاد
عن بعضها كما زاد إمعان الملك المقدوني في تضيق الخناق على هذه المدن
وإدخالها تحت نفوذه الواحدة تلو الأخرى . (٣٨)

(٣٨) راجع على سبيل المثال خطب ديموستينيس الثلاثة التي حاول فيها أن يحث
الأثينيين على مساعدة أولنشوس ضد تهديدات فيليب لها ، كذلك خطبه
الثمانية التي حاول فيها أن يظهر أبعاد الخطر المقدوني على المدن اليونانية .

وهكذا نستطيع أن نقول إن بلاد اليونان في الغرب ، شأنها شأن الإمبراطورية الفارسية في الشرق ، كانت قد وصلت في الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م. إلى درجة الإنهاك الذي أشرت إلى أنه خلخل السياج أو الإطار الحضارى الصلب الذى كان يحيط بها ويحول دون لقاءها مع الحضارة الشرقية ، بحيث لم يتبق الا قيام الظرف التاريخى المناسب ليتم هذا اللقاء .

الباب الثالث

مقدونية والاسكندر وقيام العصر الجديد

١ - ظهور مقدونية والسيطرة على اليونان وعل الشرق

رأينا أن المنطقة التي كانت تقوم فيها الامبراطورية الفارسية من جهة والمنطقة التي كانت تشكل العلم اليوناني من الجهة المقابلة ، كانت كل منهما قد وصلت في اواخر الاخير من القرن لرابع ق . م ، إلى الوضع الذي يمكن من لقاء حضارى بينهما إذا توفر الظروف التاريخي اللازم لتحقيق هذا اللقاء . وقد قام هذا الظرف فعلا في تلك الفترة ، وتجسد في ظهور مقدونية كقوة صاعدة في القسم الشمالى لشبه جزيرة البلقان ، واتباع هذه القوة لسياسة تستهدف السيطرة على المدن اليونانية وتتطلع إلى السيادة على الشرق .

وقد بدأت هذه السياسة تظهر بشكل واضح على يد فيليب ، ملك مقدونية ، منذ أوسط القرن الرابع ق . م . فقد أدرك هذا الملك مدى الفرق الذي أعملته الروح الانفصالية بين المدن اليونانية ، وخطط لسياسة لزاء هذه المدن على أساس الالتفاف بذلك كل الالتفاف .

وهكذا وجه فيليب ضرباته إلى أسس نظام المدينة ، التي قد تصمد في صراع يقوم بين مدينة وأخرى واسكنها لا يمكن أن تصمد في صراع يقوم بين هذه المدن بما هي عليه من تفرق ، وبين قوة كبيرة كمقدونية فهو

يضعط عسكريا على مدينة في الوقت الذي يهادن فيه مدينة أخرى ، وهو في انتقائه لضحاياه يتوخى المناطق التي تطل على الطرق البحرية التي تمر بها المراكب المحملة بالقمح إلى بلاد اليونان ، ومن ثم تسيطر على مصادر الحبوب اليومية لهذه المدن . بل هو يدفع استغلال هذه الظروف الاقتصادية إلى أقصى حد ، فيخاطب مصالح الطبقات التي تعتمد على التجارة الخارجية لتكوين المدن ، تارة عن طريق الذهب وتارة عن طريق الوعد بتأمين طرق الملاحة لهم ، وبذلك يضم أفراد هذه الطبقات إلى جانبه ويتسرب بهذه الوسيلة إلى داخل المدن اليونانية بفرض نفوذه من الداخل ممهدا بذلك لاختضاعها النهائي لسيطرته . وهكذا تسقط أمامه أمفيبوليس Amphipolis (٢٥٧ ق . م) ، وبيدنه Pydna وبوتيدايه Potidaea (٢٥٦ ق . م) وخالكيديس Chalkiaike (٢٤٩) وأولنشوس Olynthos (٤٣٨) وغيرها ، وأخيراً تنهار القوة الباقية في بلاد اليونان أمام قواته في موقعه خايرونية Chaeronnea (٢٣٨ ق . م) التي ينتصر فيها على القوات المشتركة لاثنية وطيبة ، ثم ينهار في نفس السنة النظام السياسي للمدن اليونانية من أساسه ، وإن ظل محتفظا بشكله . بعد أن يجبرها فيليب على تكوين الحلف اليوناني ، أو حلف كورثة تحت زعامته التي لا تختلف في جوهرها عن أية سيطرة إمبراطورية . (٢٩)

هكذا إذن انهارت مقومات نظام المدنية الذي كان بمثابة الإطار الذي

قامت بدخله الحضارة اليونانية والذي ربط بين أجزائها المختلفة وأبقى على تماسكها بالدرجة التي تحول دون ادماجها بشكل كامل مع العناصر الحضارية المنبثقة من الشرق . وقد كان هذا الانهيار في حد ذاته عاملا من شأنه أن يمهّد السبيل أمام امتزاج الحضارة اليونانية مع أمة حضارة أخرى تتصل أو تلتقي معها .

ولم يكتف فيليب بالسيطرة على بلاد اليونان وإنما يطمح ناظره نحو الشرق . ففي السنة التالية لتكوين الحلف اليوناني (٣٣٧ ق . م .) يعقد أعضاء هذا الحلف ، بزعامة فيليب اجتماعا في كورنثة يقررون فيه أن يحاربوا الامبراطورية الفارسية (لانتقاما لما قام به الفرس ضد أجدادهم على أيام خشيارشاه Xerxes) وقد تم انتخاب فيليب في هذا الاجتماع قائدا أعلى للقوات اليونانية ، وتم الاتفاق على حجم القوات وعدد السفن التي ستشارك بها كل مدينة . وهكذا يبدأ فيليب في الاستعداد لغزو آسية (وإن كان من المرجح أنه لم يكن يفكر في هذا المجال في أبعد من حدود آسية الصغرى) ويرسل في ٣٣٦ ق . م عددا من القوات بقيادة بارمينيو Parmeneo وأمينتاس Amyntas وأتالوس Attalos بغرض السيطرة على مضيق الهاسبوتوس (مداخل البحر الاسود) وأحرز بعض المواقع على شواطئ هذا المضيق في شبه جزيرة آسية الصغرى ، على أن يتبع هو هذه الحملة الطليعية بالقوة الرئيسية بعد فترة ، ولكن القدر لا يمهله فيسقط صريعا على يد أحد رعاياه في نفس السنة .

هكذا إذن أستطاع فيليب أن يخالصل الإطار السياسي والحضاري للعالم اليوناني ، وبدأ محاولته للسيطرة على الشرق ، وإن كان موته قد

حال دون تحقيق ذلك . وقد خلف الاسكندر أباه فيليب على عرش مقدونية كما خلفه في زعامة الحلف اليونانى الذى كان ، كما رأينا ، أداة لسيطرة مقدونية على المدن اليونانية والتدخل فى شئونها وإن لم يكن كذلك من الناحية الرسمية . ولكن الاسكندر لم يكتف بهذه الزعامة التى ورثها عن أبيه ثم وطدها بالمقاتلة المقدونية حين أرادت إحدى هذه المدن ، وهى طيبه ، أن تظهر تذرهما وتمرد على هذا الحلف ، وإنما نجده يرمى ببصره إلى المنطقة التى حالت الظروف دون امتداد النشاط السياسى والعسكرى لفيليب إليها وهى النطاق التقليدى الذى عرفه اليونان فى المجال الدولى منذ أن أصبح لليونان سياسة خارجية دولية فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس ق . م . وهكذا يقدم ، وهو بعد فى فى العشرين من عمره ، على مغامرة عسكرية قدر لها أن تلتهى بسيطرته على المنطقة التى تمتد من الساحل الغربى لآسية الصغرى غربا حتى شواطئ المحيط الهندى شرقا والتى كانت تضم أملاك الامبراطور الفارسى . وبذلك يفجر الخريف التاريخى اللازم للاندماج الحضارى بين الشرق والغرب بعد أن شملت منطقة نفوذه العالم اليونانى والشرق معاً .

إن الاسكندر سيبدأ مغامرته هذه فى ربيع ٣٣٤ بموقعة نهر جرانيقوس التى تفتح له أبواب آسية الصغرى ، ثم تنهار أمامه المدن الليدية مثل سارديس والمدن اليونانية مثل إفسوس وميليتوس وهاليكارناسوس ، وهو يستمر بعد ذلك فى غزو بقية شبه الجزيرة لتسقط أمامه مدن أقسامها الأخرى وهى ليقية وبامفيلية وفريجيه وينتهى سيطرته على هذه المنطقة بأن يدحر قوات الملك الفارسى فى إسسوس Issos على حدود سورية فى

٣٣٣ ق. م . ويستمر الاسكندر الاكبر في طريقه جنوبا فيستولى على مدن فينيقية التي استسلمت جميعها ، فيما عدا صور وغزة اللتين كان لا بد أن يأخذهما عنوة ، ثم ينحدر إلى مصر التي دخلها في ٣٣٢ ق. م . دون معركة ، كحجر لها من النير الفارسي . وفي ٣٠ سبتمبر من نفس السنة يقضى على الجيش الثانی للإمبراطور الفارسي في جوجميلة بأعلى نهر دجلة ويفتح له انتصاره هذا أبواب العواصم الآسيوية الكبرى : صوصة ورسوبوليس ، ويعقب هذا في ٣٣٠ بالاستيلاء على عاصمة ميديا والجلوس على عرش فارس ، ثم يوسع دائرة فتوحه فيصل إلى شواطئ بحر قزوين وإلى باريه ثم إلى باكتره في ٣٢٩ وإلى حدود الهند في ٣٢٧ ويعود بعد ذلك إلى بابل حيث يموت في ٣٢٣ ق. م . بعد إحدى عشرة سنة من حياة المعركة جعلت من صاحب السيطرة على اليونان سيدا للنصف الشرقي من العالم المعروف .

٢ - شخصية الاسكندر

ولكن هذه الفترة لم تكن مجرد سنوات من الغزو والفتح ، وإنما قدر لها أن تشهد عنصراً أخرى غير النشاط العسكري الذي ارتفع بالاسكندر إلى الذروة ، وكان هذا العنصر هو النظرة الجديدة للحاجز الذي كان قائماً حتى ذلك الوقت بين الغرب والشرق - بين بلاد اليونان والمنطقة التي كانت تمتد فوقها الامبراطورية الفارسية . لقد ظلت هذه النظرة موضع تساؤل حتى هذه اللحظة ، واختلاف تفسيرها بين من ينادى بأن الاسكندر أراد أن يقيم نظاماً عالمياً يمزج فيه مزجاً تاماً بين حضارة الشرق وحضارة الغرب في كافة الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية ، وبين من يقول

إن الاسكندر لم يقصد الى شيء من هذا ، واذا كان قد ظهر من بين أعماله ما يشير الى هذا الاتجاه فانما كان من باب الدهاء أو الاضطراب السياسى دون أن يقوم على أساس من الايمان بفكرة أو مبدأ (٤٠).

ولست هنا بسبيل الخوض فى حقيقة ما كان يقصد اليه الاسكندر فى هذه الجوانب ، ولكنى أريد أن أناقش ما حدث فعلا فى جانب واحد ، وهو الذى يتعلق بالنظرية أو القاعدة التى أراد الاسكندر أن يقيم عليها حكمه وبالطريقة التى اتبعها فى تطبيق هذه النظرية فى الادارة الداخلية وفى تصريف الشئون الخارجية ، وهى النقط التى أمرتها فى بداية الحديث لتكون موضع مقارنة بين النظام اليونانى والنظام الشرقى ، لنرى إلى أى حد كان عصر الاسكندر نواة للعصر المتأخر ، أو عصر الاسكندرية ، الذى تداخل فيه النظامان أو وجدا جنباً إلى جنب فى عالم تربط بين أجزائه رابطة حضارية واحدة ، هى الثقافة الإغريقية .

ولنبداً بالكلام عن القاعدة . وسيكون محور الحديث هنا هو إلى أى حد اقترب الاسكندر من فكرة الحق الالهى ليسير على النمط الشرقى أو ابتعد عنها ليسير على النمط اليونانى . وفى هذا المجال نستطيع أن نميز مناسبات ثلاثة فى حياة الاسكندر السياسية يمكن أن نعتبرها علامات

(٤٠) راجع على سبيل المثال :

P. Jouguet : Trois Etudes sur l'Hellénisme, pp. 42 sq.

W.W. Tarn : Alexander the Great, II, 378 sq.

لمراحل ثلاثة مرت بها فكرة الاسكندر عن نظرية الحكم . أما المناسبة الاولى فهي زيارة الاسكندر لمعبد آمون بواحة سيوه . وقد نوقشت هذه الزيارة على نطاق واسع واختلفت الاراء في حقيقة ما دار بين الاسكندر وكاهن آمون وفيما قيل عن بنوة الاسكندر لهذا الاله ، وهل كان الاسكندر يعتقد حقا في هذه البنوة ، كما ظهر من يحاول أن يربط بين هذه الزيارة وبين ما يروى عن زيارة هراكليس Herakles وبرسيوس Perseos - وهما من أجداد الاسكندر - لمعبد آمون في سيوه من قبل ، وما يروى عن ميلاد الاسكندر نتيجة لاتحاد جزئى بين والدته أوليمبياس Olympias وبين هذا الاله (٤١).

ولست هنا بسبيل مناقشة هذه التفسيرات ، ولكنى أود أن أشير إلى موقف أو موقفين لهما صلة بهذه المرحلة ولهما علاقة بما قاله الاسكندر أو قام به فعلا . لقد ذكر الاسكندر في مناسبتين قبل زيارة سيوه (كانت ثابتيهما وهو في الطريق اليها) أن العناية الالهية كانت ترعاه فيها

(٤١) Jouguet : op. cit., pp. 21-6; Tarn : op. cit., p. 353
والذى أثار المناقشة نص ورد في Arrianos, III, 3 ينقل فيه عن
Kallisthenes (fr. 14) ما مؤداه أن الغرض من زيارة الاسكندر لسيوه
هو تقليد برسيوس وهراكليس ، وهما من أجداده ، اللذين زارا سيوه من
قبله . ثم يعضى في نفس الجملة ليقول ، وكذلك كان ينسب الاسكندر جزءا
من مولده إلى آمون كما تنسب الاساطير جزءا من مولد كل من برسيوس
وهراكليس إلى زيوس ،

يقدم عليه من تصرفات . حقيقة إنه ربما كان يعنى فى المناسبة الأولى -
التي كانت قبل أن يصل إلى مصر - الها غير آمون ، قد يكون زيوس
مثلا أو غيره من الآلهة اليونانية ، ولكن المناسبة الثانية تشير فى كثير
من الترجيح إلى أن آمون كان هو الآله الذى يعنيه الاسكندر . وعلى كل
حال ، فسواء أكان المقصود هو آمون أو غيره ، فهذا لا يغير شيئا من
الحقيقة ، وهى أن الاسكندر كان يعتقد أن هناك نوعا من التوجيه
الالهى لما يقوم به من أعمال . أما الموقف الثانى الذى يؤكد هذه الفكرة
فهو أن الاسكندر أعلن بعد زيارته لآمون ، أن هذا الآله نصحه بخصوص
الآلهة التي يحب أن يقدم الاسكندر إليها القرابين ، كما أعلن أنه سأل آمون
عن مدى النجاح الذى سيجرزه فى حملته على أملاك الامبراطور الفارسي ،
وأن الآله أسدى إليه النصح فى هذا المجال (٤٢) .

وقد يكون أهم من هذين الموقفين ، موقف آخر يصور لنا الاسكندر
وهو يقول إن آمون هو أبو البشر جميعا ولكنه يحفل خيرهم أو أفضلهم
أبناء مقربين إليه . وهكذا نرى أن الاسكندر كان يعتقد أن بينه وبين
آمون صلة أقوى من تلك التي بين الآله وبين عامة البشر (وإن كان من
الممكن بطبيعة الحال أن يشاركه هذا الامتياز غيره من المقربين) وأنه ،
كان ينظر إليه على أنه حاميه ومرشده وناصحه بل ربما كان الاسكندر

(٤٢) عن المناسبة الأولى قبل أن يصل إلى مصر انظر : Arr. : VI, 3, 1 ،

وعن المناسبة الثانية (المطر فى الطريق إلى سيوه) Ibid. : III, 3, 4

ينظر الى هذه العلاقة على أنها كانت أكثر من هذا ، وأنها كانت نوعا من البنوة الروحية ، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك مادامنا لا نعرف مادار بينه وبين كاهن آمون (٤٢) .

ولكن على أى الأحوال ، فإن موقف الاسكندر واضح من خلال المرحلة بأكملها ، وهو يشير الى حقيقة واضحة هي أنه بدأ ينظر الى تصرفاته فى الشئون العامة على أنها بتوجيه من الآلهة أو على الأقل تحت رعايتهم . ولكن لعل الذى يهمنا من الناحية العملية أكثر من هذه المواقف جميعا هو حقيقة ثابتة مؤداها أن الاسكندر نصب رسميا كفرعون لمصر على أساس هذا الحق الالهى . فالآثار التى تشير الى هذا التنصيب تظهر لنا هذا المنصر الالهى بشكل واضح . فهو « ابن رع » ، وهو بصفته ماسكا للوجهين القبلى والبحرى « حبيب آمون والمقرب الى رع » ، وهو « حورس » ، الامير القوى وحامى مصر . حقيقة إن كهنة آمون كانوا يصفون هذه الألقاب على كل من يسمح فرعوننا لمصر ، ولم يختصوا بها الاسكندر لذاته ، وكذلك ربما لم يؤمن الاسكندر اطلاقا ، أو لم يؤمن ايمانا كاملا ، بصلته بالآلهة المذكورة بالشكل الذى ذكرت به . ولكن هناك حقيقة لا يمكن إلا أن تظل ثابتة من خلال هذه الشكوك : وهى أن الاسكندر قد قبل هذه الألقاب بصفة رسمية ، وأكثر من هذا أنه قبلها

(٤٢) عن نصائح آمون للاسكندر أنظر Arr. : VI, 19, 4 . عن أن آمون

أبو البشر جميعا واسمكه يقرب اليه أفضلهم Plut. : Alex., XXVII

وهو يعرف أن جنوده من المقدونيين واليونان لابد ان يعلموا بذلك ، وهذا امر له أهميته في مجال تحديد النظرية كان الاسكندر يريد أن يقيم حكمه على أساسها ، إذ لا يمكن بحال أن نقول أن الاسكندر قبل ذلك لمجرد التمشي مع التقاليد السياسية في مصر فحسب وأنه كان يخشى ان يتجاهلها أو يخرقها خوفا من إثارة مصاعب في سبيل سيطرته على مصر ، لأنه بقبولها كان قطعا يتجاهل ويخرق تقاليد اليونان والمقدونيين في نظرتهم لـ الحاكم وطبيعة سلطته ، وهو أمر كان من المحتمل أن يثير أمامه بعض المصاعب كذلك على أساس أنه ربما أثار جانباً من الشك في نفوس هؤلاء الجنود فيما يختص بعلاقته المستقبلية بهم ، التي ربما نحا فيها نفس النهج الذي انتجناه مع المصريين . وهكذا نستطيع أن نقول إن إيمانه بنظرية الحق الالهي (حتى ولو لم يكن يعتقد في هذه المرحلة في الوهية نفسه) كان من الرسوخ بحيث جعله يتجاهل هذا الاعتبار الأخير .

المناسبة الثانية التي تميز مرحلة جديدة في مجال فكرة الاسكندر عن أساس الحكم تظهر في باكتره Baetra حين حاول أن يدخل بين الطقوس السياسية طريقة السجود Proxynesis أمامه ، وهي الطريقة التي كان الفرس يقبلونها عند مقابلتهم للشاه ، وهو المنصب الذي أصبح الاسكندر يحتله الآن . وأهمية هذه المناسبة هي أنها كانت خطوة أكثر جرأة من الذي حدث في مصر . ووجه هذه الجرأة أنه إذا كان أعطاؤه نوعاً من القدسية الالهية كفرعون أمرا يمس المصريين فحسب مساساً مباشراً بينها لا يمس المقدونيين واليونان إلا بشكل غير مباشر باعتبار ما يحتمل أن يحدث

في المستقبل كما أسلفت ، فإن الموقف في باكترة كان غير ذلك ، إذ أن الاسكندر هنا يحاول أن يجعل رعاياه جميعا ، فرساً ومقدونيين ويونانيين ، يسجدون أمامه ولا يقتصر هذا على الفرس فحسب ، كما قصر قداسته الرسمية كفرعون لمصر ، على المصريين . وحقيقة إن هذا السجود كان لا يعنى عند الفرس أى نوع من التآلية للملك ، ولكن الأمر كان غير ذلك عند المقدونيين واليونان ، فعند هؤلاء كان السجود يتصل أساسا بالعبادة وكان بوصفه هذا حق للآلهة فحسب ولا يمكن أن يتم إلا لهم وأمامهم .

وقد أبدى المقدونيون واليونان من جنود الاسكندر شعورهم هذا بكل وضوح حين أقدم الاسكندر على محاولته ، فالمقدونيون أظهروا غضبهم ، بل لقد حدث ما هو أنسكى من ذلك إذ انفجر أحد القواد ضاحكا في سخرية إزاء هذه المحاولة ، أما عن اليونان فإن أول من دعى منهم ليسجد أمام الاسكندر ، وهو كالثسنيس Kallisthenes رفض أمر الاسكندر ، وقال للاسكندر مشيرا إلى فكرة السجود هذه ، ما مؤداه أن العادات الآسيوية يجب أن تظل قاصرة على الآسيويين (٤٤) .

حقيقة أن الاسكندر لم يقدم على هذه المحاولة مرة ثانية ولكن المحاولة مع ذلك كان لها مغزاها الذى لا يمكن تجاهله في مجال الحديث

(٤٤) أنظر مناقشة الفكرة ومصادرها في :

عن فكرته عن نظرية الحكم . فالاسكندر كان يدرك كل الادراك مغزى
السيجود عند المقدونيين واليونان ومدى الاثر الذى كان يمكن أن تتركه
فيهم رغبته في هذا الصدد ، تدلنا على ذلك الطريقة التى قدم بها رغبته
والتي كانت تنطوى على كثير من الحذر والتدبير ، وعلى هذا فان لإقدامه على
موقفه رغم إدراك هذه الصعوبة يشير إلى مدى جدية رغبته في أن يقيم
حكمه على أساس من الحق الالهى في المنطقة التى تقع في دائرة نفوذه ،
سواء في إمبراطوريته في الشرق أو في مقدونية وبلاد اليونان التى كانت تحت
سيطرته في الغرب . بل إن التفسير الوحيد لما حدث في الواقع هو أنه
بمحاولته هذه التى لم تقتصر على الفرس وإنما جمعت معهم المقدونيين
واليونان ، كان يهدف إلى أن يكون إلهاماً للإمبراطورية إذ أن إله
الامبراطورية (بصفته هذه السياسية أساساً) هو الاله الوحيد الذى كان
يمكن ، لو نجحت المحاولة ، أن تقبله هذه العناصر الثلاثة جميعاً .

* * *

كانت هذه إذن هى فكرة الاسكندر التى تجسدت في محاولته في باكترة ،
وهى محاولة ان تبدو لنا على شئ كبير من الغرابة إذا أدخلنا في اعتبارنا
الافكار المتعلقة بنظرية الحكم والتي وقع الاسكندر تحت تأثيرها أو التى
كانت شائعة في العصر الذى وجد فيه ، وهى أفكار تبدو على تناسق تام
مع فكرة إله الامبراطورية التى نحن بصدد الحديث عنها . وأول هذه
الافكار كان مصدره الخطيب السياسى ايسكراتيس Isokrates الذى كان من
أنصار غزو آسية والذى كتب إلى فيليب ، والد الاسكندر ، ذات مره
يقول له إنه إذا أنتصر على الامبراطور الفارسى وغزا أملاكه فلن يتبقى

أمامه إلا أن يصبح لها ومن المحقق أن الاسكندر قرأ هذه الرسالة التي
فشرها ايسكراتيس وعرفها كل اليونان في ذلك الوقت ، بل أكثر من هذا
لقد كان لدى الاسكندر الاستعداد لاتباع آراء هذا السياسى فهو قد اتبع
نصيحته فعلا في مسألة أخرى كان ايسكراتيس قد كتب بخصوصها إلى
فيليب كذلك ، وهى تخص إنشاء مدن على النمط اليونانى فى آسيا - بعد
أن يغزوها الملك المقدونى . وقد أسس الاسكندر فعلا عدداً كبيراً من
هذه المدن كانت من بينها الاسكندرية ، بعد أن غزا أملاك الامبراطور
الفارسى (٤٥) .

أما الفكرة الأخرى التى لا بد أن يكون الاسكندر قد تأثر بها فى
هذا المجال فهى فكرة الملكية التى ذكرها أرسطو فى كتاب السياسة
ذكرها ، وهو يسبيل عرضها ، أن منزلة الملك ، كنزلة الاله بين البشر ،
hosper theos en anthropois فى هذا المجال يقول أرسطو ، إننا لا نستطيع
أن نقول إن مثل هذا الشخص يصبح أن يخضع لإرادة الآخرين (يقصد
رأى الشعب أو الاغلبية) إذ نكون فى هذه الحال كمن يقول إن
زيوس (كبير الالهة) يجب أن يخضع لحكم الآمين فى ظل نظام يقوم
فيه الحكم على أساس من التناوب بينهم وبينه - وهكذا لا يصبح أمامنا
إلا أمر واحد هو الطريق الطبيعية - وهو أن يطيعه الآخرون دون

نزاع وعن طيب خاطر (٤٦) .

وقد حاول و . و . تارن أن يثبت أن أرسطو كان يعنى الاسكندر فعلا وهو يتكلم عن الملك الذى يجب أن يكون كالاله بين البشر ، واعتمد فى ذلك على شواهد لغوية تتعاقب بنوع الالفاظ التى استخدمها أرسطو ، وعلى شواهد أخرى استنتاجية تتصل بالظروف التى كانت قائمة فى الوقت الذى وجد فيه الاسكندر والذى كتب فيه المفكر الكبير (٤٧) . وربما كان أرسطو يعنى الاسكندر ، وربما كان لا يعنيه ، وأنا شخصياً أرى أن الأدلة التى ساقها تارن على رأيه هذا ليست على جانب كبير من القوة وأن أرسطو كان بسبيل الحديث عن أحكام عامة ليس إلا ولكن سواء كانت هذه أو تلك ، فإن الافكار السياسية التى نادى بها أرسطو كانت معروفة للاسكندر ، بل أكثر من هذا إن الاسكندر لم يكن بحاجة إلى قراءتها فى كتاب السياسة ، الذى شرحها فيه أرسطو ، إذ من المحقق تاريخياً أن الاسكندر عرف هذه الافكار أثناء تلميذته على أرسطو فى ميزا Mieza وهى الفترة التى لقى فيها الاسناد تلميذه نظريات السياسة والاخلاق . ومادام الأمر يتعلق بتعليم السياسة فإن نظرية الحكم المملوكى لم تكن بالشئ الذى يمكن أن يهمله المفكر الكبير أو يتجاهله ،

(٤٦) Ariototeles : Politika, III, 13, 1284 a, sq.

أنظر المناقشة V. Ehrenberg; Alexander and The Greeks

الباب الثالث ، وبخاصة ص ٧٤

Tarn : op. cit. , pp. 359 sq.

(٤٧)

بل إن الطبيعي والمنطقي أن تكون هذه الفكرة في مقدمة الافكار السياسية التي لا بد أن يتلقاها وارث فيليب على عرش مقدونية على يد معلمه ومربيه .

هذا ولم يكن الأمر قاصرا على نظريات أيسكراتيس وأرسطو اللذين عرف الاسكندر أفكارهما وتأثيرها ، بل لقد كانت فكرة الملكية بالشكل الذي عرضه هذان المفكران قد بدأت تشيع إلى حد ما في أفق التفكير السياسي اليوناني . فنحن نجد في هذا المجال مفكرا مثل ديوتوجينيس Diotogenes الذي كان ينتمى إلى مدرسة فيثاغورس يثير ، مرة أخرى ، الفكرة التي نادى بها أرسطو فيما يتعلق بوضع الملك ، ويعاق عليها برأى مؤداه أن موقف الملك من الشعب مثل موقف الله من العالم ومن ثم لا يجب أن يقدم حسابا عن أعماله لأي شخص ، ثم يبلور نظريته بقوله « وحيث أن الملك هو تجسيم للقانون الذي يسود الدولة فانه يجب أن تنظر إليه كما تنظر للإله بين البشر » (٤٨) .

هكذا إذن كان لا بد أن يتأثر الاسكندر بالافكار التي أحاطت به فيما يتعلق بفكرة الحكم . وقد حاول ، كما ذكرت ، أن يضع هذه الفكرة موضع التنفيذ في باكتره ، وإن كان قد أقدم على محاولته في شيء من

Stobaeos: lv, 7, 61

(48)

عن تاريخ كتابة ديوتوجينيس أنظر : Tarn Alexander the Great and the Unity of Mankind (Proc . of Bitish Acad., 1933) , p. 152 n. 33.,

الحذر والتردد وبشكل غير مباشر ، يجعل فيه رعاياه يقومون نحوه بما يقوم به العباد نحوه لهم دون أن يطلب منهم صراحة أن يعترفوا به كإله . على أن هذا الوضع لم يستمر طويلا ففي ٣٢٤ ق.م . جاءت المناسبة الثالثة التي أقدم فيها الاسكندر على هذه الخطوط . ففي هذه السنة أصدر الاسكندر مرسومين يتعلق أحدهما بعدد من المنفيين السياسيين الذي كان يود اعادتهم إلى المدن اليونانية التي نفوا منها ، والآخر يطلب فيه إلى هذه المدن في صراحة أن يعترفوا بألوهيته (٤٩) .

وقد أثار طلب الاسكندر هذا أكثر من رد فعل بين مواطني هذه المدن ، كما كان هناك أكثر من ظرف يبرر هذا الطلب على الأقل من الناحية الشكائية ويفسر الموقف الذي اتخذته المدن اليونانية ازاءه . فقد قيل مثلا إن ديموستينيس دعا الآثينيين إلى اجابة مطلب الاسكندر فيما يتصل بفكرة الألوهية كوسيلة لمساومته على عدم اجابة المطلب السياسي الآخر ، كما حكم الآثينيون بالاهدام على ديماديس ، المواطن الآثيني الذي قدم الاقتراح ، بمجرد أن واثمهم الفرصة بعد وفاة الاسكندر . كذلك نجد الاسبرطيين في تهكم المعتاد يقولون : فليصبح الاسكندر الها إذا كان

Diod. xviii, 8, 4.

(٤٩)

عن . وقف اليونان من هذا المطلب أنظر : Athen: vi, 25, 13,

Plut. Lakon. Apopisteg., 219 E-F, Hypereid. Cont. Dem.

Jouguet, op. cit., pp.45-6 عن مناقشة هذا الموقف أنظر :

Tarn : op. cit, 37 sq.; A. D. Dock : Noies on the

Ruler Cult, J.H.S: XL VIII, pp. 21 — 43

يريد أن يكون الها . - كذلك من الممكن أن نقول إن المدن اليونانية وافقت على تأليه الاسكندر بدافع من خوفهم منه وإنما لم تكن تملك إلا الاستجابة لكل ما يتقدم به الزعيم المستبد لحلف كورنثة من مطالب، كما نستطيع كذلك أن نقول إن إضافة إله جديد إلى مجموعة الآلهة التي عرفها اليونان لم يكن بالامر العسير لدى قوم لم يعرفوا الترحيب وإعلاء كانوا ينظرون إلى تعدد الآلهة وتزايد عددهم على أنه أمر طبيعي .

ولكن مهما كانت الظروف أو الأسباب فهناك حقيقتان ثابتتان في هذا المجال : إحداهما تخص موقف الاسكندر والأخرى تخص موقف المدن اليونانية من هذه المسألة ، وكلنا الحقيقتين تشير إلى اتجاه سياسي . أما عن موقف الاسكندر فيبدو فيه المزج واضحا بين الدين والسياسة على أساس أن الأول دعامة للثانية ، فهو من الناحية الرسمية كان لا يستطيع أن يطالب إلى المدن اليونانية ، كزعيم لحلف كورنثيه ، أن يسمحوا للتنفيذ السياسيين بالعودة ، لأن هذا كان يعتبر تدخلا في الشؤون السياسية الداخلية لهذه المدن وهو مالا يتفق ونصوص هذا الحلف . ولكن إذا كانت نصوص الحلف ملزمة له كذلك للقدونين بعدم التدخل ، فإنها لم تكن ملزمة له كإله لليونانيين له الحق أن يتصرف كما يشاء . أما من جانب المدن اليونانية ، فهي قيل في تفسير أو تبرير موافقتها على مطلب الاسكندر ، فإن هذه المدن كانت تدرك كل الإدراك أن تأليه الاسكندر لا يمكن أن يكون خلوا من المغزى السياسي ، وأن الاسكندر الإله لا يمكن أن يكون شخصا منفصلا عن الاسكندر الزعيم السياسي .

هذا عن قاعدة الحكم التي تبلورت في الفترة التي قامت فيها امبراطورية الاسكندر وعن الظروف والتي أحاطت بها ، ونحن نستطيع أن نميز فيها اتجاهها واضحا من جانب الاسكندر نحو العنصر الشرقي الذي يتمثل في نظرية الحق الالهى للحاكم ، وإن كنا نلمس في نفس الوقت شيئا من التردد والحذر في خطبواته قبل أن يفصح نهائيا عن فكرته بشكل صريح مباشر .

وقد رأينا أن السبب في هذا التردد كان موقف اليونان والمقدونيين الذين كانوا أبعد ما يمكن عن هضم هذه الفكرة ، وإن كانت المدن اليونانية قد بدأت في النهاية تسلم بالامر الواقع تحت وطأة السيطرة الفولاذية من جانب الاسكندر ، وهي سيطرة لم يستطيعوا ، رغم أكثر من محاولة ، أن يجدوا منها فكاكا .

وقد كانت فكرته عن السياسة الداخلية على اتساق مع فكرته عن قاعدة الحكم . حقيقة أن الاسكندر كان يرى في أثينه معقدا الازجاء اليونانية وكان يعتقد أنها وصلت إلى الذروة في مجال الحضارة اليونانية التي كانت تنزل من نفسه أكبر منزلة ، وكان يمكن لأثينه ، تبعا لذلك قدرا كبيرا من الاحترام والاعجاب . ولكن كل هذا لم يؤثر في نظريته إلى الحكم الديمقراطية أو الشعبي الذي كان يسودها والذي كانت تمثله خير تمثيل . فهو كملك كان حكمه يميل بالضرورة نحو السلطة الفردية ولو بشكل جزئي ومن ثم لم يكن متحمسا للنظام الشعبي الذي كان يمثل ذروة الفكرة الجماعية التي وصلت اليها بلاد اليونان في ميدان نظم الحكم ، وإنما كان اعجابه ببلاد اليونان يقترب من التعاق العنصري العاطفي بقدر

ما يعتمد عن التقدير السياسى الواقعى ، فهو يعرف الكثير عن عصر
الابطال الذى تتجاوب أصدائه فى الأشعار الهومرية وهو يحمل معه
أثناء حملته نسخة من الألياذة صححها أرسطو وراجعها أناكسارخوس
وكالستيس ، وهو يصف هذه الحملة بأنها تهدف إلى الانتقام من الفرس
الذين غزوا بلاد اليونان ونهبوا أماكنها المقدسة قبل ذلك بمائة وخمسين
عاما ، وهو حين يصل إلى آسيا الصغرى يحج إلى طروادة ويزور فى خشوع
مقبرتى أخيلئوس وباتروكوس ويقدم التضحيات للبطل بروتيسيلاس ، وهو
أول يونانى سقط فى ميدان المعركة على الشواطئ الآسيوية عندما كان اليونان
بسيل غزو طروادة (٥٠) .

هذه هى بلاد اليونان التى كان الاسكندر يعجب بها ، بلاد تشمل
الأمجاد الهومرية والابطال الهومريين والجو الهومرى بوجه عام ، وهو
جو يعتمد كثيراً فى تنظيمه السياسى عن ذلك الذى وصلت اليه بلاد
اليونان فى الفترة التى عاصرت ظهور الاسكندر ، ويسوده تنظيم ملكى
فى طريقه إلى تنظيم أرسقراطى ، وكلاهما يعتمد عن النظام الشعبى الاثينى
بقدر ما يقترب من نظام الحكم الفردى . ولعل هذا الوضع السياسى
الهومرى كان أقرب إلى نفس الاسكندر وإلى تفكيره كحاكم بسبب قرب
من الوضع السياسى فى مقدونية ، الذى كان الملك فيه ، بعد مبايعة
القوات المقدونية المحاربة له ، يتمتع بقدر كبير من فردية التصرف ، إذ
لم يكن لهذه القوات المحاربة . كهيئة للشعب ، أى صوت سياسى خارج

المسائل المتعلقة باعتلاء العرش والخيانة الوطنية التي يكون الملك طرفاً فيها (٥١) . هذا عن موقفه من المدن اليونانية ، ولا حاجة بي إلى الحديث عن موقفه من الإمبراطورية فقد كان حكمه فيها إمتداداً للحكم الفردي المطلق الذي عرفته تحت السيطرة الفارسية .

* * *

بقى ميدان السياسة الخارجية ، وهنا أيضا نجد الاسكندر يقرب كثيراً من النظام الشرقى الذي ظهرت فيه فكرة الإمبراطورية وما يتصل بها بالضرورة من السيطرة على عناصر وأجناس مختلفة . وفتح الاسكندر وإمبراطوريته أوضح دلائل على تبلور هذه الفكرة عند الاسكندر وقد أفصح الاسكندر عن أفكاره هذه في مناسبتين بما لا يدع مجالاً للشك في اعتناقه لفكرة الإمبراطورية بمدلولها الذي أشرت إليه . أما المناسبة الأولى فكانت عندما وصل الاسكندر إلى مدينة صور على الساحل السوري ، وهنا يذكر لنا المؤرخ أريانوس أن دارا ، الإمبراطور الفارسي ، أراد أن يصل مع الاسكندر إلى صلح يجعل منه نهر الفرات حداً فاصلاً بين أملاكهما . وهنا يقول بارمينيو ، أحد أتباع الاسكندر ، لو كنت أنا

(٥١) فيما يخص النظام السياسى فى مقدونية راجع عن سلطات الملك :

F. Haypl : Der Koenig der Makedonen

وعن سلطات القوات المحاربة راجع :

F. Granier : Die Makedonische Heeresversammlung

الاسكندر لقبك ، فيجيئه الاسكندر ، كذلك كنت أقبل ، لو كنت بارمينيوس (٥٢) مشيراً بذلك إلى أنه - أى الاسكندر - لا يمكن أن يقف عند هذه الحدود وإنما لابد أن يصل بامبراطوريته إلى حدود العالم المعروف ومن ثم يفرض سيطرته على كافة الشعوب والأجناس المعروفة .

أما المناسبة الأخرى ففى الخطاب الذى أرسله إلى دارا فى ٣٣٣ ق.م. وفيه يصف نفسه بأنه « سيد آسية » ثم يستمر فى مخاطبة دارا قائلاً : لقد تغلبت على قوادك وولائك فى المعركة ، والآن انتهزت عليك وأصبحت أمتك أراضيك بفضل الآلهة . وهكذا يجب أن ترسلنى الآن على أنى ملك آسية العظيم ، وحاذر من أن تكتب إلى كما تكتب: لئلا ذلك ، ولكن اذكر دائماً عندما تلمس مطلباً منى أنى سيد كل ما تملكه » (٥٣) وهكذا مرة أخرى ، يسمع بجلاء ، نبرة الامبراطورية والسيطرة على الأجناس المختلفة التى تقطن آسية وكل المناطق التى يملكها الملك الفارسى .

ولكن إذا كان الاسكندر قد نظر إلى نفسه على أنه امبراطور على المناطق التى كان يملكها الملك الفارسى ، فقد كان موقفه مختلفاً فى بلاد اليونان - فهو رغم سيطرته الفعلية إلى حد كبير على المدن اليونانية كان لا يزال يعتبر نفسه من الناحية الرسمية مجرد زعيم لهم اختاروه من بينهم. يظهر ذلك فى بداية رسالته التى أرسلها إلى دارا والتى أشرت إليها منسند قليل حيث يستلهم بقوله : إن أسلافك قد أغاروا على مقدونية وبقية بلاد

Diod. : xvll, 54; Arrian . ll, 24.

(٥٢)

Arrian ; ll, 14 - 15.

(٥٣)

اليونان وأصابونا بالضير بغير وجه حق . وقد عيني اليونان قائدا وزعيما لهم ولإني أعبر (البحر) إلى آسيه لكي أنتقم لهم . .

وقد أشرت في مناسبة سابقة إلى أن الاسكندر لم يلتزم الحدود الرسمية أو التقليدية لهذه الزعامة ، فطغى عليها في أكثر مناسبة كانت من بينها المناسبة التي طلب فيها إلى المدن اليونانية إعادة المنفيين السياسيين على نحو ما فصلت في مكان سابق . وهكذا يتأرجح الاسكندر مرة أخرى بين المفهوم اليوناني والمفهوم الشرقى لفكرة السياسة الخارجية وإن كان تأرجحه هذا يميل بشكل ظاهر نحو الجانب الشرقى .

٣ - نهاية الاسكندر وقيام حكم خلفائه

هكذا كانت شخصية الاسكندر ، نتأرجح بين المفهوم الحضارى الشرقى وبين المفهوم اليونانى ، وفيها تأثر بنشأته في بيت حاكم مقدونى يسير على نمط سياسى يجمع إلى حد ما بين المفهومين ولا يستطيع أحد أن يعرف ماذا كان يمكن أن يتم ، حضاريا ، في المنطقة التي امتد عليها نفوذه لو أن الأجل قد طال بالاسكندر ، وهل كان التيار الشرقى هو الذى سيتغلب على نظيره الغربى أو العكس ، أو أن نظاما عالميا تذوب فيه التيارات في تكوين حضارى واحد كان سيقوم في المنطقة . ولكن الذى حدث هو أن الاسكندر مات في ٣٢٣ ق. م. ، وبموته تحددت معالم العصر الجديد الذى انفتح فية الشرق على الغرب في الحدود التي أسلفت الإشارة إليها والتي كانت شخصية الاسكندر وسيطرته في الغرب وفتوحاته في الشرق هي أداتها .

وقد كانت امبراطورية الاسكندر عند موته تمتد فوق مناطق نلتسمى إلى ثلاث قارات . ففي أوربيه كانت مقدونية هي مقر الامبراطورية ومركزها وفي آسية كانت الامبراطورية تشمل الإمتداد الأراضى الذى يحده بحر إيجه غربا ومنطقة البنجاب الهندية فى الشرق بينما يحده فى الشمال خط يمتد تقريبا بين منطقة القوقاز وبحر الخزر وتاخمة فى الجنوب شبه جزيرة العرب ، ولا يخرج من كل هذا الامتداد من الأراضى عن سيطرة الاسكندر إلا بعض مناطق فى شبه جزيرة آسية الصغرى هي أرمينية والشريط الشمالى لشبه الجزيرة ، وكانت مصر هي المنطقة التى تمثل امتداد الامبراطورية فى القارة الإفريقية . هذا بينما كانت أغلب المدن اليونانية فى شبه جزيرة البلقان تدين له بالسطرة كأعضاء فى الحلف اليونانى (أو حلف كورنثة) الذى كانت تزعمه مقدونية ، كما كانت المدن اليونانية الواقعة فى آسية الصغرى ، فيها عدا تلك الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الاسود حلفاء له خارج نطاق الحلف اليونانى .

ولنحاول الآن أن نرى ماذا تم عند موت الاسكندر . وهنا نجد أن قادة هذا الفاتح الشاب اجتمعوا فى بابل فى هيئة مؤتمر ليحددوا مصير الامبراطورية على الطريقة المقدونية التى أشرت اليها فى مناسبة سابقة والتى يشكل الجيش فيها جمعية شعبية تعالج المسائل المتعلقة بالعرش . وفى هذا المؤتمر (٣٢٣ ق.م .) استقر القواد بعد مداورات ومناورات جانبية ، على أن تبقى الامبراطورية فى بيت فيليب وأن ينتقل العرش إلى فيليب ارهيداوس Arrhtdaeos (الذى أصبح الآن فيليب الثالث) وهو أخ غير شقيق للاسكندر ، على أن يشاركه فيه مولود الاسكندر من

زوجته الفارسية روكسانى Roxane إذا جاء ذكرها (وقد جاء المولود
بمسد وفاة الاسكندر بأشهر وكان ذكرا وأصبح بذلك شريكا لفلپب
الثالث تحت اسم الاسكندر الرابع) . كما اتفقوا على تقسيم الامبراطورية
إلى أربعة وعشرين ولاية يحكم كل منها قائد من فواد الاسكندر بصفته
واليا satrapes من قبل البيت الامبراطورى ، بينما جعلوا كراتيروس
Krateros وصيا على العرش وبرديكاس Perdikkas قائدا عاما للجيش
(chiliarches) (٥٤)

(٥٤) لم يكن التقسيم الذى تم فى مؤتمر بابل هو التقسيم الوحيد ، فقد أعقبه
بعد سنتين تقسيم آخر تم فى مؤتمر عقدة فواد الاسكندر فى تريباراديسوس
Triparadisos (الجنات أو الحدائق الثلاثة) فى سورية عام ٣٢١ ق.م .
بعد أن تحالف بعض هؤلاء القواد ضد برديكاس حين رأوا أنه يهدف إلى
السيطرة على أمور الامبراطورية وهزيمة وانهى الأمر بقتله . وقد
أصبحت الامبراطورية تبعا للتقسيم الجديد ، تضم اثنتين وعشرين
ولاية منها عشرة تغير ولايتها عما كان عليه الحال فى تقسيم مؤتمر بابل كنتيجة
طبيعية لتتحية أنصار برديكاس أو أصدقاؤه من الولاة السابقين .
مصادر التقسيم الذى تم فى مؤتمر بابل هى :

Diod. : XVIII, 3 ; Arrian. & Deixippos ap. Photios, lusc.,
XIII, 4; Q. Curt , X, 10.

مصادر التقسيم الذى تم فى تريباراديسوس هى :

Diod. : XVIII, 30 ; Arrian. : Alex. Diad., 34

== Lehmnn-Haupt : R E.. Satrapie : المراجع الحديثة أنظر :

واكن الامور لانتقير على هذا النحو ، فان يرديكاس لايلث أن يظهر نواياه نحو التحكم في شئون الامبراطورية كلها . فيسيطر على شئون العرش المقدوني ، ويضع الملكين تحت سيطرته ، وبذلك تنفجر الشرارة الى أضرم الوضغ بعد موت الاسكندر لسنوات عديدة بين قواده السابقين - وهو الوضع الذي كان مسرحا لعدد من التيارات والاطماع المتضاربة المتداخلة في صراعها حول مصير الامبراطورية التي أقامها هذا الفاتح .

* * *

وقد تميز هذا الصراع بظهور ثلاثة تيارات رئيسية . وكان أول هذه التيارات يستهدف الابقاء على وحدة الامبراطورية تحت حكم بيت فليب ، وهو البيت الحاكم الذي ينحدر منه الاسكندر ، ممثلا في الملكين اللذين انفق عليهما في مؤتمر بابل ، وهما ، كما ذكرت في مناسبة سابقة ، فيليب الثالث الاخ غير الشقيق للاسكندر ، والاسكندر الرابع ، ابن الاسكندر . وكان من بين أنصار هذا التيار ، سواء منهم المخلصون لبيت فيليب أو الذين يظهرون هذا الاخلاص بينما تراودهم أطماع خاصة : يومينيس Eumenes القائد اليوناني الذي كان يعمل سكرتير للاسكندر قبل موته ، وبرديسكاس الذي عين قائدا للجيش في مؤتمر بابل وأنتيباتروس Antipatros وبوليبرخون

== ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ط ٢ ، ج ١ ، صفحات ٤١-٤٤ عن تقسيم مؤتمر بابل وصفحات ٣-٦٤ عن مؤتمر تريباراديسوس

Polyperchon اللذين كانا ، في فترة أو في أخرى ، أوصياء على العرش .

أما التيار الثاني فكان يتزعمه أنتيجونوس Antigonos وابنه ديمتريوس Demetrios ، وكان هذان القائدان يرميان إلى الإبقاء على وحدة الامبراطورية ، ولكن تحت حكم بيت أنتيجونوس لا بيت فيليب . وأخيرا فقد كان أنصار التيار الثالث يرون أن تقسم الامبراطورية إلى عدة ممالك يتربع على عرش كل منها واحد من قواد الاسكندر ، وإن لم تكن حدود هذا التقسيم واضحة في أذهان بعضهم . ومن بين هؤلاء سليوقوس Seleukos الذي سيصبح فيما بين ملوكا على سورية وبطليميوس Ptolemaios (بن لاجوس Lagos) الذي سيؤسس دولة البطالمة في مصر . وقد التقى التياران الثاني والثالث ، لفترة من الوقت ، في الوقوف أمام التيار الأول الذي كان أنصاره يعملون على تماسك الامبراطورية تحت حكم آل فيليب ، ولكن هذا الالتقاء كان في فترات متقطعة ، كما كانت له بالضرورة صفة مرحلية محضة .

وليس من أهدافي في هذه الدراسة أن أدخل في تفاصيل هذا الصراع ولكني سأكتفي لفرض التوضيح بتقسيمه ، من الناحية الزمنية ، إلى مراحل ثلاثة (وإن كانت قد تداخلت فيما بينها في عديد من المناسبات) . (٥٥)

(٥٥) يجد القارئ العربي تفصيلا وافيا لهذا الصراع في :
 إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة (ط ٢ ، ج ١) ، صفحات
 ٤٥ - ٤٧ و ٥٧ - ٦٠ و ٦٢ - ٦٤ و ٦٦ - ٨٩ .

ويمكن تحديد المرحلة الأولى بوجه عام بين ٣٢٣ و ٣١٦ ق.م. ورغم كثرة الصدامات والتحالفات والمؤامرات في هذه المرحلة فنحن نستطيع أن نبين فيها طابعا عاما هو أن حق بيت فيليب في حكم الامبراطورية بصفته البيت الحاكم الشرعى فى مقدونية ، كان لا يزال عميق الجذور فى النفوس بحيث لا يمكن تجاهله بسهولة . وقد كان هذا الوضع هو السبب الكامن وراء أكثر من ظاهرة فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها . من هذه الظواهر مثلا أن المتصارعين من ذوى الأطماع من قواد الاسكندر لم يسكنوا يجيرون بنواياهم الحقيقية ، سواء كانت الاستقلال بالولايات التى كانوا يحكمونها أو كانت الطمع لدى بعض هؤلاء القواد فى العرش المقدونى ذاته . ومن هنا كان تسمح هؤلاء الاخيرين ببيت فيليب كأوصياء على العرش أو كمتحدثين باسم هذا البيت أو كدافعين عن مصالحه .

كذلك هناك ظاهرة ثانية سببها هذا الوضع ، وهى الأهمية الكبيرة التى كان يعلقها الطامعون فى العرش على ما يمكن أن تتخذه بعض النساء المتمنيات إلى بيت فيليب ، صاحب الحق الشرعى فى عرش الامبراطورية ، من مواقف أو ما يمكن أن يدبرنه من متاعب استنادا إلى وضمنهن فى الأسرة الإمبراطورية كأمهات أو زوجات أو بنات لهن حقوق أو مطالب أو مطامع فى السلطة . ومن بين هؤلاء النساء على سبيل المثال أولمبياس Olympias أم الاسكندر ، وكانت امرأة قوية الشكيمة تهدف إلى النفاذ إلى دائرة السلطة للسيطرة غير المباشرة على عرش الامبراطورية ولاتتورع عن الإقدام على أى عمل فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية ، ومن يبين كذلك يوريديكى Eurydike (التى كانت تعرف قبل ذلك باسم آديه Adefa) فقد كانت هذه حفيدة للمكين جلس كل منها ، فى وقت

أو في آخر على عرش مقدونية ، أحدهما ، عن طريق أمها ، هو فيليب الثاني أبو الاسكندر ، والآخر هو پرديكاس الثالث ، كما كانت خطيبة فيليب أرهيداوس أحد وريثي الاسكندر ، ومن هنا فقد كان وضعها هذا ، إلى جانب ذكائها ، من الأسباب التي أدت إلى الخوف منها في ضوء ما كان يتمتع به بيت فيليب من حق معترف به في العرش ، بل أكثر من ذلك فإن امرأة مثل روكساني ، الأميرة الفارسية الجميلة ، ابنة أحد ولادة آسية الصغرى التي أحبها وتزوجها الاسكندر والتي أصبحت بعد موته بأشهر قلائل أما لابنه وأحد وريثيه ، رغم أن شيئاً لم يصلنا عن أي أطباع لها أو حتى عن شخصية قوية لها ، فإن مجرد وجودها كأم لأحد الملوك وزوجة الامبراطور الراحل كان يشير المخاوف من جانب الطامعين في عرش مقدونية .

وفي ضوء هاتين الظاهرتين يمكن أن نفهم ظاهرة ثالثة اتسمت بهما هذه الفترة ، وهي اللجوء إلى التخلص من الشخصيات المتصلة بالعرش بطريقة أو بأخرى على اعتبار أن طامعهم ، أو حقهم أو حتى مجرد وجودهم في بعض الأحيان ، قد يسبب متاعب لا تصار تيار أو آخر من التيارات التي أحاطت بمصير الامبراطورية في أعقاب موت الاسكندر .

وقد كان من بين ضحايا هذا الاتجاه فيليب الثالث ، أحد الملوك ، ويوريديكي ، وقد تم اغتيالها بتدبير من أوليمبياس أم ، الاسكندر ، في ٣١٧ ق م ، كما كان من ضحاياه كذلك أوليمبياس نفسها التي أعددها كسندروس Kassandros في السنة التالية بعد أن أصبح صاحب السلطة الفعلية في مقدونية . وقد أتبع كسندروس ذلك بسجن الاسكندر الرابع هو وأمه روكساني . كما شهدت هذه السنة كذلك مقتل يومينيس ، الذي أعدده

أنتيغونوس ، ألد أعداء بيت فيليب وأظهرهم لإعلانا أعدائه ، بعد أن وقع في قبضته نتيجة خيانة جنوده له أثناء حروبه في آسيه التي حقق فيها أكثر من نصر على أنتيغونوس .

وبموت أولمبياس ويومينيس نستطيع أن نقول إن هذه المرحلة من الصراع حول مصير الامبراطورية قد انتهت لغير صالح بيت فيليب ، فقد كانت أولمبياس هي الرأس المدبرة الماكرة وراء التيار الذي يستهدف الإبقاء على وحدة الامبراطورية تحت هذا البيت ، وكان يومينيس أخلص أنصار هذا التيار . وإذا كان قد بقي من أفراد هذا البيت ، من القريبين من العرش ، الاسكندر الرابع وأمه روكسانى ، قبل أن يتم إعدامهم على يد كسندروس بعد بضعة سنوات (٣١٠ - ٣٠٩ ق.م.) ، فإن هذا في الواقع لم يكن يشكل امتدادا لهذا التيار بقدر ما كان عملية احتياط لتجنب عودته .

أما المرحلة الثانية فيمكننا أن نضع حدودها بين ٣١٦ و ٣٠٦ ق.م. والظاهرة الأساسية في هذه المرحلة هي النشاط الواسع الذي قام به أنتيغونوس وابنه ديمتريوس في محاولة شاملة للسيطرة على كل الامبراطورية والإبقاء على وحدتها تحت حكم بيت أنتيغونوس كما ذكرت آنفا . وستكون نتيجة هذا الاتجاه أن تحدث عدة صدامات حربية بينه وبين القواد الآخرين من أمثال سيليوقوس وبطليوس الذين كانوا يهدفون إلى تقسيم الامبراطورية كما عرفنا . وكان من أمثلة هذه الصدامات المسلحة معركة غزة في ٣١٢ ق.م. التي انتصر فيها بطليوس على ديمتريوس بن أنتيغونوس ، والمثل الآخر هو موقعة سلاميس في قبرص عام ٣٠٦ ق.م. وقد انتصر فيها ديمتريوس وقد أعقب ذلك اعلان أنتيغونوس لنفسه ولابنه ملكين على الامبراطورية . ولكن الانتصار مع ذلك لم يكن انتصارا حاسما

بالمعنى الدقيق إذ أن كل قائد من قواد الاسكندر استطاع أن يعلن نفسه ملكا على المنطقة التي عهد إليه يحكمها تحت لواء الامبراطورية . وهكذا أصبح كسندرون ملكا وسليوقوس ملكا لسورية وبطلبيوس ملكا لمصر بعد أن كانت صفته حتى ذلك الوقت هي صفة الولاة الذين يتقلدون مناصبهم من قبل البيت الامبراطورى .

وأخيرا نستطيع أن نحدد المرحلة الثالثة بين ٣٠٦ - ٣٠١ ق. م. وقد كانت في حقيقتها استمرارا للرحلة السابقة فيها عدا أن قواد الاسكندر من أنصار التقسيم قادوا معاركهم بصفتهم الجديدة كملوك يدافعون عن المناطق التي أقاموا ملكهم فيها بينما لم يصبح انتيجيوس وابنه في ضوء هذا الظرف الجديد ممثلين لمبدأ الوحدة وإنما أصبحوا من الناحية الشكلية معتدين على دول قائمة من الناحية الرسمية لا الفعلية فقط . وستشهد هذه الفترة محاولات يائسة من جانب انتيجيوس وابنه لتوحيد الامبراطورية تحت سيادتها ولكن هذه الجهود تنتهى فجأة في عام ٣٠١ ق. م. بعد موقعة إبسوس Ipsos في فريجيه في آسية الصغرى وهى الموقعة التي سيقضى فيها على انتيجيوس ، بينما يهرب ابنه ديمتريوس بصفة مؤقتة ، لتنتهى معها فكرة وحدة الامبراطورية انتهاء تاما (٥٦) .

(٥٦) إذا كان الصراع بين قادة الاسكندر السابقين سيستمر بعد ذلك حتى عام ٢٨٣ ق. م. الذى سيشهد نهاية ديمتريوس ، فإن الفترة الواقعة بين ٣٠١ و ٢٨٣ لم تكن تمثل فترة صراع حول وحدة الامبراطورية أو تقسيمها ، بقدر ما كانت تمثل ما يمكن أن نسميه تذييلا للفترة السابقة كان كل من الملوك فيه (وبخاصة بطليوس وسليوقوس) يحاول أن يدعم مملكته ، فيما عدا ديمتريوس الذى كان لا يزال يتابع مغامراته متأرجحا بين حلم الوحدة القديم وواقع التقسيم الجديد حتى مات في الأسر عام ٢٨٣ .

وباتت هذه فكرة وحدة الإمبراطورية أصبح الطريق ممهدا لكي تقوم على أنقاضها ممالك متأخرة أو مصطبغة بالصبغة الإغريقية تحكمها أسر حاكمة أسسها قواد الاسكندر الذين صمدوا في الصراع الكبير ، ومن بين هذه الممالك الإمبراطورية السلوقية التي قامت في سورية وانتهت في ٦٤ ق.م. والمملكة الأنتيغونية التي قامت في مقدونية والمملكة البطلمية التي أسسها في مصر بطليموس بن لاجيوس والتي انتهت في ٣٠ ق.م. بانتحار آخر حكامها ، كليوباترة السابعة في أنفساء صراعها مع رومه ، لتصبح مصر بعد ذلك ولاية تدور في فلك الإمبراطورية الرومانية (٥٧) .

(٥٧) ليس معنى هذا أن هذه الممالك استقرت بصفة نهائية منذ ذلك التاريخ (٣٠١ ق.م) وقد كانت أسرع هذه الممالك إلى الاستقرار تحت حكم البيوت الحاكمة الجديدة هي مصر ، تليها سورية ، بينما كانت مقدونية أكثرها تعثرا على طريق الاستقرار فقد أعلن كسندروس نفسه ملكا عليها في ٣٠٦ ولكن قدر لهذه المنطقة أن تمر بفترة طويلة من الاضطراب وتنازع السلطة وتقسيم النفوذ قبل توحيدها . وقد ظهرت في فترة الاضطراب على مسرح هذه المملكة شخصيات متعددة ، من بينها ، غهر كسندروس ، ليسياخوس Lysimachos وديمترىوس ، وبيروس Pyrrhos وكان استقرارها النهائي في ٢٧٦ ق.م. على يد أنتيجونوس جوناتاس Antigonos Goanataa الذي أسس البيت الأنتيغوني فيها ، وهو ابن ديمترىوس الذي مر بنا ذكره ، وحفيد أنتيجونوس قائد الاسكندر الذي رأيناه يتزعم تيار توحيد الامبراطورية تحت بيته متحديا بيت فيليب .

القسم الثاني

دولة البطالة: القاعدة والدعامات

الباب الرابع

قاعدة الدولة الجديدة

انتهت امبراطورية الاسكندر ، إذن ليشهد الاقسام المطل على القسم الشرقى للبحر المتوسط صراعا مديدا مريرا بين قواد الاسكندر وخلفائه ، تمخض في النهاية عن ميلاد ممالك جديدة أسسها هؤلاء القواد وأصبحوا حكاما عليها . وكانت مصر ، كما رأينا ، هي المنطقة التي أقام عليها بطليموس بن لاجوس ، أحد هؤلاء القواد ، دولته وملكه الجديد . وقد كان طبيعيا أن يعتمد بطليموس إلى تدعيم هذا الملك الذي لم يطمئن إلى قيامه إلا بعد رحلة شاقة من الكفاح المتصل عبر العقود الأخيرة من القرن الرابع ق م . وبواكير القرن الذي يليه ، كما كان طبيعيا أن يتجه خلفاؤه من البطالمة الاوائل ، وبخاصة بطليموس الثاني ، في نفس الاتجاه .

ولكن قبل أن أتحدث عن الدعامات التي ممكن بها البطالمة لدولتهم وحكمهم أرى من الخير أن أتحدث عن القاعدة ، أو الفرش القاعدية التي قامت عليها هذه الدعامات . وسأنظر إلى هذه القاعدة من ثلاث زوايا : الأولى تخص الأرض التي أقام البطالمة دولتهم عليها ، والدور الذي هيأته ميزات موقعها وموقعها لتقوم به في إرساء قوائم هذه الدولة ، والثانية تخص الظروف التي أحاطت بقيام الدولة الجديدة والتي كانت لابد أن تؤثر بالضرورة على اتجاهات هذه الدولة ، والثالثة تخص الشخص الذي

وقع على كامله العبء الاول والاكبر في تأسيس الدولة الجديدة ومن ثم مكنت شخصيته وأفكاره من الانتفاع بالأرض التي أقام عليه ملكه وبالظروف التي أحاطت بها.

١ - أرض الدولة الجديدة :

ولنبداً باستعراض سريع للأرض التي قامت عليها دولة البطالة. وفي هذا المجال نجد أن مصر كانت لها المقومات الاقتصادية والدفاعية والإدارية والسياسة الكافية في ذلك العصر (وفي الواقع في عصور أخرى سابقة ولاحقة) لايجاد حياة سياسية مستقرة. فمن الناحية الاقتصادية كان انتظام الفيضان وخصوبة الأرض عاملين قويين لدعم الموارد الزراعية بينما كان موقع مصر المتوسط بين القارات الثلاثة عاملاً مواتياً إلى حد كبير لتكون قاعدة لنشاط تجارى من الطراز الاول كطريق للتجارة بين أوربه وآسيه وأفريقية .

ولم تكن ميزات مصر الدفاعية بأقل من ميزاتها الاقتصادية ، فقد حبتها الطبيعة بسياج دفاعى منيع يكاد يحيط بها إحاطة كاملة في وقت لم يعرف فيه العالم الا الطرق البدائية للتنقلات العسكرية . ففي الشرق تقع مساحة واسعة من الصحراء الجرداء ينتهى طرفها الشرقى عند سلسلة الجبال التي يصل ارتفاعها إلى ١٨٠٠ متراً والتي تنحدر بشدة وبشكل مباشر الى الساحل الصخري المقفر للبحر الأحمر ، وتتصل عند طرفها شمالى الشرقى بصحراء سيناء التي تنتهى حيث تبدأ الصحراء السورية من جانب وصحراء شبه الجزيرة العربية من الجانب الآخر . والحدود في الغرب

لا تختلف كثيرا عنها في الشرق ، فالصحراء الليبية تمتد من الوادى الضيق حتى حدود مصر الغربية ، وهى فى أقفاها لا تقل عن الصحراء الشرقية إذا استثنينا عددا قليلا من الواحات التى تمتد قرب الحدود الغربية من خط عرض سينى Syene (أسوان) نحو الشمال الغربى حتى واحة سيوة . وحتى هذه السلسلة من الواحات لا تؤثر فى الوضع كثيرا إذ أن منابع المياه فى هذه الصحراء قد تبتعد عن بعضها بما يقرب من ٢٩٠ كيلو مترا . وعلى أية حال فالواحة الوحيدة التى استقرت أنظار القدماء (ربما لقيمتها الدينية كمركز لعبادة آمون قبل أى اعتبار آخر) وهى واحة سيوة تبتعد عن رأس الدلتا بما يقرب من ٨٠ كيلو مترا عبر الصحراء (٥٨) .

وإذا كانت الطبيعة قد هيأت لمصر هذا السياج الواقى من الشرق والغرب فإن الساحل الشمالى لم يكن بأقل من ذلك كثيرا فى قيمته الدفاعية ، فنطقة الساحل الممتدة بين مصب النيل كانت فى ذلك الوقت امتدادا بحريا ضحلا لا يصلح لارساء السفن القادة ، وهذا ينتهى عند الجنوب بامتداد آخر من المستنقعات التى تقف حاجزا فى وجه أية قوة تحاول دخول مصر من هذا الاتجاه . أما فى القسم الغربى من الساحل حيث اختط الاسكندر مدينة الاسكندرية ، فتكتسح البحر فى أغلب شهور السنة رياح شالية سريعة لا بد أن يحتاط لها أى مهاجم من الشمال ، وقد حمت هذه الرياح مصر

M. Cary : Geographical Background of the Greek (٥٨)
and Roman History, pp. 212 sq.
G.A.H. : X, 239-40

بالفعل في بعض المناسبات ، كما حدث في ٣٠٦ ق.م. حيث نجح ديمتريوس (ابن أنتيجونوس أحد خلفاء الاسكندر) الذي قضى على الاسطول المصري في معركة سلاميس (بقبرص) أثناء صراعه مع بطليموس حول تقسيم الامبراطورية ، لا يستطيع أن يتابع نصره باحتلال مصر بسبب قوة الريح الساحلية الشمالية التي جعلت انزال جنوده إلى الشاطئ أمراً مستحيلاً .

هذا إلى أن الدخول إلى الميناء الشرقية كان أمراً على جانب من الصعوبة نظراً لضيق مدخلها ولوجود بعض الصخور القريبة من سطح المياه بها ، بينما كانت المدينة تتمتع في جوانبها الأخرى بحدود على جانب لا بأس بها من المناعة. فمن القرب يحدها النطاق الصحراوي الذي يمتد حتى الحدود المصرية الغربية ومن الجنوب تحدها بحيرة مريوط أما من الشرق فكان اتصالها ببقية مصر عن طريق شريط رملي بين البحيرات كان أضيق بكثير في العصور القديمة مما هو عليه الآن . وبالتالي لم يكن الدفاع عنه أمراً عسيراً (٥٩) .

فإذا انتقلنا إلى الحدود الجنوبية وجدنا أنها ، إذا لم تكن من القيمة الدفاعية بمثل ما كانت عليه الحدود الأخرى ، إلا أنها لا تخلو تماماً مما يعرف بطريق المهاجم ، مثل الشلال الأول قرب سييني ومثل صحراء النوبة

(٥٩) راجع عن الأحداث :

Diod . : xx , 74 , Plut. : Demetrios , 19 , 3.

التي تمتد نحو الداخل في بعض المناطق حتى لتسكاد تلاصق بحرى النيل تماما .

ولم تكن الدعامة الاقتصادية الراسخة ، الحدود المنيعة هي كل ما هيا لمصر فرص الاستقرار الذي اعد لها لمركزها الممتاز في العالم المتأغرق ، ففي الناحية الادارية نجد الظروف الطبيعية والجغرافية تمكن أية حكومة قوية من السيطرة على الامور في داخل البلاد في سهولة ويسر يضمنان هذا الاستقرار إلى درجة كبيرة . ففيما يتعلق بصيانة الامن الداخلى نجد المنطقة المأهولة بالسكان لاتخرج عن الوادى الذى يمتد على جانبي النيل من طيبة جنوبا حتى ساحل البحر المتوسط شمالا ، ونحن إذا استثنينا منطقة الدلتة التي تمتد فوق مثلث رأسه عند منف وقاعدته هي الساحل البحرى الذى يحده مصب الفرع الباوزى (فرع دمياط الحالى) شرقا ومصب الفرع السكاوبى (فرع رشيد الحالى) غربا - وجدنا أن بقية الوادى من منف حتى حدود مصر الجنوبية لايزيد عن منطقة ضيقة تسكاد تلتصق بمجرى النيل في جنوب طيبة ثم تفسح تدريجيا في شواطئ اتساعا لايزيد عن ٥٠ كيلو متراً في أعرض اجزائها ، بينما قد يضيق الوادى ليصل عرضه إلى أقل من ٣٠ كيلو متر في بعض الأحيان . وواضح أن توزيع السكان في مثل هذه المنطقة الضيقة المحصورة لا يتطلب من الحكومة القائمة توزيع قوات الامن على نطاق واسع مما قد يوجد ثغرة أو ثغرات في الاحتياطات اللازمة لاقرار الامن الداخلى . وحتى منطقة الدلتة المتسعة نسبيا نجدها كذلك محصورة تحدها الصحراء من الشرق والغرب وتحدها المستنقعات والبحر في الشمال ومن الممكن بالتالى لاية حكومة جادة أن تسيطر عليها بحاميات في الاسكندرية ومنف وبلوزيون .

وأخيراً فإن ميزات مصر لم تقتصر على النواحي الاقتصادية والدفاعية والإدارية وإنما ضمت ، إلى جانب هذه النواحي ، ميزة سياسية بالنسبة لمؤسس دولة البطالمة بالذات . هذه الميزة هي بعدها عن المنطقتين اللتين كان من الممكن أن تصبح واحدة منها مركز السلطة المركزية الإمبراطورية في الفترة التي احتدم فيها الصراع . عقب وفاة الاسكندر ، بين أنصار الأبقاء على وحدة هذه الإمبراطورية ودعاة تقسيمها . والمنطقة الأولى هي بابل ، التي كان الاسكندر قد اتخذها مركزاً لحكمه والتي يوجد فيها ، عند موته ، أخوه الذي أصبح أحد وريثية في العرش الإمبراطوري . أما المنطقة الثانية فهي مقدونية مقر البيت الحاكم المقدوني ، والتي ظلت ، بعد موت الاسكندر ، مركزاً للنشاط السياسي المتصل بمصير الإمبراطورية وهو النشاط الذي انعكس في أكثر من ظاهرة من بينها المؤمرات والاغتيالات والصدامات العسكرية المستمرة . ومن هنا فقد كان موقع مصر ، ببعده الملحوظ عن كل من بابل ومقدونية وهما المركزان المحتملان للسلطة الإمبراطورية ، ميزة لا يمكن اغفالها ، تعطى قدراً غير قليل من الأمان للقائد الذي يريد أن يقيم فيها دولة تحت حكمه . (٦٠)

٢ - ظروف الدولة الجديدة :

وفي هذه المنطقة إذن ، التي حباها موقعها الجغرافي سواء من الناحية

(٦٠) راجع الإشارة إلى هذه الفكرة في :

أبراهيم نصحي: مصر في عصر البطالمة (ج ١ ، ط ٢) صفحات ٥٤-٥٥

التكوينية أو الوظيفية بميزات أهلها لأن تكون قاعدة ممتازة لاقامة دولة مستقرة عمل البطالة الاوائل جاهد من بداية حكم بطليموس الاول على أن يدعموا ملكهم الجديد بكافة الطرق . وهنا نلاحظ أن هذه الدعامات كانت موجهة إلى اقرار حكم البطالة في داخل مصر من جانب ، كما كانت موجهة كذلك وبصورة ايجابية إلى اقرار مركزهم في المجال الدولي من جانب آخر . ففي داخل مصر كان اقرار البطالة لما كرههم أمرا جوهريا لانهم كانوا أمام شعب له جذور حضارية ضاربة في أعماق التاريخ ومن ثم له قم راسخة في كافة مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية لا يمكن تجاهلها بسهولة ، وقد ظهرت صلابه هذه الغميم في أكثر من مناسبة وكان اقربا من الناحية الزمنية بالنسبة للبطالة ترحيب المصريين بتقدم الاسكندر كمنحر لهم من حكم الفرس الذين لم يغفر لهم المصريون تجاهلهم أو تحديهم لقيمهم المتوارثة في الناحية الدينية (٦١)

(٦١) يظهر رد الفعل الذي أثاره الفرس بسوء معاملتهم أثناء الفترة الثانية من احتلالهم (التي ابتدأت في ٣٤١ ق.م. وانتهت بدخول الاسكندر مصر في ٣٣٢ ق.م.) في الدور الذي قام به أحد الامراء المصريين (ويدعى خباش) في تلك الفترة والذي يظهر مدى التفاف المصريين حوله واعترف كمنة صنف به في الفترة التي أقام فيها حكما مستقلا في دلتته عن الحكم الفارسي : راجع Sethe : Urkunden, II صفحات ١٦-١٨ .

كذلك تظهر سوء المعاملة الفارسية وحالة الاضطرابات التي سادت مصر في تلك الفترة من جراء الدارات و ركات التمرد المصرية من النص الذي تركه بتوزير Petosiris ، أحد كمنة تحوت على مقبرته (حوالى =

أما عن أهمية اقرار البطالة لمركزهم في المجال الدولي فسببه هو ان الطابع الدولي كان قد بدأ يسيطر على منطقة شرق البحر المتوسط بشكل واضح في الفترة التي اقام فيها البطالة حكمهم وهو طابع ربما عرفته هذه المنطقة بشكل جزئي في أيام الامبراطوريات القديمة التي اتخذت الساحل الافريقي أو الساحل الآسيوي مقرا لها سواء في أيام الفراعنة أو الاشوريين أو الحثيين ، ولكنه لم يصل إلى الشعوب أو الوجود الذي عرفته هذه المنطقة ابتداء من الوقت الذي انطلق فيه الاسكندر من الشاطئ الاوربي في حملته التي ادخلت هذا الشاطئ في إطار يربط بينه وبين الشاطئين الافريقي والآسيوي في كل متجاوب من الناحيتين السياسية والحضارية عامة وهو إطار قدر له أن يظل قائما في هذين المجالين حتى بعد تقسيم امبراطورية الاسكندر وقيام الدول المتأخرة على انقاضها . وقد كان التعبير السياسي لهذا الاتجاه الدولي هو التناحر الشديد المستمر الذي ميز العلاقة بين الدول المتناغرة ، والذي حاول فيه حاكم كل دولة من هذه الدول أن يمكن لنفسه ويوسع منطقة نفوذه على حساب

= ٣٠٠ ق.م) وفيه يندد أكثر من مرة بفترة الحكم الفارسي على أنها فترة حكم الاجانب ، ويشير كذلك إلى سوء الحالة بأن كل شيء لم يكن في مكانه الصحيح وأن الكهنة ابعدوا من معابدهم ، كما يذكر أن المنطقة الجنوبية من مصر (الوجه القبلي) كانت في حالة هياج على الحكم ، بينما كانت المنطقة الشمالية في حالة ثورة .

راجع : G. Lefebvre : Le Tombeau de Petosiris
صفحات ١٠ - ١٢ ، كذلك نقش ٨١ ، سطور ٢٦ - ٣٣ ، ونقش
٥٩ سطر ٢ .

الحكام الآخرين والمناطق التي يحكمونها . (٦٢)

وقد كانت هذه الصبغة الدولية أو هذا الاتجاه الدولى الذى جعل الانظار تنجس فى أغلب الاحوال ، إن لم يكن فى الواقع دائماً ، عبر الحدود المحلية الموجودة بين دولة ودولة داخل المنطقة المتأغرة . أقول كان هذا الاتجاه الذى طبع تصرفات حكامها وأصبح أظهر سمات العصر ، يرجع إلى أكثر من عامل .

فمن جهة كانت المنطقة حديثة عهد بتكوين امبراطورية الاسكندر ، بل لقد كان الجيل الاول من حكام المنطقة هم قواد الاسكندر أنفسهم ، الذين شاركوا فى تكوين امبراطوريته . وقد كانت هذه الامبراطورية فى حد ذاتها هى المثل الواقعى للظاهر تحت أعين الجميع على أن احتياج الحدود

(٦٢) يصف و. و. تارن العالم المتأغرق بأنه « عالم كبير » تظهر فيه العالمية بشكل واضح فى أكثر من جانب . فقد شاعت فيه فكرة « العالم المعمور » ، Oecumene وصاحب ذلك شكل جديد من اللغة اليونانية هو اللغة اليونانية المشتركة koine التى لم تصبح قاصرة على اليونانيين ، بل كان يستعملها كذلك عدد من الآسيويين (والأفريقين) بحيث كان المرء يستطيع إذا عرف هذه اللغة ، أن يجد طريقه بسهولة من المنطقة التى توجد فيها مرسيليه الحالية إلى الهند ، ومن بحر الخزر فى الشمال إلى الشلالات فى جنوبى مصر . كذلك اتسعت أبعاد الموضوعات التى تناولها الأدب والثقافة وبخاصة الفلسفة ، كما ظهر الاتجاه الدولى بوضوح فى مجال النشاط التجارى ، كواحد من المجالات العديدة التى اتسمت بالسمة الأساسية للعصر ، وهى الصبغة الدولية التى اصطلغت به كل جوانبه .

راجع : W.W. Tarn & G.T. Griffith : Hellenistic Civilisation : (3rd. ed.), pp. 2 — 3

المحلية أمر وارد وسهل التنفيذ . وعلى أن الحدود المحلية لا تكتسب شرعيتها من مجرد وجودها ، ولا تقف أمام القوة العسكرية التي تجعل الحق الشرعى الوحيد هو حق الفتح الذى لا يحترم ولا يستترف بالحدود القائمة الثابتة .

ولم تكن فترة تقسيم الامبراطورية بعد موت الاسكندر بأقل من فترة تكوينها أثناء حياته من ناحية أثبتت هذه الفكرة فى أذهان هؤلاء الحكام ، فإن كلا منهم قد أستقر فى المنطقة التى أصبح حاكما عليها بحسب الفتح ، إذا نظرنا إلى المسألة من ناحية واقعية ، فبطليموس لم يترك أليستة فى مصر دون أن يدخل فى عديد من المعارك قبل أن تصبح فى النهاية حقا له ، والشئ ذاته ينطبق على استقرار سليوقوس فى سورية . بل لم بعض القواد ، فى فترة التقسيم ، كان الواحد منهم تقوده عملياته العسكرية من مقدونية إلى مصر ، كما حدث مع پرديكاس على سبيل المثال ، أو بنفسه نتيجة لهذه العمليات سيدا لسورية أو لقسم منها ، ثم تنتقل منطق سيطرته لآسيه الصغرى أو لمقدونية أو العكس ، كما حدث فى أفتيجونوس وابنه ديمتريوس ، اللذين أنهما حياتهما فى العمليات العسكرية دون أن يقيما دولة ذات حدود مستقرة ، وإذا كان أفتيجونوس جوناثا . وهو ابن ديمتريوس ، ، فقد تمكن أخيرا من إقامة دولة مستقرة وأسرة حاكمة فى مقدونية ، فإن هذا لم يكن على سبب الميراث ، وهو مظهر الاستقرار والاعتراف بالشرعية ، عن أبيه عن جده ، وإنما كان نتيجة لنشاط عسكري وعمليات عسكرية قام بنفسه بها .

كذلك أسهم في إيجاد هذا الطابع الدولى الذى عرفته المنطقة ، الاتجاه المتزايد نحو الهجرة إلى أقسامها المختلفة من جانب اليونانيين فى أعقاب فتوح الاسكندر . حقيقة إن المنطقة شهدت هجرات يونانية اليها على مدى قرون عديدة قبل هذه الفتوحات ، وقد كانت هذه الهجرات كثيفة فى بعض الأحيان ، كما كان الحال على الساحل الغربى لآسيه الصغرى على سبيل المثال ، ولكن بعض أقسام هذه المنطقة ، مثل سورية ومصر و برقة لم تعرف المهاجرين اليونان قبل فتوح الاسكندر وقيام العصر المتأغرق إلا فى أعداد محدودة وجاليات بسيطة ومتناثرة . أما بعد هذه الفتوح فقد زاد عدد هؤلاء المهاجرين فى هذه المناطق زيادة واضحة لسبيين : أحدهما هو انهيار مقومات الحياة القديمة التى عرفها اليونان فى بلادهم الأصلية على النحو الذى أشرت اليه فى مناسبة سابقة (٦٣) ، والثانى هو اتجاه حكام العالم المتأغرق إلى الاستعانة ، بشكل متزايد ، فى كافة الجوانب ، عسكرية كانت أو إدارية أو فنية ... الأمر الذى أدى إلى تشجيعهم ، بكافة وسائل الاغراء ، على الهجرة إلى المناطق التى كانوا يحكمونها وعلى الاستقرار فيها . ومن هنا فقد كان هؤلاء اليونان عنصرا مشتركا متحركا بين أرجاء المنطقة المتأغركة ، يضافى عليها الصفة الدولية التى كانت لا بد أن تطبع تصرفات حكامها .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فقد زاد من هذه الصبغة الدولية التى سيطرت .

على المنطقة ظهور قوة جديدة فنية في وسط حوض البحر المتوسط وعلى تخوم العالم المتأغرق - هي الجمهورية الرومانية . وقد كان ظهور رومه في تلك المدة في المكان الذي ظهرت فيه وبزعة التوسع التي طبعت اتجاهها إذ ذاك ، لسبب أو لآخر ، عاملا لا بد ان تؤدي إلى احتكاك هذه القوة الجديدة بالمنطقة المتأغرة في صورة أو في أخرى مما أدى بهذه المنطقة الى أن تصبح مركز ثقل لاتجاه دولي واضح المعالم ، وهو اتجاه منجد انه يسيطر على قسم كبير من نشاط حكام هذه المنطقة بما فهم البطالة .

وسيطر تاريخ البطالة صدق هذا الاتجاه اظهارا تاما سواء في فترة قوتهم أو في فترات ضعفهم . فالبطالة الاوائل ، كما سنرى عندما نعرض لسياساتهم الخارجية ، سيتجهون إلى فرص حمايتهم على الجزر اليونانية الواقعة في بحر إيجه وإلى التوسع على حساب سورية وبرقة وقبرص ، وكلها مناطق دخلت في نطاق السيطره البطلمية لفترات طويلة أو قصيرة . كذلك سنرى أن دولة البطالة ، حين بدأت في الاضمحلال ، كان الخطر الذي يهددها يأتي من الممالك المتأغرة الواقعة في هذه المنطقة سواء في سورية أو في مقدونية . كما أن حكام البطالة سيلبسون بشكل متزايد تدخل رومه سرياء في حكمهم الداخلي أو في علاقاتهم الدوائية حتى عهد آخر حكمهم ، كليبواتره السابعة التي دخلت مع رومه في صراع دام ، شهد نهايتها ونهاية الدولة المستقلة التي كانت تحكمها في ٣٠ ق.م . عند اكثيوم الواقعة على الشاطئ اليوناني ثم في ٣٠ ق.م . على الشاطئ المصري في الاسكندرية .

٣ - مؤسس الدولة الجديدة

ثم يأتي بعد الحديث عن أرض الدولة الجديدة والظروف التي أحاطت بها ، الحديث عن بطليموس الأول ، الرجل الذي أسس هذه الدولة ، ومدى تسكيفه مع هذه الظروف حتى يستطيع أن يثبت ملكه على هذه الأرض . وقد سارت سياسة بطليموس في هذا المجال في ثلاثة خطوط صريحة متوازية تهدف جميعا إلى غرض واحد ، هو أن يرسى في مصر قاعدة ثابتة لدولة علم ، رأسها بيت حاكم هو مؤسسه وأول حكامه . وقد كان الخط الأول في هذه السياسة هو العمل الدائب من جانب بطليموس على مساندة التيار الذي كان يستهدف تقسيم إمبراطورية الاسكندر ، والتصدى لآى اتجاه نحو الإبقاء على وحدتها تحت حكم أى جهة أو أى شخص يريد السيطرة على الإمبراطورية الموحدة ، سواء كان من بيت فيليب أو من غير بيت فيليب ، فإذا لم يمكنه التصدى له تحاليل عليه سواء بتمييعه أو الائتلاف حوله بشكل مرحلى حسبما تستوجب الظروف .

أما الخط الثانى فى سياسة بطليموس فهو حرصه على أن تكون مصر دون غيرها ، هى مركز الدولة التى كان يزمع إنشاءها . وهو خط التزمه منذ أن أصبح واليا على مصر حسب تقسيم مؤتمر بابل الذى تم فى أعقاب موت الاسكندر ، ولم يتزحزح عنه أمام أى ظرف اضطرارى أو أمام أى إغراء بمنطقة بديلة أو بسلطة أوسع فى إدارة الامبراطورية . وأخيرا فقد كان الخط الصريح الثالث فى سياسة مؤسس دولة البطالمة هو العمل

المستمر من جانبه على خلق مركز لمصر بكل الوسائل في المنطقة التي يضمها العالم المتأغرق .

ونحن نلخص الخط الأول من سياسة بطليموس فيما يتعلق بتأسيس الدولة الجديدة ، وهو التصدي لآى اتجاه نحو وحدة الإمبراطورية ، أو مناورته ومداورته حتى تحين له فرصة مواجهته ، في المواقف المتتالية التي اتخذها من قضيتين أساسيتين في هذا المجال . القضية الأولى تتصل بمسألة وراثة عرش الامبراطورية أو الوصاية عليه بعد موت الاسكندر ، والثانية تتعلق بالقوا الذين كانوا يهدفون إلى السيطرة على هذه الإمبراطورية وإخضاعها لسلطتهم الفردية بطريقة أو بأخرى .

وقد ظهر موقفه من قضية العرش منذ اللحظة التي مات فيها الاسكندر ، واجتمع قواده في بابل ، في هيئة مؤتمر ، ليقرروا مصير امبراطوريته . لقد اختار بعض القواد أرهيدا يوس ، الأخ غير الشقيق للاسكندر ، لكي يخلفه على عرش الامبراطورية ، وأيدهم في ذلك مشاة الجيش ، بينما اقترع البعض الآخر ، وعلى رأسهم پرديكاس ، إرجاء البت في هذه المسألة حتى تلد روكسانى ، زوجة الاسكندر ، فإذا جاء مولدها ذكرا ولى العرش وكان يؤيد هؤلاء في رأيهم فرسان الجيش . أما بطليموس فقد كان اقترح هو أن يبقى العرش الامبراطورى شاغرا وأن يعهد المؤتمر بإدارة الامبراطورية إلى قواد الجيش - وهو اتجاه من السهل أن نرى ما يتضمنه من محاولة لتجميع الموقف بحيث يقوى مركز كل قائد في المنطقة التي يؤول إليه حكمها (وقد آل إليه حكم مصر في هذا المؤتمر) على حساب أية إدارة مركزية قوية للامبراطورية ككل .

وقد حدث تعديل ، ولكنه لا يشكل تغييرا ، في موقف بطليموس تجاه هذه القضية حين استقر رأى المؤتمرين في بابل على طريقة شغل العرش . فقد ثار الخلاف بين أنصار ارتقاء أرهيداوس للعرش وأنصار الانتظار حتى يأتى مولود الاسكندر . وهو خلاف كاد يصل إلى الصدام المسلح فعلا حين حاصر الفرسان ، وعلى رأسهم پرديكاس ، مدينة بابل ليفرضوا رأيهم بالقوة . ففي ذلك الوقت نجد بطليموس يشترك مع يوميئيس في الوصول إلى حل يرضى الطرفين ، مؤداه أن يرتقى أخو الاسكندر العرش ، وأن يشترك معه مولود الاسكندر إذا جاء ذكرا (٦٤) .

وقد يبدو هذا الموقف الجديد لبطليموس ، للوهلة الأولى ، كما لو كان انتقالا إلى صف أنصار وحدة الامبراطورية وتدعيم إدارتها المركزية ، وبخاصة إذا عرفنا أن يوميئيس الذى اشترك معه في تقديم الإقتراح المعدل كان من أصلب دعاة الوحدة تحت يفس فيليب . ولكنى أرى في هذه الخطوة من جانب بطليموس مناورة أراد أن يتفادى بها وضعها كان من الممكن ، بل من المرجح أن يودى إلى تدعيم الإدارة المركزية للامبراطورية . ذلك أن پرديكاس كان قد نجح في محاصرة بابل وبذلك أصبح فى المركز الأقوى ، وقد كان پرديكاس يرنو فعلا ، كما أثبتت الحواث بعد ذلك مباشرة إلى السيطرة على عرش الامبراطورية - وهو أمر كان لا يمكن أن يخفى على فواد الاسكندر المجتمعين فى بابل . ومن بينهم بطليموس . ومن

(٦٤) عن موقف بطليموس من مسألة العرش راجع .

Bouché - Leclercq : Histoire des Lagides, I, p. 6

P. Jouguet ; Macedonian Imperialism (ترجمة انجليزية) p. 20.

ابراهيم نصيحى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ط ٢ ، ص ٤٣ ، حاشية (التى يشير فيها إلى المصادر القديمة) .

هنا فإن مبادرة بطليموس بالاشتراك في تقديم اقتراح يوفق بين الجانبين الواقفين على خط الصدام هو في الواقع حرمان برديكاس من مركز القوة الذي كان يقف فيه على رأس الفرسان محاصراً لبابل ، وبالتالي فإنى أرى في هذه المبادرة خطوة تفوت على برديكاس نقطة تفوق على بقية القواد من أول الطريق وبالتالي تعطل ، إن لم تعرقل ، مخططه نحو السيطرة على إدارة الامبراطورية ولو لبعض الوقت .

كان هذا هو موقف بطليموس من العرش في مؤتمر بابل ، وهو موقف استمر ، ولكن بتفاصيل مختلفة ، حين أثبتت مسألة العرش مرة أخرى بعد مقتل برديكاس ، الذى كان قد نجح في السيطرة على العرش حتى ٢٢١ ق م . لقد عرض على بطليموس في تلك السنة أن يصبح هو الوصى على عرش الامبراطورية الذى كان يجلس عليه إذ ذاك ملكان ، أحدهما معنوه وهو أخو الاسكندر ، والاخر لا يزال طفلاً وهو ابنه . ولكن بطليموس لم يقبل هذا العرض الذى كان سيربطه ، دون نزاع ، بتيار الابقاء على وحدة الامبراطورية ومن ثم يقيّد حركاته وتصرفاته فيما يخص الاستقلال التدريجى بمصر . وهكذا نجد بطليموس يتخلص بلباقة فائقة من قبول هذا العرض تاركاً شغل هذا المنصب لقائد آخر هو أنتيباتروس . (٦٥)

هذه هى مواقف بطليموس من القضية الاولى ، وهى قضية وراثة العرش والوصاية عليه . أما عن مواقفه من القضية الأساسية الثانية المتعلقة بالقواد الذين يهدفون إلى السيطرة على الامبراطورية وإخضاعها

لساطة مركزية يمكنهم بزمها . جاءت أول مناسبة لظهورها حين بدأت نوايا پرديكاس ، الذى كان مؤتمر بابل قد عينه فى منصب قائد الجيش الامبراطورى ، تظهر وتشير بوضوح إلى نواياه فى السيطرة على الامبراطورية . وقد كان موقف بطليموس من پرديكاس هو التحالف المسمى ضد مع أنيتباتروس وكراتروس أنيتجونوس ، الذين كانوا يتوجسون خيفة ، كل لسبب خاص به ، من هذه النوايا . وفعلًا تم هذا التحالف فى ٢٢١ ق.م وانتهى بهزيمة پرديكاس ومقتله .

والموقف ذاته يتكرر ، وإن كان بتفاصيل أخرى ، ضد أنيتجونوس وهو القائد الذى تحالف معه بطليموس بصفة مرحلية ضد پرديكاس ، والذى كان يرنو هو الآخر إلى عرش الامبراطورية ، ويعمل هو وابنه ديمتريوس ، بدأب منقطع النظير ، على إخضاع الامبراطورية لبيت حاكم يكون هو مؤمسه . فى ٣١٥ ق.م . ، حين قويت شوكة أنيتجونوس فى آسية وأخذ يمثل دور الملك فيها ووضح اتجاهه الصريح نحو محاولة السيطرة على أراضى الامبراطورية بأكملها ، دخل بطليموس فى حلف ضده مع سايوقوس وكسندروس وليسيماخوس . وكانت النتيجة التى ترتبت على دور بطليموس هى تهديد مؤخرة أنيتجونوس بحيث نجح ليسيماخوس فى سد الطريق أمامه دون غزو مقدونية التى كان يعتبر (أى أنيتجونوس) غزوها أمرا أساسيا فى مخطط السيطرة على الامبراطورية (٦٦) .

ولم يكن هذا هو موقف المجابهة الوحيدة بين بطليموس وأنيتجونوس فى مجال التهديد لمحاولات توحيد الامبراطورية لسلطة مركزية . فى

(٦٦) Diod : XIX, 40; 59, 1 sq. راجع ابراهيم نصحي : نفس المرجع ٥ ج ١ ، صفحات ٧١ - ٧٢

٣٠٢ ق.م. حين أحرز ديمتريوس بن أنتيجونوس انتصارات على كسندروس في المنطقة الإغريقية وجد أنتيجونوس أن هذه هي فرصته التي كان يسعى إليها نحو السيطرة على مقدونية ، مركز العرش الإمبراطوري ، فطلب من كسندروس التسليم دون قيد أو شرط . وقد كان هذا إذارا للجميع بالخطر من جانب أنتيجونوس . وهنا نجد بطليوس يدخل في عمل عسكري مشترك مع حلفاءه الأمازيغ (سليوقوس وكسندروس وليسيانخوس) ويدخلون مع أنتيجونوس في معركة فاصلة في ٣٠١ ق.م عند إبسوس Ipsos في فريجيه (في آسية الصغرى) - وهي المعركة التي عرفت باسم « معركة الملوك » والتي انتهت بمقتل أنتيجونوس وفرار ابنه ديمتريوس ، وانتهى بذلك خطر تيار الوحدة على أنصار التقسيم (٦٧).

* * *

هذا عن الخط الأول من سياسة بطليوس ، وهو التصدي بطريقة أو بأخرى لآي تيار يهدف إلى الإبقاء على وحدة الإمبراطورية . وقد رأينا كيف كان هذا الخط واضحا منذ اللحظة التي مات فيها الاسكندر في ٣٢٣ ق.م. وكيف ثابر بطليوس عليه بدأب عجيب على مدى أكثر من عشرين عاما حتى اطمأن إلى اندثار فكرة الوحدة وبالتالي إلى ثبوت

(٦٧) Diod.: XX, 106; Plut.: Demetrios, 28 عن تقييم نتيجة
المعركة راجع : Tarn and Griffith: Hell. Civ., p.7

كذلك إبراهيم نصحي : نفس المرجع ، ص ٨٣

مركزه في القسم الذي أراده لنفسه من امبراطورية الاسكندر (٦٨). وعلى نفس الدرجة من الوضوح كان الخط الثاني من سياسة بطليموس ، وهو حرصه على أن تكون مصر ، دون غيرها ، هي مركز الدولة التي كان يستهدف إقامتها .

وفي الواقع فإن مصر قد استرعت انتباه بطليموس حتى قبل أن يموت الاسكندر وتظهر إلى الوجود فكرة التصرف في امبراطوريته ، وبالتالي قبل أن تصبح إقامة بطليموس الدولة في مصر موضع تفكير . ونحن نلح ذلك من الوصف الدقيق لخلة الاسكندر على مصر ورحلته إلى واحة آمون (سيوة) الذي يظهر في كتاباته . ولكن هذا الانتباه يتحول إلى اهتمام عملي هادف منذ اللحظة التي يموت فيها الاسكندر ففي مؤتمر بابل

(٦٨) نحن نستطيع أن ندرك مدى مشابرة بطليموس على فكرة التقسيم وعدم السماح لنفسه بالابتعاد عنها إذا قارنا موقفه مثلاً بموقف شخص مثل أنتيجونوس ، الذي رأيناه يهدف إلى الإبقاء على وحدة الإمبراطورية تحت سيطرته هو وابنه . لقد كان أنتيجونوس مثابراً ، هو الآخر ، على اتجاهه ولكنه مع ذلك كان لا يجد غضاضة ، إذا اضطرته الظروف ، أن يعترف بمبدأ التقسيم وأن يتصرف على أساس منه . ودليل ذلك ما حدث في ٣١١ ق.م. حين اضطر إلى عقد صلح مع المتحالفين ضده (كسندروس وليسيماخوس و بطليموس) فقد كان من بين شروط الصلح أن تكون تراقية تحت حكم ليسيمياخوس وأن يحتفظ كسندروس بسيطرته على مقدونية حتى يبلغ الاسكندر الرابع (بن الاسكندر الأكبر) سن الرشد ويعتلى عرشها ، وأن يعترف بحق بطليموس في حكم مصر .

الذى وزعت فيه ولايات الامبراطورية ليحكمها قواد الاسكندر كولاية من قبل البيت الامبراطورى نجد بطليموس يحصل على ولاية مصر . ويكاد يكون من المؤكد أن هذا لم يحدث عفوا وانما كان نتيجة لرغبة وتدبير من جانب هذا القائد الذى استرعت مصر انتباهه منذ فتحها ودليل ذلك أن كليومينيس Kleomenes كان صاحب الكلمة الاولى فى مصر منذ أواخر عهد الاسكندر ، وبالتالى فقد كان أمراً طبيعياً أن يصبح هو والى مصر بعد موت الفاتح المقدونى ، وبخاصة أنه كان صديقاً لبرديكاس الذى كانت له اليد العليا فى مؤتمر بابل وفى الفترة الوجيزة التى قدر له أن يعيشها بعده . ومع ذلك فقد أعطيت ولاية مصر لبطليموس واضطر كليومينيس أن يقنع بالمركز الثانى فيها ، وهو أمر ما كان يمكن أن يتم بدون تدبير من بطليموس . وقد رأينا بطليموس ، حين دب الشقاق فى مؤتمر بابل واقترب من مرحلة الصدام المسلح ، يتقدم للتوفيق بين الرايين المتصارعين حول مسألة العرش فى هذا المؤتمر ، واللذين كان برديكاس ، ومعه الفرسان ، يقف على رأس أحدهما . وليس بمستبعد أن يكون برديكاس ، لقاء هذا الموقف من جانب بطليموس ، قد أسهم فى توجيه الامور بحيث تصحح ولاية مصر من نصيب بطليموس . بل إنه ليس من المستبعد أن يكون بطليموس قد توصل مع برديكاس إلى اتفاق مؤداه أن يحصل بطليموس على مصر ، مضمناً بصديقه برديكاس ، فى مقابل أن يؤيده بطليموس فى الحصول على منصب قائد الجيش الذى كان برديكاس يعتبره مركز قوة والذى حصل عليه فعلاً فى مؤتمر بابل (٦٩).

(٦٩) يرجع وو تارن (J.H.S., XLI, p. 5) حدوث مثل هذا الاتفاق ، ويؤيده ابراهيم نصحى (نفس المرجع ص ٥٤) فى رأيه

ولكن التوصل إلى الحصول على ولاية مصر لم يكن إلا الخطوة الأولى بالنسبة لبطليميوس على طريق التمكن لنفسه فيها . فهو حين يقدم إلى مصر ليتسلم ولايتها في أواخر ٣٢٣ ق م . لا يطمئن لوجود كليومينيس بها فكليومينيس صديق پرديكاس وبطليميوس أول من يعلم مدى طموح پرديكاس إلى السيطرة من خلال سلطته في مقدونية ، على ولايات الامبراطورية . وبالتالي فإن وجود كليومينيس في مصر في مركز الرجل الثاني أمر ينطوي على أكثر من احتمالات الخطر بالنسبة لبطليميوس . وهكذا يبدأ بطليميوس في الاستماع إلى شكاوى الشعب من تصرفات كليومينيس ويتخذ من هذه الشكاوى ذريعة يتذرع بها لينفذ فيه حكم الإعدام ويؤمن مركزه مؤقتا من جانب رجل پرديكاس قبل أن تصل السنة التي تدم فيها إلى نهايتها وهو تأمين لا يلبث أن يؤكد بصفة نهائية بعد سنتين في مؤتمر تريباراديسوس (في سورية) الذي انعقد بعد أن اتى پرديكاس حثفه ، ليعيد فيه قواد الاسكندر توزيع ولايات الامبراطورية بعد إقصاء أنصار پرديكاس - وقد حرص بطليميوس في هذا المؤتمر على أن يحصل على الاعتراف بمركزه في ولاية مصر (٧٠) .

على أن توصل بطليميوس إلى الولاية على مصر وإلى اعتراف الآخرين بمركزه فيها لم يكن يشكل نهاية المطاف بالنسبة له . فقد كان هدفه الأساسى هو الاستقلال بهذه المنطقة وإقامة دولة فيها وعلى هذا فنحن نجد أنه ، في أثناء اشتراكه الختمى في الصراع حول تقسيم الامبراطورية ،

لا يجد مانعا أن يتخلى ، بصفة مرحلية عن بعض مناطق يكون قد حصل عليها ، إذا وجد في بقاءه فيها أو على استمراره في احتلالها عبءا عسكريا يهدد قوته أو يستدرجه بعيدا بشكل يهدد مركزه في مصر .

ومن أمثلة ذلك ما حدث في ٣١٢ ق.م. مثلا ، فبعد انتصاره على ديمتريوس بن أنتيجونوس انتصارا حاسما في غزة لمنعه من الاستيلاء على مصر نجد أنه يغلى منطقة الغور ، أو جوف سورية ، تفاديا لمجابهة أنتيجونوس حين قدم هذا لمساعدة ابنه ، ووجد بطليموس أن قوات الأب وابنه تشكل تحديا عسكريا لا يستطيع أن يتكهن بنتائجه . والموقف ذاته يتكرر على الجبهة العربية لمصر ، فحين يساعد أنتيجونوس أوفلاس في نفس العام (٣١٢) على الاستقلال ببرقة (التي فتحها بطليموس وعين أوفلاس حاكما عليها من طرفه منذ ٣٢٣) يتركها هذا مؤقتا ، على أن يستعيدا في فرصة لاحقة (وقد تم هذا فعلا بعد أربع سنوات في ٣٠٨) مفضلا أن يتفرغ لحماية مصر من الخطر الذي كان يهددها من جانب أنتيجونوس .

ولكن إذا كان بطليموس على استعداد لاخخاذ مثل هذه المواقف خارج مصر ، فإن تصرفه كان مختلفا تماما الاختلاف إذا كان الأمر يتعلق بمصر ذاتها . فمنها نجده يستमित في الدفاع بكل قوته ضد أى مهاجم للمنطقة التي كان يزعم إقامة ملكه فيها . وهكذا يتصدى لبرديكاس حين يشن هذا هجومه عند بلوزيون في ٣٢١ ق.م. وتكون النتيجة أن يخفق برديكاس في الاستيلاء على مصر . وحين يقدم أنتيجونوس على غزو

مصر في ٣٠٦ فتحطم هذه المحاولة هي الأخرى ، أمام المقاومة العنيفة من جانب بطلميوس ، دفاعا عن أرض الدولة التي كان بسبيل تأسيسها (٧١).

* * *

ونأتي أخيرا إلى الخط الصريح الثالث في سياسة بطلميوس بصدد تأسيس دولة في مصر على رأسها بيت حاكم هو مؤسسه وأول حكامه ، وهو العمل الدائب على خلق مركز أدبي متفوق لمصر ، مقر دولته ، وسط العالم المتأغرق . وقد ظهر نشاط بطلميوس في هذا المجال في عدة مواقف ابتدأت ، كدأب بطلميوس في بقية المجالات ، منذ اللحظة التي مات فيها الاسكندر . وسأجزيء ، للدلالة على هذا الاتجاه ، بالحديث عن موقف أساسي من بينها .

والموقف يتصل بمسألة ربما تبدو غريبة لأول وهلة ، ولكن كان لها مع ذلك أهمية غير عادية . هذه المسألة هي التصرف في جثمان الاسكندر لقد اجتمع قواد الاسكندر ، لدى وفاته ، في بابل وقرروا أن يتم دفنه في مقدونية . وهكذا تم الاستعداد وجهزت العربدة التي تحمل الجثمان وانطلقت في أواخر ٣٢٢ ق.م . من بابل في طريقها إلى سورية ثم إلى مقدونية.

(٧١) يجد القارئ العربي تفاصيل مواقف بطلميوس مع ديمتريوس و أنتيجونوس في سورية ، ومع أوفلاس في برقة ، ودفاعه عن مصر ضد برديكاس ثم ضد أنتيجونوس ، كما يجد الإشارة إلى مصادرها القديمة في :

ابراهيم نصحي : نفس المرجع . صفحات ٦٣ - ٧٤ ، ٧٤ ، ٦٣ ، ٨١ على التوالي .

ولكن بطليموس يقوم بحركة ماهرة مخادعة ، فيتفق سرا مع قائد الحامية وتكون النتيجة : حين يصل الموكب إلى سورية هي أن يقابله بطليموس ومعه قوة من جنوده ، وينحرف به إلى مصر . وفي مصر يتم دفن الجثمان في منف بصفة مؤفمة ، لينقل بعد ذلك إلى الاسكندرية حيث يستقر بصفة دائمة (٧٢).

ونحن نستطيع أن ندرك المغزى الكامل لهذه الحركة من جانب بطليموس إذا عرفنا أن المنطقة التي ستصبح مقرا لجنحان الاسكندر ، كانت ستصبح في نفس الوقت مركز النقل الأولى في العالم المتأغرق . لقد كان المقدونيون والإغريق ينظرون إلى الاسكندر نظرة ، إن لم تصل إلى التأليه الكامل ، فهي لا تبتعد عن ذلك كثيرا ، وهي على كل حال ترقى إلى درجة كبيرة في مراتب التقديس .

والسبب في ذلك بسيط ، فالاسكندر هو الشخص الذي أذل امبراطور الفرس وقوض أركان امبراطوريته ليقم على أنقاضها امبراطورية ، يصبح هو حاكمها ويصبح اليونان والمقدونيون سادة لها وتصبح في النهاية المادة التي تكونت منها الممالك المتأغرة . وقد فعل الاسكندر في ذلك بعد قرن ونصف كان فيها الإمبراطور الفارسي بالنسبة للإغريق قوة تشكل ظلا داكنا في حياتهم ، فهو يتدخل في شؤونهم بشكل مباشر أو غير مباشر

(٧٢) عن قرار دقي الاسكندر في مقدونية أنظر :

Srabo : xvll, 1, 8 ; Pausanias : I, 6,3

Diod. : xvlll, 3,5 : وهناك فكرة عن دفنه في واحة سيوة كما يظهر من :

Bell: Egypt from Alex. the Great to the) : الفكرة :

Arab Conquest ص ٣٢ ولا يقبلها Jouguet: Mac. Imperialism

ص ١٣٠ ، و ابراهيم نصحي (نفس المرجع) ص ٦٠ .

منذ أيام الحروب الفارسية ، ورغم تيجتها ، ويؤلب مدينة على أخرى مستعينا في ذلك بالذهب والمؤمرات وباستغلاله للنزعة الانفصالية التي تفرق بصفه تكاد تكون دائمة بين هذه المدن . وقد استمر تدخله هذا الحروب حتى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد وكان آخر ما يمكن أن يحول في ذهن اليوناني هو أن تستطيع الخلاص من هذه القوة التي يستطيع لها ردا ، فاذا بالاسكندر يقضى في أحد عشر عاما على العملاق الذي أمله ارادته على اليونان طوال قرن ونصف . لقد أصبح الاسكندر نتيجة لذلك ، بطلا في نظر اليونان وأصبح ما قام به معجزة . والبطولة عند اليونان كما كانت بوجه عام في العصر القديم تقسم بالكثير من القداسة وتقرب بالبطل من مصاف الآلهة إن لم تجعل منه في الواقع إله أو نصف إله .

ولقد كان الجو في ذلك الوقت مهيأ فعلا لمثل هذه النظرة ، كما رأينا عندما تحدثت عن الأفكار التي صدرت عن أمثال أرسطو وأينسكرايتس اللذين فربا بشكل واضح بين شخصيه الاسكندر وفكرة التأليه . وهكذا لا يبدو غريبا أن يصبح لكل ما يتصل بالاسكندر شيء كثير من القدسية وفي هذا المجال نجد بادرة تشير إلى هذا الاتجاه في تصرفات يومينيس ، القائد اليوناني الذي رأيناه في مناسبة سابقة يعمل في خدمة الاسكندر ، فحين احتدم الصراع بين قواد الاسكندرية غداة وفاته نجد هذا القائد يحمل معه خيمة الاسكندر كحجز يحميه من كيد خصومه على أساس أن روح الاسكندر كانت تحل بهذه الخيمة ومن ثم كانت تحمى من يحملها (٧٣) .

فاذا كان لحيمه الاسكندر كل هذه القوة الروحية فما بالك بجثمان الاسكندر ،
الذى كان يعتبر دون شك مركز الاشعاع الروحى لشخصية الاسكندر
والذى أطلق عليه اليونان والمقدونيون ، لفرط قداسته فى نظرهم ، اسم
الجثمان الحى Soma (وليس مجرد الجثمان أو الجثة Ptoma) تأكيداً لفكرة
الخلود التى كان اليونان يربطون بينها وبين الآلهة أو من هم فى مصاف
الآلهة أو قريبين منهم .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم حرص بطلميوس على أن يستغل
هذه النقطة لصالحه دون بقية قواد الاسكندر من زملائه الذين أصبحوا
بعد موت القائد الكبير خصومه ومنافسيه ، وبالذات قبل أن يستغلها
برديكاس الذى كان يرئس من بداية الأمر إلى السيطرة على الامبراطورية ،
والذى كان يخدمه ، بالتالى ، إلى حد كبير ، أن يدفن الاسكندر فى مقدونية
حيث العرش الإمبراطورى الذى كان قد أزمع السيطرة على شاغليه (وهما
شاب معتوه وطفل وليد) وحيث مدفن الملوك المقدونيين فى أيجاي
Aegae ، وحيث المركز الأدبى الكبير لما تم دفن الاسكندر هناك . وقد
رأينا كيف نجح بطلميوس فى خطته وأصبحت الاسكندرية ، التى اتخذها عاصمة
له ، تضم رفات الاسكندر ، قاهر الامبراطورية الفارسية ومؤسس السيادة
المقدونية اليونانية ، ورسول الحضارة الجديدة .

كان هذا هو أحد المواقف التى اتخذها بطلميوس فى سبيل تثبيت
مركز مصر ، التى كان قد عزم على اتخاذها قاعدة لدولته ، فى دائرة العالم
المتأغرق - وهو أمر كان بطلميوس حريصا عليه كل الحرص الذى يجعله
يحاول تحقيقه بكل طريقة ، بما فيها هذه الطريقة التى تلمسح إلى حد

كبير بفكرة التقديس كقاعدة أدبية يقوم عليها المركز الذى يهدف إلى تثبيته ، كما تدلنا على ذلك مواقف مشابهة لبطلميوس ، من بينها ترحيبه بصفة سوتر Soter (المنقذ أو المخلص) التى أضفاها عليه أهل رودس وجزر الكوكلاديس ، واتخاذ هذه الصفة لقباً لنفسه ، كما سنرى فى حديث مقبل ، وهى صفة تشير ، ولو من طرف خفى ، إلى فكرة التقديس .

الباب الخامس

الدعامة العسكرية

كان هذا هو الحديث عن القاعدة التي قامت عليها دولة البطالمة . وقد رأينا أن هذه القاعدة تتكون من ثلاثة عناصر : أولها أرض لها ميزات اقتصادية ودفاعية وإدارية وسياسية ، وهي ميزات ذات قيمة كبيرة لمن يريد أن يؤسس دولة ، إذا أحسن الانتفاع بها . والعنصر الثانى ظروف اكتنفت مصر فى الفترة التي عاصرت تأسيس دولة البطالمة ، بعضها داخلى قوامه شعب له تكوين حضارى وقوى لا يمكن تجاهله ، وبعضها خارجى قوامه اتجاه دولى كان لابد أن يفرض نفسه على كل خلفاء الاسكندر ، ومن بينهم الشخص الذى أراد أن يقيم دولته فى مصر . أما العنصر الثالث فهو بطليوس ، الذى أراد أن يقيم هذه الدولة ، والذى استطاع أن يذتفع بميزات الأرض وأن يكيف موقفه لإزاء هذه الظروف بالشكل الذى يمكنه من تحقيق هدفه .

على أن هذه العناصر لم تشكل سوى الأساس أو الفرشة القاعدية التى قامت عليها دولة البطالمة . أما بناء هذه الدولة ذاته فقد كان لابد أن تدعمه أركان أو مقومات أو دعائم فى كافة المجالات التى تتكون منها أبعاد الدولة الجديدة ، سواء من حيث وضعها الداخلى أو من حيث علاقتها بالعالم الخارجى . وقد قامت هذه الدعائم فى أربعة مجالات أساسية هي : المجال العسكرى ، والمجال الاقتصادى والمجال الاجتماعى والمجال الأدبى .

١ - نظرة عامة على القوة العسكرية عند البطالمة :

ولتسكن بداية حديثي عن المجال العسكري . وهنا نجد أنه كان من الطبيعي أن تقفز ظروف العصر بالاعتبارات العسكرية لتصبح الدعامة الأولى لحكام الممالك المتأغرقة . وقد أشرت في أكثر من مناسبة إلى الصراع والتناحر الذي نشب بين قواد الاسكندر غداة موته والذي جعل كلا منهم يحاول أن يقطع لنفسه أحسن أو أكبر نصيب من امبراطورية القاتع المقدوني . وقد رأينا ان الصراع في هذا المجال لم يستمر سنة أو سنتين وإنما ظل قائما في قوته وقسوته ما بين معارك ومؤامرات ومناورات منذ وفاة الاسكندر في ٣٢٣ حتى ٣٠١ ق.م . ولم تكن هذه السنة هي نهاية الصراع بأية حال ، وإنما كانت مجرد نهاية لمرحلة من مراحله وبداية لمرحلة جديدة . فإذا كان الهدف من التناحر قبل ٣٠١ هو حصول كل من هؤلاء الخلفاء على نصيبه من امبراطورية الاسكندر والحصول على اعتراف خصومه بسيماحته على القسم الذي كان يريد ان يصبح من نصيبه ، فان الهدف بعد ٣٠١ أصبح تدعيم مراكزهم في المناطق التي كانوا قد أصبحوا ملوكا لها منذ بضع سنوات ، ثم محاولة مد مناطق نفوذهم ، كل منهم على حساب الآخرين . وهكذا استمر التناحر بينهم وان كان قد اتخذ هدفا جديدا غير هدفه القديم .

في ظل هذا الوضع ، إذن ، لا يبدو غريبا ان يتجه البطالمة أول ما يتجهون ، شأنهم في ذلك شأن بقية خلفاء الاسكندر ، إلى إقامة ملكهم على دعامة عسكرية راسخة . ومن المنطقي ، في هذا المجال ، أن تصور أن بطليموس لم يبدأ من نقطة اللاشيء ، فقد كانت في كل ولاية من ولايات الاسكندر ، غداة موته ، قوة عسكرية كانت كافية ، تحت ظل الامبراطورية

القوية للدفاع عنها وحمايتها . ولكن مثل هذه القوة لا بد أنها تغيرت
تغيراً جذرياً بعد أن أصبح بطليموس واليسا على مصر في ظرف من
التحفظ الذي لم يلبث أن تمخض عن صراع طويل بين خلفاء الاسكندر .
وقد رأينا في مناسبة سابقة مدى حرص هذا القائد على أن يتخذ من مصر
قاعدة للملك ليكون هو مؤسسه ، كما لمسنا استعداد الدائم للدفاع عن هذه
القاعدة ضد أية محاولة لاحتوائها أو لتهديدها من قريب أو من بعيد .
بل أكثر من ذلك فإن بطليموس ، كما سنرى في أثناء الحديث عن
السياسة الخارجية للبطالة ، قد عمل منذ بداية حكمه لمصر ، حتى قبل أن
يعان نفسه ملكاً عليها ، على أن يؤمن حدودها عن طريق احتلال المناطق
التي تضمن له هذا الأمان ، كما استهدف مد نفوذه إلى أية نقطة يستطيع
أن يصل إليها بهذا النفوذ . ومن هنا فقد كان أمراً طبيعياً أن يطور القوة
العسكرية التي وجدها في مصر لتتناسب وهذه الأهداف العريضة
البعيدة (٧٤) .

(٧٤) يذكر المؤرخ ديودوروس (XVIII, 14, 1) أن بطليموس أنفق ثمانية
آلاف تالنتا (وهو مبلغ كبير) من الأموال التي وجدها في خزائن مصر .
بمجرد وصوله إليها في تجنيد قوة من المرتزقة .

راجع : ابراهيم نصحي : المرجع نفسه ، ج ١ ، صفحات ٣٤ - ٣٥
راجع كذلك : J. Lesquier: Les Institution Militaires de
l'Egypte Sous les Lagides ، ص ٢ . ورغم قدم هذا الكتاب
من الناحية الزمنية (صدر في باريس ١٩١١) إلا أنه لا يزال يعتبر
الدراسة الأساسية في هذا الموضوع .

وقد انعكست السمة الأساسية للعصر على الدطامة العسكرية للبطالة .
فكما كان الاتجاه الاساسى للعصر دوليا . كذلك كانت القوات المحاربة
للبطالة قريبة من الصفة الدولية في طابعها وتكوينها ، فبين هذه القوات
كان هناك المقدونيون والإغريق والمصريون وعدد من الجنسيات الآسيوية
وفي الواقع فإن وجود هذه الجنسيات المختلفة في جيش واحد لم يكن
شيئا يصعب تصوره في ذلك العصر . فالعصر كله قد ابتدأ بمغامرة ظهر
فيها الاتجاه العالمى في أكثر من صورة ، وإذا كان الاسكندر قد
مات قبل أن يتاح لفكرته العالمية أن تتحقق بالصورة المثالية التى صورت
اصحابها ذات يوم أن يمزج الدماء الشرقية بالدماء الغربية فيتزوج من
لمرأة شرقية ويدفع عددا غير قليل من ضباطه أن يحدو حذوه - أقول
لماذا كانت فكرة العالمية قد توقفت بشكل مبتور قبل أن تصل إلى
صورتها المثالية ، فانها في نفس الوقت لم تذهب دون أن تترك أثرا .
ولماذا كان هذا الاثر لم يصل إلى حد رفع الحواجز العنصرية بين الغربيين
والشرقيين ، فإنه قد ممكن من الاختلاط والتعايش بين الفئات المنتمية
إلى العنصرين رغم وجود هذه الحواجز .

كذلك فإن العصر قد أنفتح على تأسيس عدة دول في وقت واحد ،
ولم تكن هناك حدود ثابتة مستقرة يقف عندها مؤسسو هذه الدول ،
وانما كانت المسألة متروكة للقوة العسكرية ، بشكل أساسى ، لتكون
الفيصل الذى يضع هذه الحدود ، وفي مثل هذا الظرف يصبح الشاغل
الاول لكل من هؤلاء المؤسسين هو الحصول على هذه القوة بأية طريقة
يرى أنها تصل به الى هدفه . وقد رأينا أن الصراع انفجر بينهم قبل
مضى وقت طويل من وفاة صاحب الامبراطورية التى أقتسموها ، بحيث

لم يكن في المسألة خيار واسع أمامهم من حيث التمسك بالاعتماد على عنصر دون الآخر ، وهكذا بدأ التقليد واستمر .

وقد أدى هذا الوضع الى ظهور طابع آخر أتصفت به القوة العسكرية البطلمية ، وهو في الواقع استمرار الطابع الاول . هذا الطابع هو المرونة التي صبغت نظرة البطلمة الى نسبة العناصر المكونة لهذه القوة . إن البطلمة لم يلتزموا في هذا المجال بنسبة معينة بين عنصر وعنصر ، وإنما كيفوا أنفسهم في هذا المجال حسب الظروف التي أحاطت بهم في المراحل المختلفة من حكمهم . لقد كانت القوات العسكرية للبطلمة على سبيل المثال تتألف في الاساس ، من فرق نظامية من المقدونيين ، و فرق من المرتزقة ، ثم فرق المصريين . وكانت الفرق النظامية المقدونية تشكل قلب الجيش ، وهو القسم الاساسى منه ، بينما كانت الفرق المصرية تؤدي أعمالا ثانوية مساعدة ولا يعتمد عليها إلا في حالة الضرورة القصوى (٧٥) . ولكننا نجد هذا الوضع يتغير تماما في أوائل القرن الثالث حيث نجد قلب الجيش يتألف في موقعة رفع (٢١٧ ق م) من الفرق المصرية . كذلك فإن الفرق النظامية لم تعد قاصرة على المقدونيين ، وإنما أصبحت تستكمل عند الحاجة ، من عناصر أخرى إغريقية وآسيوية ، بل لقد أصبح الآسيويون هم أكثر العناصر عددا في الفرق النظامية في القرن الأول ق.م. وفوق كل هذا فإن كل العناصر التي دخلت في تكوين هذه الفرق أصبح يطلق عليها اسم « المقدونيين » بغض النظر عن الاصل الذي تنتمي اليه . (٧٦)

(٧٥) راجع الحديث عن القوات المصرية في القسم الثاني من هذا الباب .

(٧٦) إبراهيم نصحي : نفسه ، صفحات ٢٣٦ - ٣٣٧

القوة العسكرية ، إذن ، كانت دعامة أساسية اعتمد عليها البطالة في إقامة ملكهم في مصر في وجه تحديات العصر الذي قفزت فيه القوة إلى المقدمة كفيصل في حسم العلاقات الدولية ، بل أكثر من ذلك في رسم حدود الدول ذاتها . وقد رأينا ذلك يدفع البطالة إلى الاستعانة ، في تكوين جيوشهم ، بكل العناصر التي توسعوا فيها مقدرة أو خبر في هذا المجال . ومن هنا فقد كان أمرا طبيعيا أن يفكر البطالة في وسيلة يضمنون بها استمرار الخدمة التي تقدمها هذه العناصر . وزاد من حرص البطالة على إيجاد هذه الوسيلة عاملان : أولهما أن القسم الأكبر من هذه العناصر كان من غير أبناء البلاد الأصليين سواء في ذلك المقدونيون الذين كان سواء لديهم ، على الأقل قبل أن يستقروا بشكل نهائي في مصر ، أن يخدموا في جيش بطليموس أو غيره من القادة المقدونيين الذين أصبحوا حكاما للدول المتأغرة (٧٧) ، أو المرتزة الذين كانت الجندية عندهم عملا يقومون به لحساب أية جهة ما داموا يحصلون على الأجر المناسب . أما العامل الثاني فهو أن البطالة لم يكونوا وحدهم في الميدان ، وإنما كان هناك أندادهم وخصومهم من حكام الدول المتأغرة الذين كانوا ، هم الآخرون ، يحتاجون إلى الخبرات والأعداد العسكرية ، ومن ثم فقد كان لابد أن يقوم نوع من التنافس على اجتذاب العناصر المحاربة .

وقد لجأ البطالة في سبيل تحقيق ذلك إلى طريقه تتفق وطبيعة إمكانيات

(٧٧) على سبيل المثال انضم إلى جيش بطليموس عدد من الجنود المقدونيين الذين كانوا يعملون في جيش برديكاس بعد أن قتل هذا الأخير عقب فشله في محاولته

لغزو مصر (٣٢١ ق.م) أنظر : Diod. : xviii, 19 sq., 33 sq.

المنطقة التي أصبحت مقرا لحكمهم . ومصر كانت بلدا زراعيا من الطراز الاول ، وهكذا اشتق البطالة وسيلتهم لإغراء هذه العناصر للمجيء إلى مصر والخدمة في القوات العسكرية لحكامها ، والإقامة بها إن أمكن ، من هذه الصفة . وكانت هذه الطريقة تتمثل في منح كل من يزيد من هؤلاء المحاربين قطعة أرض (kleros) يزرعها ويقوم بها لقاء استعداده الدائم للخدمة في جيش الملك (٧٨) .

والنظام الذي قامت على أساسه هذه المنح الزراعية للمحاربين لم يكن جديداً على مصر بأية حال . فقد عرفته البلاد منذ أيام الرعامسة في الدولة الحديثة ، وكانت هذه الأراضي الممنوحة للعسكريين تشكل القاعدة التي قامت عليها الارستقراطية العسكرية الليبية التي ظهر من بين صفوفها فراعنة الأسرة الثانية والعشرين (٧٩) . كذلك فإن هذا النظام كان يستند إلى النظرية الفرعونية ، التي اعتنقها وسار عليها البطالمة ، وهي أن الأرض وما عليها ملك للملك (٨٠) ، ومن ثم فقد كان بإمكانه أن يتصرف فيها عن طريق إعطاء هذه المنح من الأراضي الزراعية للمحاربين .

(٧٨) راجع عن نظام الإقطاعات :

J. Lesquier : op. cit., 162-254

Bouché-Leclercq : Histoire des Lagides, III, pp. 229-236

Claire Préaux : L'Economie Royales des Lagides,
p.p. 463-80

P. Jouguet : Trois Études sur l'Hellénisme, p. 71 (٧٩)

(٨٠) راجع النظرية في الباب الثاني من هذه الدراسات

وقد كان وضع هؤلاء المحاربين في الاراضى المقطعة لهم ، يتوقف ، من الناحية الرسمية عند حق الانتفاع الذى ينتهى بانتهاء حياة المستفع . ولكن البطالة دفعوا به من الناحية العملية ، إلى أبعد من ذلك فى سبيل إغراء العناصر المحاربة بالقدوم إلى مصر والاقامة فيها . ومن هنا فرغم أن الاقطاعات كانت تعود إلى الملك بعد وفاة المستفع ، وله (أى للملك) أن يعطى حق الانتفاع بها بعد ذلك لمن يريد ، إلا أن الاولوية فى انتقال هذا الحق كانت تعطى لاحد أبناء المستفع مادام صالحا للخدمة العسكرية وقد تطورت هذه الاولوية قد تطورت مع الزمن لتصبح حقاً مكتسباً ، بل لتصبح فى فترة من الفترات شيئاً قريباً جداً من فكرة التوريث (وهى ركن أساسى من أركان التملك) حتى بصرف النظر عن صلاحية الابن للخدمة العسكرية (٨١) .

أما عن مساحات هذه القطع من الاراضى فقد كانت تتراوح فيما بينها تراوفاً كبيراً من حالة إلى أخرى . ففي حالة المحاربين المصريين على

(٨١) مثال على هذا نجده فى بردية ليل P. Lille (٢١٨-٢١٧ ق.م.) وفيها نجد الموظف المختص بتسجيل الإقطاعات يذكر مقدونيا أعطى قطعة من الارض مساحتها ٣٠ أروره فى مقاطعة أرسينوى بحيث تكون الارض له ولذريته من بعده . . كذلك نجد فى ٢٠٢ ق.م قطعة أرض (من هذه الاقطاعات الممنوحة) وصفت بأنها أعطيت للأبد ، لاحد الاشخاص راجع : Sethe - Partsch : Demotische Urkunden zum Aegyptischen Burgschaftsrechte ، وثيقة رقم ٧ ، وص ٦٢٣ وما بعدها .

سبيل المثال كانت مساحة الأرض التي تمنح للمحارب الواحد في القرن الثالث ق.م. خمسة أرورات (الأثورة تساوي ٢٥١٨ مترا مربعا) بينما نجدها ترتفع إلى ثلاثين في حالة المحارب المقدوني وتصل إلى مائة في حالة مشاة الحرس من المقدونيين، وقد تصل إلى أكبر من ذلك في أحوال أخرى (٨٢). وحتى هنا فلم تكن هناك دائما حدود فاصلة بين مساحة القطع التي تمنح لمحارب العناصر المختلفة بحيث نستطيع أن نقول إن الدائرة التي تتأرجح بداخلها مساحة الاقطاعات التي كانت تمنح لعنصر كانت أضيق أو أوسع من تلك التي تتأرجح بداخلها مساحة الاقطاعات التي كانت تمنح لعنصر آخر. فبعد معركة رفح، على سبيل المثال، كانت لإقطاعات المحاربين الاغريق (الذين كانوا يطلق عليهم Katoikoi) أكبر من تلك التي منحت للمحاربين الماسريين (الذين كانوا ينفردون إذ ذاك بصفة machimoi)، ولكن الوضع لم يستمر كذلك وأصبح من بين أولئك وهؤلاء من يمنح لإقطاعات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف، بحيث فقدت التسميتان مدلولهما العنصري، فأصبحت التسمية الأولى لا تعني أكثر من أصحاب الاقطاعات الكبيرة، بينما أصبحت التسمية الثانية

(٨٢) عن الخمسة أرورات أنظر: نصحي، نفسه، ص ٣٤٦ وحاشية ٧،
عن الثلاثين أروره أنظر بردية ليل المشار إليها في الحاشية ٨١ من هذه
الدراسة، عن المائة أروره، وكانت تمنح لجنود الحرس الملكي أنظر
نصحي، نفسه ص ٣٣٦، عن الأكثر من مائة أروره أنظر P. Jouguet
نفسه، ص ٧١

تطلق على أصحاب الإقطاعات الصغيرة ، بصرف النظر عن انتماء أصحابها إلى هذا العنصر أو ذاك (٨٣).

٢ — العناصر الرئيسية في هذه القوة العسكرية

القوة العسكرية البطلمية كانت ، إذن ، متمشية في طابعها وتكوينها مع السمة الدولية التي ميزت العصر المتأغرق ، ومن ثم فهي لم تقتصر كما شهدنا ، على عنصر واحد ، وإنما تعددت فيها العناصر التي شملت إلى جانب أهل البلاد الأصليين ، جنودا يتحدرون من سلالات تمتد على جبهة واسعة في الشرق والغرب .

ورغم أن نسبة الجنود الذين كانوا ينتمون إلى كل هذه العناصر كانت تختلف من فترة إلى أخرى عبر حكم البطالمة ، إلا أن العناصر الرئيسية بينها حتى معركة رفع ، التي يمكن أن نعتبرها خاتمة لمرحلة النشاط العسكري الذي صاحب فترة المد الأولى في السياسة الخارجية البطلمية - أقول إن هذه العناصر الرئيسية كانت هي : العنصر المقدوني ، والعنصر اليوناني والعنصر المصري .

وفيما يخص العنصر المقدوني ، فقد كان الاعتماد عليه أمرا طبيعيا لسببين الأول هو أنهم من جنس البيت الحاكم ، وعلى هذا فقد كان يشكل الدائرة الضيقة المباشرة التي يأمن الملك البطلمي ، المقدوني الأصل ، إلى الاستناد إليها ، وهي الدائرة التي كان يأتي منها أفراد الحرس الملكي

(٨٣) Oertel : Kat o:koi, (Real Encyc der Altertumswissenschaft)

Tan and Griffith : Hell. Civ., p. 206

والتي رأيناها تشكل النواة الصلبة للفرق النظامية في الجيش في بداية عهد البطالمة ، قبل أن تضطرهم الظروف إلى استكمالها من عناصر أخرى . أما السبب الآخر فهو أن المحاربين المقدونيين كانوا يمثلون ، في نظر أفراد البيت الحاكم البطلمي ، كيانا سياسيا لا يتصورون قيام حكمهم بدونه فالنظام السياسي عند المقدونيين كان يقوم على أساس أن الجيش المقدوني هو القاعدة السياسية الشعبية التي تضمني الصفة الشرعية على سلطات الملك . وقد مررنا أثناء الحديث عن مؤتمر بابل الذي عقد غداة موت الاسكندر ، أن الجيش هو الذي حدد من يخلف الفاتح المقدوني على عرش الإمبراطورية . وسنرى في القسم الأخير من هذه الدراسات أن مجلس « المقدونيين » الذي كانت له هذه الصفة العسكرية كان لا يزال ، بعد انقضاء شطر كبير من حكم البطالمة يمارس مهمته هذه عند ارتقاء أحد أفراد البيت الحاكم للعرش ، وفي الواقع في أي مناسبة تتصل بالمسائل الأساسية المتصلة بالعرش .

على أن اعتماد البطالمة على المقدونيين كعنصر أساسي في قواتهم العسكرية لم يكن يعني استقدامهم لأعداد من هذا العنصر بصفة مستمرة من مقدونية . بل إن العكس ، في الواقع هو الصحيح . فإن بطليوس الأول أعتمد على من كان موجودا من هؤلاء الجنود في مصر فعلا حين أصبح واليا عليها واكتفى بهؤلاء ، كما اكتفى خلفاؤه بذريتهم . والسبب في ذلك أن استقدام أعداد جديدة من المقدونيين من موطنهم الأصلي لم يكن أمرا سهلا أو متاحا في كل الاوقات . فمصر لم تكن على علاقة ودية مع مقدونية بصفة دائمة في عهد البطالمة (٨٤) . وقد رأينا كيف حاول

برديكاس أن يغزو مصر في السنة التالية مباشرة لبداية حكم بطليموس لمصر ، ولم يمكن هذا بأية حال هو المحاولة الوحيدة لغزو مقدوني لمصر أو لاعتداء على نفوذها أو بمتلكاتها في عهد الاسرة البطلمية . وهكذا فإن اعتماد البطالمة على المحاربين المقدونيين كان يدور في حدود هذا الاعتبار ، ومن هنا فإن هؤلاء إذا كانوا قد استمروا محافظين على عددهم بشكل عام في القوات العسكرية البطلمية بين القرن الثالث والقرن الثاني ق.م . بفضل مقدرتهم على التأقلم مع البيئة المصرية ، فإن هذه الاعداد لم ترتفع بما يدل على أن هجرة المقدونيين إلى مصر في هذه الفترة لم يكن أمرا واردا .

* * *

وقد كان العنصر الثاني الذى يعمم البطالمة وجههم شطره في مجال تكوين قواتهم العسكرية هو العنصر اليونانى كما ذكرت : ولم يمكن هذا بالشيء الغريب فاليونان قد عرفوا احترام الجندي كمرتزقة منذ زمن بعيد . دفعتهم إلى ذلك عوامل طبيعية تتصل بجغرافية بلادهم وقسوة بيئتهم التى قترت عليهم إلى حد بعيد في موارد الرزق فحاولوا ان يعوضوا ذلك بأكثر من طريق ، وكان من بين هذه الطرق محاولة انتزاع لقمة العيش من بين برائن الموت في ساحة القتال . وهكذا لم تصبح الحرب عندهم فلسفة قومية تبلور دفاعهم عن وطنهم أو حضارتهم فحسب ، وانما اكتسبت إلى جانب ذلك معنى آخر ، فأصبحت فلسفة معيشية ، هدفها الحصول على قوت يومهم بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، فلم يعد لديهم مانع من أن يحاربوا في معارك الآخرين ، وأن يخدموا فى أى جيش وتحت أى لواء ، حتى ولو كان هذا اللواء لعدو بلادهم وحتى لو كان الذين يجاربونهم في هذه المعارك هم بنى جلدتهم .

ولم يكن هذا كل شيء ، فالليونان الذين دفعتهم طبيعة بلادهم الى احتراف الجندية كانوا قد وصلوا في هذا المجال الى قدر كبير من التخصص في القرن الرابع بالذات (وقد كان القرن الرابع في الحقيقة قرن تخصص هند اليونان في كافة جوانب نشاطهم المادى والادبى) . وكان لذلك عدة أسباب : منها أنهم قد اضافوا الى ما كان عندهم من فنون الحرب تلك التى نقلوها عن الفرس في أثناء حروبهم معهم منذ أوائل القرن الخامس ، ومنها أنهم في غضون القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع قد بدأت حروبهم تتخذ طابعاً يتسم بالاتساع والامتداد ، فشملت في بعض الاحيان هداً من الدويلات اليونانية تضم قسماً كبيراً من بلاد اليونان سواء في جنوب شبه جزيرة البلقان ، أو في جزر بحر إيجه أو في مهجرهم على السواحل الغربية لآسية الصغرى ، وامتدت في بعض الاحيان عقداً أو عدة عقود من الزمان كما حدث في أثناء الحروب الفارسية بين الفرس واليونان أو في الحروب البلوبونيزية بين أثينة واسبرطة وحلفائهما - وقد كانت هذه الحروب باتساع رقعة جبهاتها وامتداد الزمن الذى استغرقتة ومشاركها ، بمثابة المعمل الذى فضجت فيه تجارب اليونان العسكرية حتى وصلوا الى درجة التخصص الذى أشرت اليه (٨٥) .

(٨٥) بلغ من انتشار نظام الارتزاق بالجندية في بلاد اليونان في أواسط القرن الرابع ق. م . (قبل فتوح الاسكندر بنحو عقد ونصف من الزمان فقط) أن نجد ديموستينيس الخطيب الاثينى يذكر لنا في عام ٣٤٩ ق. م . أن « جنوداً مرتزقة فقط ، كانوا يحاربون معارك أثينيه كما نجده يوبخ المواطنين الاثينيين لأنهم لا يشتركون في حروب مدينتهم وإنما ينتظرون حتى تاتيهم الاخبار بأن الجنود المرتزقة الذين يقودهم فلان أو غيره قد أحرزوا نصراً لاثينيه » أنظر : Dem.: IV, 24; III, 35

ثم كان ظهور الاسكندر واتجاهه العسكرى الذى حاول عن طريقه أن يطيح بالامبراطورية الفارسية ونجح فى محاولته . فكانت السنوات الاحدى عشر التى قضاها فى تفويض أركان هذه الامبراطورية واقامة امبراطورية على انقاضها : وفى المعارك التى نشبت فى هذه السنوات كانت فرصة الجنود اليونان ، الذين كانوا يشكلون قسما أساسيا من قوات الاسكندر ، ليكتسبوا تجارب جديدة تحت ظروف جديدة خارج بلاد اليونان وفى المناطق الواقعة فى القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط بالذات - وهى المناطق التى ستقوم على أرضها الدول المتأخره .

لقد كانت كل هذه العوامل دون شك فى أذهان قادة الاسكندر الذين اقتسموا الامبراطورية بعد وفاته . وقد اختلط هؤلاء القواد بالجنود اليونان فى أثناء فتوح الاسكندر وزاملوهم فى المعركة وأدركوا ، عن كئيب ، القيمة العسكرية لهؤلاء الجنود الذين اعتمد عليهم الاسكندر الى جانب المقدونيين ، فى تحقيق انتصاراته المذهلة على جنود الامبراطورية الفارسية المترامية الاطراف الواسعة الموارد سواء فى الناحية العسكرية أو الاقتصادية .

حقيقة إن انتصارات الاسكندر ربما لم تكن ترجع فى كل جوانبها ، بعد عبقريته العسكرية ، إلى القيمة العسكرية لجنوده - ومن بينهم الجنود اليونانيون ، إذ لا شك أن ظروفًا أخرى قد ساعدته فى هذا المجال ، هى ظروف الامبراطورية الفارسية ذاتها ، التى كانت فى حالة تدهور سريع من ناحية مقوماتها الادارية والسياسية والعسكرية ، والتى كانت تشكو من ضعف شخصية الامبراطور الذى شامت الظروف أن يراجه العمليات

العسكرية للاسكندر (٨٦). ولكن قواد الاسكندر لم يكونوا يعرفون ذلك أو يهتمون به ، لقد كانوا قواداً عسكريين يدركون ما يروونه أمامهم - وقد كان الذى أمامهم فى ذلك الوقت هو أن الجنود اليونانيين كانوا يشكلون قسماً أساسياً من قوات الاسكندر ، هم الذين أعتمد عليهم القائد الكبير فى الاطاحة بالامبراطورية الفارسية وهزيمة جنود الامبراطور الفارسى . واعتقد أنه من قبيل التكرار المفيد أن أعيد هنا ، بغرض إيضاح هذه النقطة ، ما سبق أن أشرت اليه من أن هذا لم يكن بالشيء الذى لا يؤبه له ، فالامبراطور الفارسى كان يمثل العملاق الذى ألقى ظله الداكن على بلاد اليونان أكثر من قرن ونصف قرن منذ الشطر الأول من القرن الخامس ق.م. ، والذى كان يفرض وجوده ، بشكل غير مباشر ، على سياسة الدويلات اليونانية ، يدس أنفه فى دقائق أمورها دون أن يكون هناك ما يوحى بوجود من يستطيع الخلاص منه : وقد رأى هؤلاء القواد الآن الجنود اليونانية تحت قيادة الإسكندر وقد أذلوا هذا العملاق ثم أردوه وتخلصوا منه إلى غير رجعه . وهكذا كان طبيعياً أن يرسب فى أذهان قواد الاسكندر ، الذين أصبحوا بعد موته خلفاء له أن أية دعامة عسكرية راسخة يمكن أن تتجاهل أو تستغنى عن هؤلاء اليونان من الجنود المحترفين .

كان هذا هو موقف ملوك الدول المتأغرقة ، ومن بينهم البطالمة ، من اليونان . وقد كان موقف اليونان أنفسهم فى ذلك يمد لأن تلقى

اتجاهاتهم مع اتجاهات هؤلاء الملوك . فبلاد اليونان في العقود الأخيرة من القرن الرابع كانت قد دخلت في طور الانحسار الذي أودى بقيمتهم الحضارية في كافة مجالاتها ، كما مر بنا في مناسبة سابقة ، وهو الطور الذي ابتداء بظهور القوة المقدونية في الاتفاق السياسي في أراسط ذلك القرن واتخذ شكله المتبلور الملوس حين قضى فيليب - أبو الاسكندر ، على القوة العسكرية الاثينية الطبيعية المشتركة في موقعة خارونية في ٣٣٨ ق م ثم أعقب هذا النصر العسكري بسيطرة سياسية حين أقام في السنة نفسها الحلف الهليني الذي أخضع فيه عدداً كبيراً من المدن اليونانية لزعامته الاجبارية . وقد كان من الطبيعي أن يعقب هذا الانهيار العسكري والسياسي انهياراً في القيم التي كانت تشكل كيان حياتهم الجماعية بل والفردية فلم يعد اليوناني يشعر أن بيده ، كعضو في المجلس الشعبي مثلاً ، أن يصرف أمور مدينته الداخلية أو أن يوجه سياستها الخارجية ، كما لم يعد في إمكانه أن يمارس حريته الفكرية التي كانت تشكل جانباً أساسياً من حياته والتي كانت تظهر في أتم وضوح في كتابات الفلاسفة السياسيين وفي المسرحيات التي كانت تصور الحياة اليونانية وتفصل في جوانبها ونقد كل ما يعن لها أن تنقد في هذه الجوانب من المبادئ أو الشخصيات دون خوف ، حتى لو كانت هذه المبادئ تتعلق بالحرية ، وحتى لو كانت هذه الشخصيات تنتمي إلى دائرة أصحاب النفوذ .

ولإذا كان اليونان قد فقدوا ، بعد السيطرة المقدونية على بلادهم ، تلك القيم التي كانت تسود حياتهم من قبل في عصر ازدهار دولة المدينة والتي كانت تجعل لهذه الحياة المعنى أو الهدف الذي يربطهم ببلادهم إلى

حد كبير ، فإنه لم يبق أمامهم إلا الفرص المادية ، الاستقرار والرخاء المدينى ، يبحثون عنها حيثما وجدوها . ومن ثم بدأوا يتطلعون بشكل ظاهر إلى ما وراء بلاد اليونان للحصول على هذه الفرص ، يعاونهم فى ذلك اتجاههم السكمن نحو الهجرة ، الذى ميز تاريخهم فى أغلب مراحلها ، وهو الاتجاه الذى عرفنا أن أهم أسبابه هو عجز الموارد الطبيعية الاقتصادية عن أن تفى بضرورات الحياة اليومية لليونانيين . وهنا تكمن نقطة الالتقاء بين اتجاه هؤلاء اليونان واتجاه حكام الدول المتأغرقه ، ومن بينهم البطالمة - أولئك يبحثون عن فرص مادية معيشية وهؤلاء يوفرونها لهم ، لأنهم يحتاجون اليهم .

التقى اتجاه اليونان ، إذن ، مع أهداف البطالمة فى مجال الخدمة العسكرية . وقد كان هناك عدد كبير من هؤلاء الجنود اليونان فى القرنين الثالث والثانى ق.م. فقد كان هناك ، إلى جانب اليونان الذين كانوا ضمن الحامية التى وجدها بطليموس الأول فى مصر حين أصبح واليا عليها ، وإلى جانب الذين وفدوا من بلاد اليونان مع بداية العصر المتأغرق ، أولئك الذين كانوا موجودين فى مصر منذ الشطر الأخير من حكم الفراعنة وبخاصة منذ عهد الأسرة السادسة والعشرين التى أشرت فى مناسبة سابقة أن ملوكها شجعوا استخدام اليونانيين إلى البلاد والاعتماد عليهم كجنود مرتزقة .

ولمكنا نجد أن عدد هؤلاء الجنود يأخذ فى التناقص بعد ذلك ليحل محلهم الجنود المرتزقة من البلاد الآسيوية . وقد كانت هذه الظاهرة ترجع فيها يبدو ، إلى أكثر من سبب : من بينها الحروب المستمرة التى

شهدتها بلاد اليونان على مدى القرون الثلاث ، الرابع والثالث والثاني ق. م. وهى حروب كان لا بد أن تؤدى الى نقص فى عدد الرجال ، ومن بينها ضعف الروح الحربية تدريجيا بين الجنود اليونانيين الذين وجدوا فى مصر من فرص المعيشة ما أضعف لديهم حافز العمل كجنود مرتزقة فى سبيل الحصول على خبزهم اليومى. وهكذا نجد ، على سبيل المثال ، أن اليونان الذين كانوا يعملون فى الفرق النظامية البطلمية ، بينما كانوا يمثلون خمس أصحاب الاقطاعات العسكرية فى القرن الثالث ق. م. أصبحوا لا يمثلون فى القرن التالى الا ثلث هذه النسبة (٨٧) .

* * *

ثم أتى الى الحديث عن العنصر المصرى ووضعه فى القوات العسكرية البطلمية. لقد ظهر هؤلاء بأعداد كبيرة فى جيش بطليموس أثناء موقعة غزة (٣١٢ ق. م.) وإن كانوا يقومون بأعمال ثانوية أو مساعدة فى معركة ولا يقومون بالقتال الفعلى ، حسبما يذكر لنا المؤرخ ديودورس إلا عند الحاجة القصوى (٨٨) وليس غريباً أن يتجه البطالمة الى الاستعانة بالمصريين فى تكوين قواتهم العسكرية. منذ عهد بطليموس الاول ، حتى حين كان لا يزال والياً على مصر ، فإن التحفز للصراع العنيف الذى نشب بين خلفاء الاسكندر منذ لحظة وفاته كان لا بد أن يدفع بطليموس ، كما رأينا ، الى الاستفادة من أية امكانية عسكرية يستطيع أن يصل اليها ، وقد كانت بين المصريين طبقة المقاتلين أو المحاربين machimoi (حسب تسمية اليونان لهم) الذين رأيناهم ، منذ عهد الرعاية ، يمنحون اقطاعات يعيشون عليها نظير استعدادهم الدائم للخدمة فى القوات العسكرية .

(٨٧) نصحي: نفسه، ص ٣٣٧ وحاشية .

ولكن مع ذلك فإن ما ذكره ديودوروس من إسناد الأعمال الثانوية اليهم وعدم ادماجهم السكامل في صفوف القوات، المقاتلة فعلا يصور لنا اتجاهات لا تبدو غريبة على العقلية العملية التي ميزت مؤسس الدولة الجديدة في مصر. لقد كان بطليموس، رغم استعداداته للانتفاع بالمصريين، كقاتلين، عند الضرورة يشك في قدرتهم الحربية. لقد رأى هذا القائد المصريين يفتحون أبوابهم للاسكندر دون معركة، وما كان له أن يعرف شيئاً عن الانجازات العسكرية المصريين في فترات سابقة من تاريخهم، أو أن يدرك مدى سخط المصريين على الحكم الفارسي والذي أدى بهم إلى النظر إلى الاسكندر كحرر يرحبون به وليس كفاتح يقفون في وجهه. الشيء الوحيد الذي كان من الممكن لقائد عسكري مثل بطليموس أن يدركه هو أن المصريين سلبوا دون معركة في الوقت الذي وقف فيه غيرهم، مثل أهل صور، يتحدون الحصار فترة طويلة.

كذلك فإن هذا السياسي الواقعي الذي جعل أفراد حرسه المملوكي من بين أبناء جنسه من المقدونيين الذين كان يأمن إلى الاستئناس اليهم، كان يقدر أن المصريين، رغم استماعه لشكاواهم حين كان بسبيل التخلص من كليومينيس، لا يمكن أن ينظروا إليه إلا على أنه حاكم أجنبي، ولا يمكن أن يعتبروا حكمه، على المدى الطويل، إلا حكماً أجنبياً. ومن هنا كان استخدامه لهم في قواته المسلحة بعيداً عن الصفوف المقاتلة فعلاً، إلا إذا دعت إلى ذلك الضرورة القصوى - وقد شكل هذا دون شك اتجاهات تبعه فيه خلفاؤه في بداية الحكم البطلمي، على عهد بطليموس الثاني، فيلادلفوس Philadelphos، وبطليموس الثالث، يولرجيتيس Euergetes.

على أن وضع المصريين في القوات العسكرية البطلمية ما لبث أن تغير تغيرا جذريا في عهد بطليموس الرابع ، فيلوباتور Philopator ففي أثناء معركة رفح التي دارت بين هذا الملك وبين انتيوخوس السلوقي في ٢١٧ ق.م . نجده أن المصريين هم الذين يكونون قلب الجيش البطلمي - الأمر الذي أدى إلى أن يعتبر بوليبيوس النصر البطلمي في رفح نصرا مصرياً (٨٩) . ويتحدث هذا المؤرخ عن وضع الفرق المصرية في قلب الجيش وتسليمهم بالأسلحة المقدونية في عهد فيلوباتور على أنه حدث ضخم يشكل اتجاها غير عادي بالنسبة للأحوال السائدة في عصر البطالمة (٩٠) . والغريب فيه فعلا أن يعتمد فيلوباتور ، بعد ما رأينا من اتجاه أسلافه ، إلى الاعتماد على المصريين ليصبحوا هم القوة الضاربة الأساسية في الجيش . فالمقدونيون هم الذين كانوا يحتلون هذا المكان أساسا ، وإذا دعت الحاجة فقد كانت الفرق النظامية التي يتكون منها قلب الجيش تستكمل من عناصر أخرى أغلبها ، في عصر البطالمة الأوائل من الإغريق .

وربما نستطيع أن نرد عدم اعتماد فيلوباتور في معركة رفح على الإغريق في تكوين قلب الجيش إلى تناقص عدد هؤلاء واتجاههم إلى وسائل أخرى لكسب عيشهم كما أشرت في مناسبة قريبة . ولكن الأمر الذي يبدو غريبا هو عدم الاعتماد على المقدونيين ، وهم الذين كانوا يشكلون العصب الأساسي للفرق النظامية التي يتكون منها قلب الجيش وقد يكون مرد ذلك إلى بعض الظروف الداخلية التي كانت سائدة في عهد هذا الملك . فقد

Polyb .: v. 82,6 : 109, 2 sg,

(٨٩)

Ip.: Ibid., 107,2

(٩٠)

استطاع وزيره سوسيبوس أن يسيطر على تصرفاته إلى حد كبير بفرض الاستئثار بالسلطة لنفسه . وكان من بين ما قام به هذا الوزير هو أن أوغر صدر فيلوباتور ضد أخيه الذى كان يتمتع بمحبة خاصة بين الجنود وليس بمسئبعد تحت هذه الظروف أن يكون عدم ظهور المقدونيين في قلب الجيش في هذه المعركة يعكس إبعادا هؤلاء الجنود عن صلب القوة العسكرية سببه هو تخوف الملك من ولائهم لأخيه حسبا صور له رجل المؤمرات الذى يعمل وزيرا له (٩١) .

ولكن وضع المصريين الذى توصلوا إليه في معركة رفع لم يستمر . فقد كانت نتيجة الانتصار المصرى في هذه المعركة هو إعادة الثقة إلى نفوس المصريين ، الأمر الذى أدى إلى اتساع ثورتهم ضد البطالمة (٩٢) . وهكذا عدل هؤلاء عن استخدام الفرق المصرية لتكوين قلب الجيش . وإن لم يستبعدوهم نهائيا من القوات المحاربة ، فثل هذه الخطوة كان يمكن أن تبدو تحدياً للشعور القومى عند المصريين . كذلك فإن إرضاء المصريين كان قد بدأت تعتبر أمرا لازما كنوع من التوازن الداخلى بعد ظهور بعض التوتر في علاقة البطالمة اليونان المقيمين في مصر ، وتوتر وصل إلى درجة الانفجار أكثر من مرة كما حدث في عهد بطليموس الثامن وبطليموس الحادى عشر على سبيل المثال .

Polyb .: vx,25

(٩١)

عن شخصية فيلوباتور وتأثير سوسيبوس عليه راجع: Bell, Egypt etc., p.57, 140

كذلك Bevan; Eg. under the. Pt. Dynasty ، ص ٢٢٠٠ وما بعدها .

Bell, op. cit , p.58

(٩٢)

٣ — القوات العسكرية البطلمية بعد معركة رفح

كانت موقعة رفح هي الوقفة الصلبة الأخيرة في تاريخ البطالمة وبعدها كما سنرى أثناء الحديث عن السياسة الخارجية البطلمية ، جاءت مرحلة الجزر أو الانحسار في هذا المجال الخارجى ، وانعكس هذا على القوة العسكرية . وفيما يخص الجانب العسكرى بالذات فقد كان هناك أكثر من سبب لهذا الضعف الذى منيت به بعد الفورة الأخيرة في رفح (٢١٧ ق.م) ، بل حتى قبل هذه الفورة الأخيرة إذا أردنا التحديد .

وأول هذه الأسباب ، ولعله أهمها ، هو طبيعة الاتجاه الذى اتخذته دولة البطالمة فيما يتعلق بالدعامة العسكرية . لقد تارجح هذا الاتجاه بين الصفة القومية والصفة الدولية وأدى به ذلك بالضرورة ، إلى وضع لا يناسب هذه الصفة أو تلك ، وكان لهذا الوضع معنى واحد في النهاية - هو الضياع . فالبطالمة أرادوا أن يقيموا في مصر دولة قومية ولكنهم أرادوا أن يدعموها بقوة عسكرية ذات طابع دولى ، وحتى هذا الطابع لم يكن من النوع الذى يوحد بين أفراد أو فرق الجيش الواحد ، وإنما كان على عكس ذلك يفصل إلى حد كبير بينهم من حيث أن الرابطة التى كانت تربط كل عنصر من العناصر المكونة للجيش البطلمى كانت تختلف في توجيهها من حالة إلى حالة .

فالمقدونيون كانت الرابطة التى تربطهم بالدولة هي الملك الذى كانوا من جنسه ، بحيث نستطيع ، إذا نظرنا من وجهة نظر معينة ، أن نعتبرهم جميعاً ، سواء منهم من كان في الحرس الملكى أو من كان في الفرق النظامية ، جنود الملك الذين يرتبطون بشخصه قبل وفوق أى اعتبار آخر ، بما في

ذلك الاعتبار القومى ، فى مقابل امتيازات معينة تجسدت ، كما رأينا ، فى صورة أقطاعات أكبر من أقطاعات الجنود الذين كانوا ينتفعون الى عناصر أخرى . ومثل هذا الولاء الشخصى من الممكن أن يهتز اذا تعرضت العلاقة مع الملك لآى مؤثر خارجى ، أو اذا جد جديد فيما يخص شخص الملك . كأن يحدث نزاع على العرش بين أكثر من فرد من أفراد البيت الحاكم ، كما حدث فى أحوال كثيرة فى الأسرة المالكة البطلمية ، وهو أمر لا بد أن يودى ، اذا تكرر ، الى انقسام الولاء أو إضعافه .

والمرتزة من اليونانيين وغيرهم لا تربطهم بالدولة ، هم الآخرون ، رابطة قومية ، والرابطة الوحيدة التى يفهمونها هى رابطة الأجر الذى يحصلون عليه لقاء خدماتهم العسكرية . وإذا كان البطالمة قد حاولوا أن يشتروا بقاءهم تحت تصرفهم العسكرى أطول مدة ممكنة عن طريق منحهم أو منح بعض طوائف منهم ، إقطاعات زراعية تربطهم بمصر ، فإن هذا لم يغرس فيهم أية رابطة قومية نحو مصر ، وإنما رابطة انتفاع نحو الأراضى الزراعية التى حصلوا عليها . وبخاصة إذا طالت فترة السلام بحيث ينسى الجندى المرتزق جو الحرب . بل لقد وصل الأمر إلى حد أن نرى واحداً من هؤلاء الجنود يرفع التماسا للملك لإعفائه من الخدمة العسكرية لأنه يفضل عليها البقاء فى أرضه .

أما عن العنصر الثالث الاساسى ، وهو المصريون ، فقد كان العنصر الوحيد الذى نربطه بالدولة رابطة قومية . ولكننا رأينا كيف تصرف البطالمة لإزائه . فقد وكل اليه البطالمة الاوائل الاعمال الثانوية ، وحين وصلت الفرق المصرية إلى قلب الجيش فى عهد بطليموس الرابع لم تلبث ،

بعد أن حققت نصر رفح ، أن أبعدت عن هذا القسم الاساسى من الجيش . كذلك فان عدم المساواة الاجتماعية بين المصريين عموما (داخل الجيش وخارجه) وبين المقدونيين والإغريق من الجانب الآخر ، بحيث وجد المصريون أنفسهم فى درجة أقل من هذه العناصر الاجنبية ، لا بد أنه أثر تأثيرا سيئا على الرابطة التى كانت تقوم بين هؤلاء الجنود وبين الدولة البطلمية ، بل لقد وجه هؤلاء الجنود نشاطهم إلى مساندة الثورة على الدولة ، بدلا من مساندة الدولة ذاتها (٩٣) .

ولعل فى مقارنة الدولة البطلمية بالدولة الرومانية ما يلقى شيئا من الضوء على مدى هذا التناقض الذى أشرت إليه ، فى حالة البطالمة ، بين الصفة القومية للدولة والصفة الدواية لقواتها العسكرية . وفى الدولة الرومانية نجد أنه عند اتساع حدودها بدأت تستخدم جنودا من غير المواطنين الرومان ، ولكنها عالجت هذا الوضع بأن منحت حق المواطنة الرومانية لسكان شبه جزيرة إيطاليا الذين كانت تعتمد عليهم للحصول على ما يلزمها من جنود (وإن كان هذا لم يتم بطبيعة الحال إلا بعد شيء من التردد والتوتر بين الطرفين) ، وقد امتد هذا التقليد ليشمل فى فترة متأخرة سكان الولايات التى تكونت منها الامبراطورية الرومانية . وهكذا استطاعت رومة أن توفق بين وضعها كدولة وبين طابع قواتها المسلحة .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فقد كان لا بد أن يؤثر على اهتمام البطالمة بقواتهم العسكرية حتى تكاد تصل إلى درجة الإهمال ، ذلك النزاع المرير الذى

(٩٣) راجع نصحي : نفسه ، ص ٣٤٦ . حاشية ٣

نفش بين أفراد الأسرة المالكة حول ارتقاء العرش في الشطر الأخير من حكمهم ، وهو النزاع الذي كاد يسقط (أو هو أسقط فعلا) من حسابهم نهائيا ارتباطهم بالدولة كقيمة ، ليحل محله ارتباطهم بالعرش كركز - وهو الاستنتاج الوحيد الذي يمكن أن تتوصل إليه عندما نستعرض الصراع العنيف بين بطليموس السادس (فيلوميثور Philometor) وأخيه الصغير - وهو الصراع الذي تدخلت رومه في أحدها ، لسبب يخدم مصالحها في تسويته ، أو الصراع بين بطليموس السابع والثامن الذي أدى إلى نشوب حرب أهلية في الاسكندرية وإلى تدخل آخر من رومه ، أو ذلك الذي نشب بين بطليموس الحادى عشر وإبنته برينيمكى الرابعة التى اعتلت عرش مصر أثناء غياب أبيها فى رومه حين ذهب إلى هناك ليستجدى مساندتها لعرشه ضد شعبه الثائر عليه ثم ليعود بعدها إلى الاسكندرية حيث يقتل ابنته عقابا لها على انتهازها فرصة غيابه لترتقى العرش وليقتل معها كل من أيدها أو ناصروها (٩٤) .

(٩٤) راجع تفصيل هذا النزاع على العرش منذ بدايته فى :

محمد هواد حسين : الحرب السورية السادسة وبداية النزاع الأسرى فى مصر البطلمية ، (العدد الأول من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس) ، النزاع الأسرى فى مصر البطلمية من عام ١١٦ إلى عام ٨٠ ق. م (العدد الثانى من الحوليات المدكورة) ، نشأة المسألة المصرية فى السياسة الرومانية ٨٠ - ٥١ ق. م. (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول) ، ص ١٨ وما بعدها .

الباب السادس

الدعامة الاقتصادية

رأينا كيف شكلت القوة العسكرية إحدى الدعائم الأساسية في حكم البطالة في مصر ، وكيف استطاعت هذه الدعامة أن تثبت بناء الدولة الجديد أمام تحديات العصر المتأغرق طالما أعتنى البطالة بها ، وإن كانت قد وقعت في النهاية فريسة التناقضات الداخلية التي فرقت بين طبيعة تكوينها وبين نوع الدولة التي تخدمها بحيث أصبح الإثنان على طرفي نقيض . ولكن القوة العسكرية التي تمثل دعامة القوة ، لم تكن وحدها ، بالضرورة هي كل ما اعتمد عليه البطالة في إقامة ملكهم . فقد لجأ البطالة ، في هذا المجال ، إلى إقامة دعائم أخرى ، بعضها مادي وبعضها اجتماعي تتصل بمعالجة العلاقة بين الفئات أو الطبقات التي كان ينقسم إليها المقيمون في مصر في عهدهم ، والبعض الآخر مجالي هو تدعيم حكم هذه الأسرة من الناحية الأدبية . وليكن حديثنا الآن عن الدعامة المادية التي تدور حول اقتصاديات مصر تحت حكم البطالة . وهي دعامة سأحدث عنها من ثلاث زوايا . الأولى تخص الاحتياجات الاقتصادية التي جابهت البطالة في سبيل تدعيم حكمهم ، والثانية تبرز العناية التي بذلت البطالة لتغطية هذه الاحتياجات عن طريق تطوير الاقتصاد المصري بقصد الحصول على أكبر قدر ممكن من الموارد ، أما الزاوية الثالثة فتتعلقنا على التنظيم الدقيق الذي مكن للبطالة من السيطرة على اقتصاديات مصر بالشكل الذي جعل ناصيتها في قبضتهم بشكل يكاد يكون كاملا .

٩ - احتياجاب الدولة الحديثة

وقد وجد البطالة أنفسهم في مواجهة نفقات أقل ما توصف به أنها متعددة وكبيرة إن لم تكن فعلا نفقات باهظة في بعض الأحيان . وقد كان هذا طبيعيا إذا أدخلنا في اعتبارنا أنهم كانوا بسبيل تأسيس دولة جديدة ، وإذا تذكرنا ظروف العصر الملىء بالتحديات العنيفة في المجال الدولي الذي أسسوا فيه هذه الدولة . وأول هذه النفقات تلك التي كانت تتعلق بتجنيد عدد كبير من المرتزقة بصفة مستمرة لمواجهة سياسة التوسع أو الدفاع التي كان يفرضها على البطالة التناحر الدائم بين حكام العالم المتأغرق على نحو ما أسلفت ولم يكن ابتياع خدمات هؤلاء الجنود هو كل شيء ، وإنما كانت هناك نفقات أخرى في المجال العسكري فرضتها ظروف العصر ، من بينها على سبيل المثال استخدام الفيلة في الحرب . لقد وجد البطالة أنفسهم مضطرين إلى ذلك لمواجهة اعتماد غرماهم من السلوقيين على هذه القلاع المتحركة التي كانوا يستحضرونها من الهند . وقد كان البطالة يحضرون أفيلتهم من نواحي إثيوبية . وكان هذا يستدعي منهم بناء سفن خاصة لنقل هذه الحيوانات الضخمة وإقامة موانئ لشحنها والقيام بتدريبات واستعدادات متنوعة لصيدها (٩٦) .

(٩٥) عن ابتياع خدمات الجنود المرتزقة راجع على سبيل المثال :

J. Lesquier : op. cit', pp. 105-135 ; G.T. Griffith : The Mercenaries of the Hellenistic World, pp. 254-63

Strabo: xvi 769, xvii, 789, Did.: III, 36,3 (٩٦)

راجع في هذه النقطة : Claire Preaux : Econ. Royale, pp.

34-5. Bevan : A Hist. of Eg. under the Ptol. Dynasty, p.338, Rostovtzeff , Zur Gesch. des Ost-und Südhandels =

كذلك كانت أمامهم النفقات الواسعة التي يفرضها إنشاء أسطول كبير في وجه التنافس الكبير الذي مارسه في مجال التسليح البحري حكام العالم المتأغرق وبخاصة في فترة تأسيس دولهم ، وقد كان إنشاء أسطول قوى أمرا حيويا لا يمكن أن يتفاداه أو يغفله البطالة سواء لحماية ممتلكاتهم في الخارج أو لتأمين اسكندرية ، عاصمتهم وثغرتهم الأولى ، أو لضمان سلامة تجارتهم الخارجية ، وحسبما يذكر لنا أثيناؤس ، فقد فاق البطالة كل أقرانهم ومنافسيهم في مجال التسليح البحري (٩٧) .

ولم جانب الجيش والأسطول فقد كانت هناك النفقات الباهظة التي كان البطالة يضطرون للقيام بها لكسب حلفاء لهم في المجال الدولي حتى يوازنوا الجهود التي كان يبذلها منافسهم من ملوك العالم المتأغرق في هذا المضمار . ويذكر لنا بوليبيوس ، فيما يخص هذا الاتجاه ، المساعدات التي تبارى هؤلاء الملوك في تقديمها لأهل جزيرة رودس حين تعرضت هذه الجزيرة لحزة أرضية في ٢٢٧ أو ٢٢٦ ق.م . ، وقد قدم بطليموس يولرجيتيس ثمنًا لاجتذاب ولاء الرودسيين في هذه المناسبة ما قيمته ١٣٠٠ ألفًا من الفضة ، عدا مليون أردب من القمح ومواد أخرى وعملال يسهمون في مساعدتهم في محنتهم على حسابه الخاص . كذلك كانت هناك المساعدات الأخرى التي قدمها بطليموس يولرجيتيس لكليومينيس Kleomenes ملك سبرطة والهدايا التي قدمها بطليموس لبيفانيس للسفراء

im ptolemaisch-röm ischen Aegypten. Die Organisation =
der Elephantenjagd Archiv für Papyrusforschung, 4,
pp. 301 - 4

Athen. v ,203 d.

(٩٧)

الآخيين في ١٨٥ ق م ، والسفن المحملة بالقمح التي أرسلها البطالمة الأوائل للمدن الإغريقية في مجال التسابق مع ملوك العالم المتأغرق لخطب ود هذه المدن (٩٨) .

كذلك كانت هناك الأعمال العامة التي كانت نفقاتها مرتفعة بشكل خاص في بلد كمصر لا يمكن أن تعتمد في زراعتها على الأمطار ، كما هو الحال في مناطق أخرى ، وإنما تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على النيل ، ومن ثم فالسيل الوحيدة للانتفاع بمياه النهر على أبعد مدى يمكن لا يتأتى إلا بشق الترع والعناية بصفافها وبنقطة ابتدائها من النهر وبإقامة جسور للانتقال عبرها وبمد الطرق بحيث توازيها وتوصل إليها وهكذا . وإلى جانب هذا فهناك استصلاح الأراضي البور وتسوية الأراضي التي تقع على ارتفاع أعلى من مستوى مياه النهر ، وتعليق الأراضي المنخفضة . وحقيقة إن قسما من هذه الأعمال كان يتم عن طريق السخرة وقسما آخره في مجال استصلاح الأراضي بالذات ، كان يقع على كاهل الذين يتلقون إقطاعات كبيرة على هيئة منح من الملك ، إذ كان عليهم أن يستصلحوا

(٩٨) عن مساعدة الرومانيين ، Polyb : v, 39 ، راجع فيما يخص التاريخ

Hiller von gaertringen : Rhodos R.E. راجع فيما يخص تحديد

قيمة المنحة بالعملة الفضية Reinach, Rev. des Et. Grecques,

1928 p. 163 عن مساعدة كليومينيس ، Kleomenes, 32 , plut. : عن

هدايا الآخيين راجع 1, 394 Bouché-leclercq: Hist. des lagides,

وعن ارسال الحبوب للمدن الإغريقية راجع :

Heichelheim : Sitos, R. E

منها ما يحتاج إلى استصلاح ، ولكن ما عدا ذلك من تكاليف ، وقد كانت تمثل أغلبية الأعمال العامة ، كان على الدولة أن تقوم به ، بمثابة في الملك وجهازه الإداري (٩٩) .

ولم يكن هذا كل شيء فقد كان هناك العدد الكبير من الفنين والإداريين الذي استقدمهم البطالمة من بلاد اليونان . وقد كان هؤلاء يشكلون زيادة على عدد سكان البلاد ، وبالتالي حملا على اقتصادياتها ، وبخاصة إذا أدخلنا في اعتبارنا أنهم لم يكونوا يقومون بأعمال إنتاجية وإنما بأعمال تنظيمية وأنهم كانوا يتقاضون أجورا وأن هذه الأجور كانت بالضرورة مرتفعة حتى تغريهم بالقدوم إلى مصر أمام التنافس الشديد بين ملوك المناطق المتناغرة على الاتقاع بخدماهم .

كذلك كانت هناك النفقات المتصلة بشعائر العبادات والعقائد المختلفة . وفي هذا المجال نجد إلى جانب العقائد المصرية عقائد أخرى جديدة من بينها عقائد يونانية ، وعقيدة الاسكندر والعقائد المتصلة بعبادة ملوك البطالمة وعقيدة سرايس . وقد كانت الشعائر المتصلة بهذه العبادات ، سواء ما يتصل منها بإقامه التماثيل أو بإقامة الطقوس والاحتفالات الدينية أو بتكاليف رجال الدين أنفسهم سواء اتخذت هذه التكاليف شكل أجور أو منح أو امتيازات عينية كانت كلها تحتاج إلى نفقات دائمة وفي بعض

الأحيان كانت باهظة (١٠٠) . وإذا كنا لا نستطيع أن نحدد في كل الحالات الجهة التي كانت تتحمل هذه النفقات ، وهل هي خزنة الملك أم غيرها (١٠١) ، فإن هذا في حد ذاته لا يغير من الواقع شيئا وهو أن كانت هناك نفقات وكان لا بد من العمل على توفيرها .

ولكن لعل أكثر ما يسترعى النظر فيما يخص جوانب الانفاق التي واجهها البطالمة هو ما يمكن أن نسميه ميزانية القصر ، وهي التي كانت تشمل نفقات الأسرة الملكية والحاشية وكل ما يتعلق بالمظهر الملكي . لقد عاش البطالمة في عصر تنافس دولي رهيب كما مر بنا في أكثر من مناسبة : وقد كانت الثروة أحد هذه الأسلحة وعنصرا من عناصر القوة ، وكان البذخ هو . ظهر هذه الثروة . لقد كان البطالمة ، كملوك متأغرقين وخلفاء للفراعنة يعاصرون ملوك برغامة وطغاة سيراكيوز والأرستقراطية التجارية التي كانت تحكم قرطاجة . وكان هؤلاء جميعا من بين أغنى رجال العالم الذي يحتكون به أو يعيشون على مقربة منه ، ومن ثم فقد كان أحد الخطوط الرئيسية في سياستهم الدولية ألا يقلوا عن هؤلاء ، وقد نجحوا فعلا في أن تكون واجهتهم أكثر بذخا من هؤلاء .

(١٠٠) كانت التكاليف التي أنفقها أو أمر بإنفاقها بطليموس فيلادلفوس على الاجراءات المتصلة بتأليه أرسينوى Arsinoe هي سدس محصول الكروم في كل القطر راجع بردية: Reuenuue Laws of Ptolemy Philadelphus

(col. 36, ll. 3-11 (إعداد Mahaffy , Grenfell

C. Preaux : op. cit., p. 53

(١٠١)

وهكذا أصبح بفتح البلاط البطلمى مضرب الأمثال فعلا ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى الاندهاش ، الذى يقترب كثيرا من الانهيار الذى يطل من بين كلمات كالكسينيس الرودى وهو يصف مظاهر العظمة التى كانت تشع في احتفالات البطوليايه في عهد بطليموس الثانى (فيلادلفوس) والى يصفها بقدر كبير من التحديد والتفصيل سواء فيما يتعلق باستعراضات الجنود أو بالمواكب التى كان تسير فيها العبيد وتعرض فيها كلاب الصيد والحيوانات المطهمة بالآلاف ، أو بالاشياء الأخرى النفيسة التى كانت تظهر في هذه الأعياد بصورة أو بأخرى (١٠٢) .

كذلك فإن البلاط الملكى في عهد البطالمة مؤثلا للاجئين السياسيين من الشخصيات الكبيرة في العالم المتأغرق ، وكان يعج بالموظفين والخدم والعبيد . كما كانت القصور الملكية مظهرا من مظاهر البذخ الشديد بعمارتها وبما فيها من بساتين تزرع فيها النباتات النادرة وتربى فيها الحيوانات الغريبة التى يحصلون عليها سواء من الصيد في المناطق البعيدة عن مصر أو كهدايا من حلفائهم . هذا بطبيعة الحال خلاف ما كانوا ينفقونه على المشروعات العلمية التى تبنيوها في جامعة الإسكندرية وعلى شراء الكتب (لفائف البردى) التى كانوا لا يألون جهدا في توفيرها والحصول عليها للكتبة الملكية التى كانت ملحقة بهذه الجامعة (١٠٣) وغنى

(١٠٢) Athen. : v , 196-203

(١٠٣) Ibid., Strabo, xvll, 774, Diod. : lll, 36 راجع كذلك

w. w. Tarn : Ptolemy ll Journal af Eg. Archeology , 14

p. 247, muller-Gaupa : Museion, R.E., Preaux op.cit. 57-60

عن الذكر أن كل هذه المظاهر ، التي كان البطالة يرون فيها واجبة لما لديهم من ثروة ، كانت تحتاج ، شأنها في ذلك شأن بقية الجوانب ، إلى قدر كبير من التكاليف .

٢ - تطوير الاقتصاد المصري

إزاء هذه المصروفات ، وقد كانت ، كما هو واضح ، متعددة وفي بعض الأحيان باهظة ، اتجه البطالة . وقد كانت الطريقة الأولى التي اتبعوها لمواجهة كل هذه المصروفات هي تطوير الاقتصاد المصري ، سواء من حيث رقمته بقصد الحصول على أكبر قدر من الموارد أو من حيث تيسير التعامل في نتاج هذه الموارد وفي هذا المجال نجد البطالة يبذلون جهدا كبيرا لزيادة مساحة الأرض الصالحة للزراعة وينجحون في ذلك إلى حد كبير ، ودليلا على ذلك من جهة مجموعة البرديات التي تتعلق بأقليم الفيوم في عهد بطليموس الثاني وهذه البرديات تتضمن سجلات كليون Kleon الذي كان مديرا لمشاريع استصلاح الأراضي في عهد بطليموس الثاني (فيلادلفوس) ، ومن جهة أخرى السجلات الواردة في برديات زينون Zenon الذي كان يدير ضيعة ابولونيوس ، القائم على إدارة الشؤون المالية في عهد هذا الملك نفسه . كما يدلنا على نفس الاتجاه موقف الملك من المقربين اليه من ذوي الشخصيات الكبيرة الذين كان يهبهم أقطاعات كبيرة من الأراضي فقد كان الشرط الذي يفرضه الملك مقابل هذه الهبات هو استصلاح مساحات مترامية من الصحراء - وهو أمر كان هؤلاء الأشخاص ، بما لهم من ثروة ، قادرين على القيام به ، وهكذا تزيد المساحة المزروعة من الأراضي بينما تتخفف الدولة من عبء التكاليف اللازمة

لهذه الزيادة (١٠٤) .

كذلك أدخل البطالة الأساليب العلمية في ميدان الزراعة بشكل جعل في الامكان الحصول على أكثر من محصول ، في بعض الحالات ثلاثة محاصيل ، في العام الواحد . بل لقد وصل تفضل الاتجاه العلمى في الزراعة لدرجة خلقت قدرا كبيرا من التخصص في هذا المجال ، ونحن نلح صدق هذا الوعى في ملاحظة تضمنها تقرير من بعض الفلاحين في تلك الفترة يشكون فيها من النتائج السيئة المتعلقة بالعمل في احدى المزارع الكبيرة ويعزون ذلك إلى عدم وجود اخصائيين ويهيبون بمن قدموا اليه التقارير يدعو بعضهم لىستمع إلى ماسيقولونه في تلك المسألة - وهو كلام لا يمكن أن يصدر الا من أشخاص عرّفوا قدرا لا بأس به من التخصص ، بل وأصبح هذا التخصص لشكل اتجاها أساسيا في عملهم (١٠٥) .

ففي مجال زراعة الكروم وأشجار الفواكه ، على سبيل المثال ، نجد أكثر من شاهد يشير إلى هذا الاتجاه ففي الاراضى التى كان يشتمل عليها لإقطاع أبولونيوس ، وزير مالية بطليموس الثانى (فيلادلفوس) تحدثنا البرديات عن زراعة عدد كبير من أشجار الكروم . كذلك فإن سلسلة من الخطابات العاجلة المؤرخة بشهرى ديسمبر ويناير (فترة الاستعداد لموسم نقل النباتات) من أعوام ٢٥٧ إلى ٢٥٥ ق. م. تشير إلى أن آلافا من الفسائل (الشتل) والنباتات الصغيرة من أشجار الزيتون والتين والنخيل

Bell : op. cit., P. 46 Rostov tzeff A Large Estate in (١٠٤)
Egypt in the 11thrd. Céntury , Jouguet. op. cit., p. 72

Bell . op. cit., p. 46 & n. 19.

(١٠٥)

والتفاح والكثيرى واللوز والرمان كانت تؤخذ من منطقة منف وحتى من حدائق الملك لكى يعاد غرسها فى فيلادلفيه (الفيوم) . ومثل آخر نجده فى قائمة مرسلة إلى زينون ، الذى كان يدير ضيعة أبولونيوس تفييه لإرسال عشرة آلاف شجرة مستنبطة من الكروم وخمسائة من الرمان - خلاف عدد من فسائل أشجار الفواكه الأخرى عدده ألف وسبعمائة ، كما نسمع عن شكوى موجهة إلى رئيس الشرطة فى فيلادلفية تخص سرقة ٣٠ ألف من عيدان الخيزران التى كانت تستخدم لتدعيم شجيرات الكروم فى مزرعة الكروم التى كان يمتلكها زينون وصديقه سوستراتوس (١٠٦) .

وليس هذا آخر الأمثلة التى تشير إلى العناية الفائقة فى مجال زراعة الكروم والفواكه فغيرها كثير ، ومن بينها قائمة النباتات التى أرسلها أبولونيوس إلى بساتين ليسيباخوس (الذى يرى بعض الباحثين أنه كان ابناً للملك) - وهى مثال واضح على تعدد الأنواع التى كان يشتمل عليها الصنف الواحد من الفواكه ، فنجد فى هذه القائمة : فسائل من تين خيوس ، والتين البرى ، وتين ليديه ، والتين الحلو والأحمر والذى يؤتى ثماره فى فصل متأخر ، والرمان النباتى (الذى لا يحتوى على بذر) ، والمشمش الذى يؤتى محصولين ، والكروم ذات العنب الداكن (الذى ينتمى أصلاً إلى قبليقيه ومناطق أخرى) والأخضر والفاصح اللون والبنفسجى اللون ، والسكندرى والعنب ذى البذور الكبيرة ... والحامد المذاق (١٠٧) .

(١٠٦) راجع أرقام هذه البرديات فى Præaux. op. cit ص ١٧٠ وحواشى ٢-٨

P. Cairo - Zenon. 59033

(١٠٧)

وما يقال على أشجار الكروم والفواكه يقال على غيرها من المحاصيل مثل القمح الذى أدخل البطلمة أنواعا منه أجود من تلك التى كانت زراعتها سائدة قبل مجيئهم ، ومثل عدد غير قليل من أصناف التوابل والخضروات والزهور ، ومثل الأشجار وبخاصة الأنواع التى تستخدم أساسا للحصول على الخشب وقد كان الاتجاه إلى زراعتها أمرا يهم البطلمة بوجه خاص حتى يصبح لديهم مورد محلى للاخشاب التى يحتاجون اليها فى صناعة المراكب اللازمة لاسطولهم البحرى التجارى والحربى بعد أن وجدوا أن أغلب أشجار مصر لا تصلح كمصدر للاخشاب ، مثل النخيل الذى يتكون أساسا من الألياف ، والتوت الذى لا تكون أشجاره مستقيمة فى أغلب الأحوال (١٠٨) .

هذا ، والشئ ذاته ينطبق على موقف البطلمة فيما يتعلق بالثروة الحيوانية ، فقد عملوا على استيراد سلالات جديدة من الحيوانات ، وبخاصة الأغنام التى تمتاز بصوف أجود من صوف تلك التى كانت موجودة حتى عهدهم . ومن بين الأنواع الجديدة التى لم يألفها المصريون كثيرا قبل ذلك العهد كانت الجمال التى ربا استخدمت فى مصر لأول مرة بشكل عملى وعلى نطاق واسع فى عهد البطلمة . كما أصبح لتربية الخنازير أهمية كبيرة إذ ذاك للمرة الأولى فى تاريخ مصر بعد أن استوطن فيها هذا العدد الكبير من اليونان كما أشرت فى مناسبات سابقة ، إذ أن المصريين

(١٠٨) راجع P.Cairo - Zenon 5957 وفيها نجد أبولونيوس يخص زينون ، مدير ضيعته ، على زراعة عدد كبير من أشجار الخور ، وينبئ به إلى أنها إلى جانب مظهرها الجميل « فيها مصلحة الملك » .

كانوا يعتبرون الخنزير حيوانا قدرا لا يجوز لهم أن يأكلوا لحمه ومن ثم لم يهتموا بتربيته قبل عهد البطالمة . هذا إلى جانب اهتمام الحكام الجدد بمشاريع جديدة في هذا المجال من بينها تربية النحل على مستوى اقتصادى جدى (١٠٩) .

ولم يقتصر البطالمة على تنمية مواردهم في هذه الناحية بل عمدوا كذلك الى استغلال موقع مصر التجارى الى أقصى حد ممكن . وسنلخص عند الحديث عن الاسكندرية ، عاصمة البطالمة ، مدى نشاط التجارة التى كانت تمر بهذه المدينة والتى جعلت منها بحق الثغر الاساسى فى القسم الشرقى للبحر المتوسط . ولكنى سأجتزئ هنا بإشارة الى أن البطالمة ، الى جانب ما كانوا يصدرونه من مصر الى العالم الخارجى وما كانوا يستوردونه من الخارج للاستهلاك المحلى ، نجحوا فى أن يحصلوا على مورد اقتصادى هام من استغلال موقع مصر الممتاز كمر تجارى بين الشرق والغرب ، وهكذا كانت تمر بها السلع الآتية من الصومال وشرق أفريقيا وبلاد العرب والهند ، والتى كان من بينها الذهب والكلأ والاحجار الكريمة وبعض الانواع النادرة من الخشب والعاج والتوابل والقطن والحبر . كل هذه كانت تنقل بطريق البر بعد وصولها الى موانئ البحر الاحمر و عبر الطرق الصحراوية الى قفط ثم الى النيل ثم بعد ذلك الى البحر المتوسط .

ولم يقتصر البطالمة فى مجال الاقتصاد المصرى على توسيع رقعته بقصد الحصول على أكبر قدر ممكن ، بل تعدوا ذلك كما ذكرت فى بداية

الحديث ، إلى تيسير التعامل في تناج هذه الموارد . فادخلوا التعامل النقدي على نطاق واسع بدلا من التبادل النوعي أو العيني . حقيقة إن التعامل النقدي كان قد بدأ يتسرب إلى مصر في أواخر عهد الحكم الفارسي قبل فتح الاسكندر ، ولكنه كان تسربا ضئيلا لم يرق إلى أى مستوى جدى من الناحية الاقتصادية . كذلك لم يحل التعامل النقدي في عهد البطالمة بصفة نهائية محل التبادل العيني وإنما ظل هذا الأخير سائدا ومعترفا به . ولكن لا شك أن إدخال العملة النقدية بشكل جدى في المعاملات التجارية كان لها أثر فعال في تيسير هذه المعاملات ، كما أدى إلى نفس النتيجة إقامة نظام مفصل متطور للتعامل عن طريق البنوك كوسيط بين تاجر وتاجر أو بين الأفراد والحكومة (١١٠) .

٣ - سيطرة البطالمة على الاقتصاد المصري

ولنتقل الآن إلى الجانب الآخر من الدعامات الاقتصادية التي أقام عليها البطالمة حكمهم - وهو الجانب الذي يتعلق بسيطرة هؤلاء الحكام على الموارد الاقتصادية بمصر ، التي رأيناهم يطورونها وينمونها إلى حد بعيد

(١١٠) عن العملة النقدية في عصر البطالمة راجع : W. Giesecke : Das

Ptolemaergeld; J. G. Milne: Ptolemaic Coinage in Egypt

Journal of Eg. Arch. XV; صفحات ١٥٠-١٥٣ عن البنوك راجع :

Preaux . op. cit., 280-97, Bell. op. cit., 48; H. Desvernois,

Banques et Banquiers dans l' Eg. Ancienne , sous les

Ptol. et la domination romaine, Bull. de la Soc. royale

Arch. d. Alex., XXIII , pp. 303 - 48

وسيكون الكلام في هذا المجال هل نظام الاراضى وعلى نظام الاحتكار
الحكومى أو الماسكى (والوصفان كان لهما مفهوم واحد) فى ناحيتى
الصناعة والتجارة .

ففيما يتعلق بنظام الاراضى نجد أن الملك البطلمى اعتبر نفسه مالكا
فعليا لكل أرض مصر ويمكننا أن نميز ثلاثة اعتبارات انبثق عنها الحق
الذى أعطاه البطالمة لانفسهم فى ملكية الارض . والاعتبار الاول يدور
حول ألوهية الملك . فقد آله البطالمة انفسهم وأصبحوا بذلك ورثة رع
أول الآلهة وأبناء حورس آخر الآلهة . ومن هنا فإن أرض مصر أصبحت
هبة من الإله حورس لذلك البطلمى وبالتالي أصبح له حق التصرف المطلق
فيها . والفكرة فى حد ذاتها ليست من ابتداع البطالمة ، وإنما هى امتداد
لنظرية الفرعونية القديمة التى كان هذا الحق يظهر فيها بشكل واضح بين
حقوق الفرعون ، الملك الإله . وقد اعتبر البطالمة انفسهم فراعنة لمصر ،
كخلفاء للإسكندر الذى كان بدوره خليفة للفراعنة كما سنرى فى مناسبة
قادمة (١١١) .

والإعتبار الثانى يدور حول فكرة الملكية الخاصة التى كانت قد
بدأت تنمو فى مصر ابتداء من العصر الصاوى ثم فى عهد السيادة الفارسية
على مصر حتى تبلورت واكتملت أركانها قبل بداية عهد البطالمة . لقد

(١١١) راجع الباب التالى من هذه الدراسة راجع كذلك :

Preaux : op. cit., 461 , 559 , Jouguet . op cit., 66

A. Moret, Le Caractère religieux : عن النظرية الفرعونية راجع

de la Royauté Pharaonique, 9-17

كانت الملكية الخاصة في مصر القديمة ضائعة إلى حد كبير في ثنايا الملكية
الاقطاعية ، وبالتالي فإن حدودها لم تكن واضحة . ولكن ذلك الوضع
لم يستمر ، فابتداء من القرن السادس ق.م . نجد عددا غير قليل من
عقود الملكية الخاصة التي يتحدد فيها حق المالك بصفة مطلقة ، كما تظهر
فيها إجراءات التسجيل التي تثبت هذه الملكية (١١٢) . وقد انتفع
البطالة انتفاعا كبيرا بهذا المفهوم المحدد للملكية الخاصة بعد أن حوله
لمصالحتهم ، فلم تعد أرض مصر تحت تصرفهم أو خاضعة لسيطرتهم بوجه
عام عامض ، وإنما أصبحت ملكا خاصا لهم في ضوء هذا المفهوم المحدد
للملكية الخاصة . وهذا في الواقع هو ما يظهر بوضوح من النقوش
المقدسة الموجودة على جدران ممبد لإدفو والتي تشير إلى الملك البطلمي
يولرجيتيس الثاني سيد على كل أراضي حورس ، فإن هذه ، السيادة ،
لا يلبث النقش أن يحددها حين يذكر أن مصر هبة من الإله حورس

(١١٢) راجع على سبيل المثال عقدا ينتمى إلى ٥٠٢ - ٥٠١ ق.م. في :

W. Spiegelberg : Die demotischen papyri Loeb
رقم ٦٨ وهو يخص انتقال ملكية أرورة واحدة من الاراضى المقدسة
إلى أحد الاشخاص ومن بين ما جاء فيه ، إن هذا الحقل سيصبح ملكا
لك . وليس لاحد من البشر في العالم أية سلطة عليه ، إلا أنت

F. L. Griffith : Catalogue of the Demotic papyri in the Rylands Library , III
عن التطور القانوني والاجتماعي الذي انتهى بهذا الوضع راجع :

J. Pirenne : Les Trois cycles de l. hist. juridique et
Sociale de l' ancienne Egypte Et. d' hist. dédiées à la
memoire de Henri Pirenne pp. 229 sq.

إلى ابنه الملك ، وأن هذه الهبة قد تم تسجيلها على يد تحوت (١١٣) .
وهو وصف يحدد بشكل واضح الصفة الشخصية للملكية الملك
لأرض مصر .

أما الإعتبار الثالث الذى كان ينبثق منه حق ملكية البطالمة لأرض
مصر ، فهو حق الفتح . لقد أعتبر البطالمة أن مصر آلت إليهم عن طريق
هذا الحق . حقيقة إن بطليموس الاول أصبح حاكما على مصر بقرار
من مؤتمر المجلس المقدونى العسكرى الذى عقد فى بابل ، تمشيا مع النظام
المقدونى ، غداة موت الاسكندر ، وأن حكمه لها كانت له صفة الولاية من
قبل البيت الإمبراطورى المقدونى . ولكن بطليموس كان يهدف الى أكثر
من مجرد الحكم عن طريق الولاية كما رأينا ، ومن ثم فحين حاول
برديكاس أن يخضعه لسيطرته عن طريق مهاجمة مصر عند بلوزيون
تصدى له بطليموس وأنتهر عليه . وقد أعتبر بطليموس هذا الدفاع
المسلح والنهر الذى ترتب عليه بمثابة فتح من جانبه لمصر (١١٤) . وكان
من الطبيعى بعد ذلك أن يعتبر نفسه مالكا لأرض مصر على أساس من
هذا الحق .

* * *

واعتمادا على هذا الحق نجد أن البطالمة قسموا الأرض إلى قسمين
أو نوعين : أراضى لحسابهم الخاص ، وأراضى يمنحونها لبعض الاشخاص
افرض أو لآخر . وفى كلا النوعين تلمس سيطرة الملك التى تجعل منه

Bouché-Leclercq : op. cit., III , 180

(١١٣)

Diod. : xviii , 39,43

(١١٤)

المُتصرف الحقيقي في كل ما يتعلق بإدارتها وتوجيهها (١١٥) . فالأراضي الملكية، ومن المرجح أنها كانت تشمل نسبة كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة ربما زادت على نصفها ، كانت مقسمة إلى قطع صغيرة تؤجر للفلاحين الذين كانوا عادة من المصريين . وقد كان لهؤلاء الفلاحين بعض حقوق التجمع التي كانت تمكنهم من تكوين ما يقرب من الهيئات المنظمة أو النقابات . ولكن هذه التنظيمات كانت دائما خاضعة لإشراف الموظفين الملكيين ، كما كانت هناك ظروف وشروط تجعل الفلاح خاضعا لسيطرة الدولة (أو الملك ، فقد كان الملك هو الدولة في الواقع) بصفه نهائية ومن بين هذه الشروط أن الفلاح كان يؤجر الأرض التي يزرعها لمدة لا يعرف حدودها الزمنية ، وأنه كان لا يستطيع ترك هذه الأرض إذا اراد ، وأن الدولة كانت تستطيع أن تطرده منها إذا ارادت أو إذا عن لها أن بإمكانها الحصول على كسب أكبر إذا أجرتها لشخص آخر .

أما عن القسم الآخر من الأراضي ، وهو الأراضي الممنوحة ، فقد كان من بينها الاقطاعات الصغيرة التي كانت تمنح للمستوطنين اليونان

(١١٥) C.Preaux: op. cit pp. 459-518 . وتعتبر هذه الدراسات من

خير ما ظهر في هذا الموضوع حتى الآن . راجع كذلك :

Rostovtzeff : Soc. and Econ. Hist. of, the Hellenistic World, 267 sq.; Jouguet: op. cit., 68-72 هذا ويحد القاريء العربى

تفصيلا وافيا عن نظام الأراضي تحت حكم البطالمة في : نصحى ، نفسه ، ج ٣ ،

ط ٣ ، صفحات ١٥٧ - ٢١٨

نظير استعدادهم الدائم للقيام بالخدمة العسكرية في جيش الملك . وقد رأينا كيف أن هذه الاقطاعات ظلت دائما من الناحية الرسمية ملكا للملك ، وأن حق هؤلاء المستوطنين لم يعد بأى حال من الاحوال حق الانتفاع فحسب دون أن تكون لديهم الملكية التي تمكنهم من الناحية القانونية من التصرف في هذه الاراضى سواء بالبيع أو الشراء أو ما هو من قبيل ذلك . والشئ ذاته ينطبق على الاقطاعات الكبيرة المترامية المساحة التي كان البطالة يمنحونها للاشخاص المقربين لهم . فهنا أيضا كان انتفاع هؤلاء الاشخاص لمدة حياتهم فحسب ، وبعد ذلك تعود الاراضى من الناحية الرسمية مرة ثانية للملك .

بقى هناك نوع من هذه الاراضى الممنوحة وهى الاراضى المقدسة أو تلك التي كان الملك يهبها للاغراض الدينية . وفي هذا المجال نجد أن بعض هذه الاراضى كان وقفا على عبادة الآلهة ولكن إدارتها كانت في يد موظفين ملاكيين ، بالاشتراك بطبيعة الحال مع الكاهن الأكبر . كذلك كانت هناك الاراضى المتعلقة ببعض المؤسسات الدينية التي كان الكهنة يحتاجون اليها في ممارسة العقائد التي كانوا يقومون عليها . وقد كان دخل هذه الاراضى والمؤسسات يعود على الكهنة ، ولكن لقاء ذلك كان الكهنة يشترون حق الانتفاع بهذه الاراضى من الملك ، كما كانت الادارة الملكية متيقظة بشكل دائم لكل ما يمكن أن يقوم به الكهنة من محاولات في سبيل الحصول على امتيازات مالية أو التخلص من الالتزامات الضريبية وغيرها مما كان عليهم أن يؤدوه إلى خزانة الملك .

فاذا تركنا مجال الموارد الزراعية حيث رأينا الملك يفرض سيطرته

بشكل ظاهر في شكل ملكيته الرسمية للأراضي وتنظيم الانتفاع بها حيث لا يخرج من قبضته من جانب وبحيث تعود الفائدة الكبرى من ذلك عليه من الجانب الآخر - أقول إذا تركنا هذا المجال وجدنا نفس السيطرة الملكية في مجال الموارد الصناعية والتجارية . وقد تمثلت هذه السيطرة في شكل الاحتكارات الحكومية الملكية التي امتدت لتشمل الجانب الأكبر من الانتاج الصناعي والتسويق التجاري ، على الأقل ابتداء من عهد بطلميوس فيلادلفوس . وقد اختلفت درجات هذا الاحتكار من حالة لأخرى ، فكان الاحتكار يشمل في بعض الأحيان الانتاج والتسويق معا ، بينما كان يقتصر على أحد الجانبين في أحيان أخرى تاركا الجانب الآخر لتصرف الأفراد ، وحتى في هذه الحال الأخيرة كان هذا التصرف الفردي يترك تارة بشكل مطلق بينما كان يخضع لنوع من الرقابة والتوجيه تارة أخرى . ولكن حتى في الحالات التي يترك الملك فيها للأفراد مجال التصرف كانت ممارسة هذا التصرف لا تتم وتصبح حقا للشخص إلا بعد أن يحصل على ترخيص بذلك يشترطه من الحكومة لقاء أجر معلوم .

وقد شملت هذه الاحتكارات بدرجاتها المختلفة عدداً كبيراً من الموارد ، فدخل فيها مثلاً استغلال الملح ، ومناجم الذهب الموجودة بالنوبة ، ومناجم النحاس الموجودة بالفيوم ، والنظرون من منخفضات وادي النظرون ونقراطيس ، وتحضير العطور سواء تلك التي توجد خاماتها بمصر أو التي تستورد خاماتها من الخارج وصناعة أوراق البردي والعسل ومسايد الأسماك وإقامة المصارف (البنوك) وصناعة الجلود والمنسوجات والزيوت ،

وسأخذ هذه الصناعة الأخيرة التي نعرف عنها من التفاصيل أكثر مما نعرفه عن غيرها ، كثال لمدى ما وصل اليه التنظيم الاحتكاري عند البطالة من الدقة والتفصيل (١١٦) .

لقد كانت زراعة النباتات التي يستخرج منها الزيت معروفة في مصر من العصور القديمة ولكنها على ما يبدو كانت متروكة للاستغلال والتنظيم الفردي . فلما جاء البطالة اخضعوا هذه الزراعة لسيطرة الحكومة وتنظيمها بشكل شامل . وهنا نجد البطالة يحددون مساحة الاراضى التي يجب أن تقوم فيها هذه الزراعة في كل مقاطعة من مقاطعات القطر ، كما كانت عمليات البذر والحصاد في هذا المجال تخضع للرقابة الحكومية الثامة : فالبذور كانت الحكومة توردها للفلاحين ، والمحصول كان مقداره يحسب بدقه ، ثم يدفع رבעه كضريبة بينما يسلم الباقي لمتعهدي الحكومة لقاء ثمن محدد . وبعد ذلك كان المحصول ينقل الى المعاصر حيث يستخرج منه الزيت تحت الاشراف والادارة الحكوميين ، يقوم بذلك عمال لايسمح لهم بمغادرة أماكن اقامتهم في موسم العمل . أما المعاصر التي كان يمتلكها الافراد والتي عرفتها مصر قبل قيام الحكم البطلي فقد منعت من مزاوله

(١١٦) المصدر الذي وصلت منه هذه التفاصيل هو السبردية التي نشرها

B. P. Grenfell, J.P. Mahaffy تحت عنوان: Revenue Laws

of Ptolemy Philadelphos (col. 38-58) أنظر كذلك ،

Wilcken: Chrestomatie, 299. عن بعض التفاصيل الخاصة

بالرسوم الجمركية على الزيت الوارد من الخارج أنظر : P. Cairo

Zenon, 59012, 59015

نشاطها بعد قيام هذا الحكم ، لم يستثن من ذلك إلا تلك التي كانت موجودة بالمعابد ، فقد سمح للقائمين بالعمل لاسد حاجة المعابد لمدة شهرين فحسب من كل سنة - وهي المدة التي كانت تغطي موسم العمل - ثم تغلق بعدها ، شأنها في ذلك شأن المعاصر الحكومية . أما عن حق بيع الزيوت فكان يباع من قبل الحكومة للمتزمين من تجار الجبله والتجزئة على شريطة أن يتم هذا البيع بالثمن الذي تحدده الحكومة - وقد كان هذا الثمن مرتفعا إلى حد كبير . ولكي يتفادى الملك أية منافسة فقد عمد إلى فرض جمارك باهظة على الزيوت الآتية من الخارج . وحق مع هذه الرسوم الجمركية الباهظة فإن الذي كان ينقل زيتا خارجيا داخل البلاد ، عن طريق النيل ، لاستخدامه الخاص كان عليه أن يدفع ١٢ في المائة رسوما إضافية ، فإذا حاول أن يبيع هذا الزيت صودرت الشحنة التي يريد نقلها وفرضت عليه غرامة فادحة قدرها مائة دراهمة عن كل مترتيس *metretres* . وبهذه الطريقة ضمن الملك البطلمي القضاء على أى منافس له في تجارة الزيت وأصبح يستطيع بيع انتاجه من الزيت بمكاسب تراوحت بين سبعين في المائة وثلاثمائة في المائة (١١٧) .

Tarn & Griffith : Hellenistic Civilisation : pp. 191-2; (١١٧)

Preaux : Tarn : Journ. of Eg. Arch., XIX, p. 257

op. cit., p. 85

الباب السابع

الدعائم الاجتماعية والأدبية

١ - نظرة عامة

كان الحديث في الموضوعين السابقين عن الدعامة العسكرية والدعامة الاقتصادية . والذي يجمع بين هاتين الدعائتين هو الصفة المادية : الأولى يواجه بها حكام الدولة الجديدة تحديات العصر عن طريق القوة المسلحة ، والثانية يواجهون بها هذه التحديات عن طريق إمكانيات الإنتاج التي وجدوها تحت تصرفهم . ويبقى الحديث عن نوع آخر من الدعائم هو ما يمكن أن نسميه الدعائم الاجتماعية والأدبية التي تتمثل في توجيه العلاقة بين البطالة وبين عناصر المجتمع كما تتمثل في مقومات الدين والثقافة .

وإذا كانت هذه الدعائم الأخيرة لا تقسم بالصفة المادية التي تتمثل في جيش منظم في حالة الدعامة العسكرية ، وفي موارد موجهة في حالة الدعامة الاقتصادية ، فإنها تشترك معها في نقطتين : الأولى هي أنها ليست أقل لزوما منها في تدعيم الدولة التي أسسها البطالة وبين المجتمع الذي وجدوا أنفسهم يسكنون بزمامه . فتتنظيم العلاقة بين البطالة والمجتمع كان أمرا لا يمكن تجاهله أو تجاهل آثاره في ظرف كان فيه المجتمع يتكون من أكثر من عنصر وكان ، لكل عنصر وضعه الخاص واتجاهاته الخاصة ، والدين كان لا يزال يشكل في فترة الحكم البطلي محورا هاما

وأساسيا في العلاقة بين الدولة والفرد أو بين الحكومة والشعب ، والثقافة كانت وسيلة التخصص العلى الذى كان أحد المقومات الرئيسية للعصر المتأغرق ، ومن ثم فلا يمكن تجاهلها في تدعيم دولة تقوم في هذا العصر .

بقيت نقطة أخيرة أود أن أذكرها في مجال هذه النظرة العامة : وهى أن الدعامات الاجتماعية والأدبية كانت متداخلة بالضرورة ، وإن كان تداخلها قد تم بدرجات متفاوتة وداخل حدود متفاوتة في الاتساع . فإذا كان التنظيم الاجتماعى يؤدي دوره ، عن طريق التوازن الطبقي ، في مساندة الأسرة البطلمية الحاكمة ، فإن الدين كان يقوم بدوره في إضفاء الصفة الأدبية اللازمة لسيطرة هذه الأسرة على المجتمع ، وإذا كانت الثقافة تسهم بنصيبها في مجتمع يشكل الاتجاه العلى أحد ملامحه الأساسية ، فإنها كانت ، إلى جانب ذلك ، عنصرا رئيسيا اعتمد عليه البطالمة في تدعيم مركزهم في المجال الدولى ، وهكذا .

٧ - البطالمة والتركيب الطبقي للمجتمع

ولتكن بداية الحديث عن موقف البطالمة من الطبقات التى أصبح المجتمع يتكون منها في عهدهم . وقد رأينا في مناسبات سابقة أن ظروف العصر جعلت هؤلاء الحكام يستقدمون إلى مصر ، أو يشجعون على الهجرة إليها ، أعدادا غير قليلة من العناصر المختلفة ، طالما وجدوا أنها ستخدمهم بصورة أو بأخرى ، في مجال أو في آخر . وهكذا أصبح هناك إلى جانب المصريين ، الذين كانوا يشكلون الفرشة الأساسية للمجتمع المصرى ، عناصر أخرى كثيرة أوروبية وآسيوية ، من بينها

المقدونيون والإغريق واليهود والفرس وغيرهم . ولكن مع ذلك فقد كان العنصران المصرى والإغريق هما أهم هذه العناصر سواء من ناحية العدد أو من ناحية التأثير . ومن هنا فسيكون حديثى فى مجال التركيب الطبقي أو الاجتماعى ، هو عن موقف البطالة من هذين العنصرين اللذين أصبحا يشكلان طبقتين تشغل العلاقة بينهما وبين الأسرة الحاكمة حيزا من سياسة هذه الأسرة لا يمكنها أن تتجاهله .

وقبل أن أتحدث عن هذه العلاقة أرى من الخير أن أشير إلى ملاحظة على هذا الموضوع مؤداها أن الصفة الطبقيّة للعنصرين المذكورين لم تكن تعنى بأية حال أى نوع من المساواة العددية بين المصريين والإغريق ، فالمصريون ظلوا يشكلون الاغلبية الساحقة من السكان بينما كان الاغريق لا يمثلون بالنسبة اليهم إلا أقلية ضئيلة ، ولكن هؤلاء الاخيرين كان لهم وزن اجتماعى كبير ، تنبع عن الامتيازات الكثيرة التى منحهم البطالة لهاها ، وهذا الوزن الاجتماعى هو الذى جعل منهم ، رغم قلة عددهم ، طبقة تستحق أن تسمى بهذا الاسم فى ميزان التقييم الاجتماعى .

لقد سبق أن ذكرت أن البطالة ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من حكام المناطق المتأغرقة ، اتجهوا فى تدعيم سلطانهم فى ملكهم الناشئ إلى الاعتماد على اليونان المهاجرين لما كان لهؤلاء من كفاية عسكرية ، ولكن الكفاية العسكرية لم تكن كل ما امتاز به هؤلاء المهاجرون ، فقد امتدت كفاياتهم لتشمل جوانب اخرى فى المجالات الادارية والاقتصادية والفنية وغيرها ، وقد كان هذا نتاجا طبيعيا ومتوقعا لحركة التخصص التى شملت بلاد اليونان فى كافة جوانب الحياة العامة والخاصة فى القرن

الرابع ق . م . مما جعل من هذا القرن بحق عهد التخصص في ذروة ازدهاره . وقد استخدم البطالمة كل الطرق الممكنة لاجتذاب هؤلاء اليونان وإغرائهم على الإقامة في مصر (١١٨) .

وقد رأينا مثلا على ذلك الاقطاعات الزراعية التي كان البطالمة يمنحونها هؤلاء المهاجرين لقاء خدمتهم العسكرية في الجيش الملكي . ولكن البطالمة اعتمدوا عليهم في مجالات أخرى في السلك الإداري وفي التنظيم الإقتصادي ومن هنا فتحو أمامهم عددا كبيرا من الفرص ، فجعلوا الوظائف الإدارية حكرا أو تكاد تكون حكرا عليهم في الوقت الذي لم يحظ فيه المصريون في هذا المجال إلا بمكان ثانوي . وقد كان البطالمة يهدفون من وراء ذلك ، إلى جانب الانتفاع بكفايات هؤلاء الاغريق ، إلى الاعتماد عليهم كدعامة إجتماعية أمام المصريين الذين كان لا بد أن ينظروا إلى الحكام الجدد ، إن عاجلا أو آجلا ، كحكام أجانب من غير بني جلدتهم ، ومن ثم كان على البطالمة أن يأخذوا حذرهم وأن يتخذوا لأنفسهم سندا من اليونان الذين أتاح هؤلاء الحكام لهم فرصا لم تكن متوفرة لهم في بلادهم الأصلية .

ولكن اليونان الذين أتوا إلى مصر استجابة لدعاية البطالمة لم يكتفوا بالعمل في وظائف الجهاز الإداري التي كانت تتعاق أساسا بسلطة الملك ، رأس الحكومة المركزية ، وتخضع خضوعا تاما لإدارته وإرادته ، وإنما اتجهوا من البداية ، وبشكل واضح ، إلى العمل على تكوين طبقة ذات كيان

(١١٨) عن هذه الطرق أنظر : Claire Preaux : Les Grecs en Égypte d'après les Archives de Zenon , pp. 68 sq

متناسك تقوم على قاعدة راسخة من الموارد المعيشية المستقلة . ويظهر هذا بشكل واضح في برديات زينون التي تضم عددا كبيرا من الخطابات التي كان يرسلها هؤلاء المهاجرون اليه ، بصفته القائم على شئون أبولونيوس ، وزير المالية في عهد بطلميوس الثاني ، يطلبون اليه قطعة من الارض يقومون بزراعتها أو قرضا يعدون بسداده ، ويضعونهم في ذلك أصدقاءهم ، يبدعون به عملا أو مشروعا تجاريا يكسبون منه عيشهم (١١٩) ، وليس كما قد ينتظر ، منصباً إدارياً أو وظيفة حكومية .

ونحن نلاحظ هذا الاتجاه بشكل خاص بين هؤلاء المهاجرين في ميدان التجارة ، كمورد اقتصادى مستقل ، رغم الصعوبات الكثيرة التي كانت لابد أن تحف بزاوله النشاط التجارى في بلد يقوم نظامه الاقتصادى أساسا على الاحتكار الملكى . يدل على ذلك تهاافتهم على الاقتراض سواء من البنوك أو المرابين بشكل أدى إلى ارتفاع الأرباح على الفروض التجارية إلى ٣ ٪ و ٤ ٪ بل وإلى ٦ ٪ في شهر (أى ٧٢ ٪ في السنة) في حالة المرابين رغم وجود قانون يقضى بالآ يزيد الحد الأقصى للأرباح عن ٢ ٪ شهريا (١٢٠) . كما يدل على هذا الاتجاه كذلك عدة مظاهر أخرى منها النمو المطرد لتجارة الاسكندرية بشكل أصبح معه هذه المدينة الميناء التجارى الأول في العالم المتأغرق على نحو ما سنرى في حديث

P. Cairo Zenon, 59284 , P. Col. Zenon, 41,48 P. Mich, (١١٩)
Zenon, 33,

p. Col. Zenon, 83, p. Cairo-Zen , 59062, 59731, 59341 (١٢٠)

مقبل (١٢١) ، ومنها الوفود التي كانت ترسل بين الحين والحين لدراسة الفرص التجارية في منطقة أم أخرى من المناطق التي يمتد إليها النفوذ البطلي السياسي كما حدث مثلاً في ٢٥٨ في أعقاب فتح فلسطين ، ومنها كذلك النشاط المنقطع النظير الذي كانت تقوم به البنوك في تسهيل المعاملات التجارية (١٢٢) ، وأخيراً فتدل على هذا الاتجاه الكميات الضخمة من السلع التي كان يجري التعامل على أساسها وبخاصة في تجارة التصدير والاستيراد (١٢٣) .

ومن الطبيعي أن يؤدي كل هذا النشاط التجاري الذي تتشعب فيه المصالح وتتداخل وتتشابك - وبخاصة في الاسكندرية التي كانت ميناء وعاصمة تزدهم بالملاحين عن الفرص الاقتصادية - إلى نوع من التكتل أو التماسك الطبقي . وأن يؤدي هذا بدوره إلى العمل على التوسيع والتنمية المطردين لهذه المصالح . ومن الطبيعي كذلك أن يكون هذا التوسع والنمو على حساب المصالح للملك . وقد حدث ، فإن الملك لم يستطع أن يقف دون حصول طبقة التجار على امتيازات جوهرية ، كما حدث في حالة تجارة القمح والمنسوجات والنبيذ التي حصلوا فيها على الحق المطلق في تحديد أسعارها حسب رغباتهم بعد أن يفوا بشروط قليلة ومعروفة

(١٢١) راجع القسم الأخير من هذه الدراسات

p. Cairo Zen., 59062, 59470, 95790

(١٢٢)

(١٢٣) راجع تجارة التصدير والاستيراد ومراجعتها في القسم الأخير من

هذه الدراسات .

وأغلبها شكلى (١٢٤) .

ولا بد أن ملوك البطالمة قد شعروا بالخطر الطبقى الذى كان يزحف على احتكاراتهم بشكل دائم ، وحاول بعضهم بالفعل أن يقف فى سبيله بطريقة أو بأخرى . فنجد أن بطليموس الثانى مثلاً يفرض ضريبة مقدارها ٣٣٠٣٪ على محصول الكروم وعلى النبيذ الوارد من الخارج حتى يكون ذلك عبء فى سبيل اتساع هذه التجارة التى لم تكن داخلية فى دائرة احتكاراته (١٢٥) . ولكن مع ذلك فإن البطالمة لم يكن فى مقدورهم أن يتوسعوا فى وضع مثل هذه العراقيل فى سبيل النمو المتزايد للمصالح المتشابهة المتهاكمة لطبقة التجار من اليونان المهاجرين ماداموا فى حاجة دائمة إلى الخدمات العسكرية وغيرها لهؤلاء المهاجرين . وقد ظل الأمر كذلك حتى موقعة رفح فى ٢١٧ ق. م. التى أثبتت للبطالمة أن المصريين لا يقبلون فى كفايتهم العسكرية عن اليونان بل يزيدون عنها فيها فى بعض الأحيان ، وأن فى استطاعة هؤلاء الملوك أن يعتمدوا عليهم فى تدعيم ملكهم فى وقت كان فيه البطالمة فى حاجة ماسة إلى قاعدة شعبية راسخة وبخاصة بعد أن أظهر المصريون تدميرهم من وضعهم الاجتماعى والاقتصادى فى أكثر من صورة وأكثر من مناسبة وبعد أن أخذت رومه تبدأ فى الظهور كقوة كبيرة فى البحر المتوسط ، وبعد أن بدأت طريقها نحو

(١٢٤) نستطيع استنتاج ذلك من مقارنة أسعار السلعة الواحدة فى الاسكندرية وخارج الاسكندرية راجع 59269, 59363, 59404, 59446 p. Cairo Zen.,
p. Col. zen., 31, 75
(١٢٥) عن هذه الرسوم العالية راجع Tarn & Griffith : op. cit., 193

العالم المتأغرق (١٢٦) .

وهكذا أصبح في وسع البطالمة أن يسددوا ضرباتهم نحو هذا التماسك الطبقى لدى الإغريق وأن يخطو خطوات أوسع نحو استمالة المصريين . وقد اتخذ ذلك أكثر من مظهر ، فمن جهة نجد الإقطاعات الزراعية للمصريين بمنحها يتوقف نهائيا بعد هذه المعركة بينما تزيد الإقطاعات الزراعية للمصريين بشكل نسبي ، ومن جهة أخرى نجد عددا من الامتيازات يعطى للمصريين مثل التوسع في منح حق حيايه الاجئين للمعابد المصرية ، واتباع التقويم المصرى بدلا من التقويم المقدونى ، واتخاذ الملوك للالقاب الفرعونية ، واتخاذ منف مقرا ملكيا رسميا إلى جانب الاسكندرية وهكذا . كما نشهد عددا من اضطهادات البطالمة للسكندريين وهم نواة الطبقة الاغريقية المقيمة بمصر ، كما حدث في عهد يولرجيتيس الثانى وأوليقيس على نحو ما أشرت في مناسبه سابقه (١٢٧) .

تحت هذه الظروف أجد أنه من الطبيعى أن يوجه البطالمة ضرباتهم بوجه خاص إلى مراكز التجمع التى قد تصبح بؤرا لتبلور الرأى العام لطبقة اليونان المهاجرين ، وبخاصة فى الاسكندرية التى كانت المركز الأساسى لتجمعاتهم ، وجدير بالذكر فى هذا المقام أن يولرجيتيس الثانى حين

(١٢٦) Bell : Egypt From Alexander etc., p. 58

(١٢٧) عن الألقاب الفرعونية التى اتخذها بطليموس الرابع، على شئيل المثال ، راجع

H. Gautier & H. Sottas: Un Decret Trilingue en l' Honneur

de Ptolemée IV, 33-8, 75 عن بقية مظاهر هذا التحول راجع :

Tarn & Griffiths : op. cit., 205-6

صب جام غضبه على السكندريين لم يكتف باضطهادهم بوجه عام وإنما حرص على اغلاق الجامعة أو دار الحكمة وعلى تشتيت من فيها من العلماء ، كأنما رأى في هذه الدار مركزا لتجمع الشخصيات السكندرية من المثقفين الذين قد يتلبور حولهم الرأي السكندري (اليوناني) العام (١٢٨) ، كما أن مجلس الشورى بأعضائه من ذوى الشخصيات البارزة كان دون شك مركزاً لتجمع أصحاب المصالح الاقتصادية الذين كان البطالة يسعون إلى تفتيت ما يقوم بين أفراد طبقتهم من تماسك ، تمهيدا للحد من زحفهم المتزايد على نطاق الاختكارات الملكية . وسنرى في حديث قادم أن هذا المجلس الذى كان قائما في بدايه عهد البطالة ربما اختفى في أثناء الشطر الثانى من حكمهم (١٢٩) .

وهنا يجدر بى أن أشير إلى أن البطالة لم يكونوا يهدفون إلى تخطيم طبقة الاغريق إذ كانوا يدركون أن سلامتهم في اعتمادهم على هذه الطبقة ، وإنما كل ما هناك أن البطالة أرادوا أن يوجدوا نوعا من التوازن النسبى الذى لا يسوى بين طبقى المصريين واليونان بأى حال ولكنه يرضى أولئك ويتفادى سخط هؤلاء .

٣ - الدين وتدعيم وحكم البطالة

وكما كان التركيب أو التكوين الطبقي للمجتمع عاملا فرض نفسه على البطالة وهم بسبيل تدعيم حكمهم في مصر ، فإن هؤلاء الحكام نظروا ، في

(١٢٨) عن موقف بطليموس الثامن من علماء المكتبة أنظر : Athenaeos

Willam Linn Wester-Delpnosophists, iv, 184 c راجع ذلك

mann : The Library of Ancient Alexandria, p.12

(١٢٩) راجع القسم الاخير من هذه الدراسة .

صدد هذا التدعيم ، إلى مجالات أخرى ، كان من بينها الدين . والدين ، كما رأينا ، كان من العوامل التي لا يمكن التقليل من شأنها في العصور القديمة في مجال العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وإذا كانت بعض الأديان الحديثة تفرد جانبا منها لتنظيم هذه العلاقة وإظهار ما تشكله من حقوق يتمتع بها الجانبان وحدود يتقيد بها كل منهما ، فإن دور الدين في العصور القديمة كان يميل إلى إعطاء الحاكم حق السيطرة الكاملة كإله أو سليل للآلهة . وقد انتفع البطالمة بهذا الاتجاه بشكل ظاهر فيما يخص علاقتهم بالمصريين . فقد كانوا خلفاء للإسكندر ، والإسكندر قد حرص على أن ينصبه الكهنة المصريون لبنا للإله آمون في واحة سيوة المسماة على اسم هذا الإله ، ومن ثم فقد أصبح فرعوننا وإلهنا ، وأصبح من حق البطالمة أن يصبحوا من بعده فراعنة وآلهة لهم حق السيطرة وعلى رعاياهم واجب الطاعة (١٣٠) .

وقد تدرج البطالمة في اتخاذ ألقاب الفراعنة ، وبالتالي الانتساب إلى الآلهة المصرية واتخاذ صفاتها حتى اكتملت هذه الألقاب في عهد بطليموس الرابع الذي نجد بين ألقابه التي أضفها عليه الكهنة المصريون « حورس الشاب .. حامى البشر .. شبيه الشمس (رع) وملك المناطق العليا والسفلى (الوجهان القبلى والبحرى) ... الذى حاز رضا الإله بتساح

E. R. Goodenough : The political philosophy of the (١٣٠)
Hellenistic Kingship (Yale Class. Studies, I) pp. 55 - 102,
P. Jouguet : op. cit., pp. 59 راجع ذلك نصحي ، نفسه ،

ويمكن له ربح من النصر ، الصورة الحية لآمون ، الخالد إلى الأبد ، محبوب
لإيزيس ، (١٣١) - وكلها ، كما نرى ، صفات كانت تطلق على ماوك الفراعنة
وتمطيهم السلطة الإلهية على رعاياهم .

ولم تكن فكرة هذا الحق الإلهي ، إذا جاز لي استخدام هذا التعبير
الحديث مع مراعاة الفارق بين مفهوم هذا الحق بين العصور الحديثة
والقديمة - لم تكن هذه الفكرة قاصرة على علاقة البطالمة بالمصريين ،
ولمّا تعدتهم لتشمل الاغريق . وفي الواقع فإن أكثر من عامل ساعد على
إمكان تحقيق هذا الوضع فيما يتعلق بهؤلاء الاغريق الذين هاجروا إلى
مصر وأقاموا فيها . وأول هذه العوامل هو ما رأيناه من انهيار الحضارة
اليونانية الكلاسيكية مع بؤادر العصر المتأغرق ، وبحيث أصبحت ألوهية
الحاكم فكرة واردة وغير غريبة على التصور اليوناني لمركز الحاكم وهي
فكرة إن لم تكن قد ظهرت بالتحديد - فقد ظهرت بالتقريب ، في معالجة
المفكرين اليونان لموضوع الحكم والسياسة . كذلك فإن الأمر الواقع قد
ساعد على تدعيم هذه الفكرة إلى حد كبير . فالعصر المتأغرق كان عصر
سيطرة للحكام ، تصل فعلا إلى السطوة ، في أغلب الأحيان ، فرضت
هذا ظروف الصراع الرهيب الذي نشب بين خلفاء الاسكندر لفترة طويلة ،
والذي كان بالضرورة لا يتسع لغير السيطرة الفردية التامة من جانب هؤلاء
الخلفاء إذا كان لهم أن يحشدوا كل الطاقات لخدمة أهدافهم التي كانت تدور
أساسا حول إقامة أسر حاكمة يكتفون بها . وقد أصبحت
هذه السيطرة ، أو السطوة إذا أردنا أن نسمي الأشياء بمسمياتها ، أمرا
واقعا لا يمكن الفكك منه بالنسبة لليونان - وهو وضع يقترب كثيرا

من فكرة الإله الذى لاراد لحكمه . وإلى جانب هذين العاملين فإن الانتصار الساحق السريع للإسكندر الذى اكتسح أمامه فى سنوات قليلة الامبراطورية الفارسية العاتية جعل مسألة تأليه الاسكندر أمرا يمكننا بالنسبة لليونان الذين كان أبطالهم يقتربون كثيرا من مرتبة آلهتهم والذين كان يجمع الآلهة عندهم يتسع لأكثر من إله جديد .

وقد تكاثفت كل هذه العوامل لتتمخض عنها فى النهاية عبادة الاسكندر . وفى الواقع فإن الاسكندر إذا كان قد لقي بعض المشقة فى الحصول على الاعتراف بالوهيته أثناء حياته ، فإن هذا الاعتراف قد وجد طريقا معبودة بعد مماته ، بل ربما منذ لحظة وفاته . فى الخيمة التى أنعقدت فيها هيئة الأركان . أو مجلس القواد ، لدى وفاة الاسكندر ، نجد يومينيس أمينه الخاص وأحد قادته يربط بين فكرة التأليه وبين وضع الإسكندر كملك ، فيعد كرسي العرش فى صدر الخيمة ويضع عليه التاج والصولجان وبقية متعلقات اللباس الرسمى الملكى ، يشعل نارا أمام كرسي العرش ، وقبل أن يتخذ القادة مجلسهم يرش كل منهم بعض العطور (المرتبطة بشعائر العبادة والتقديس) والتى يأخذونها من صندوق من الذهب . ولم يكن هذا بأى حال نوعا من عبادة الأبطال . فإن المؤرخ هيودوروس يذكر فى ألفاظ صريحة أن الاسكندر قد عبد كإله (١٣٢) .

وقد رأينا بطلميوس ، مؤسس أسرة البطالمة ، يحتال بكل الطرق حتى ينقل جثمان الإسكندر إلى مصر ويقيم له فى النهاية ضريحاً فى الاسكندرية -

وهي حركة كان لها دون شك دور في تدعيم مركز بطلميوس في المنطقة التي كان قد أزمع أن يجعل منها مقراً للملكة بعد أن أصبحت الاسكندرية مقراً لهذه العبادة التي أصبح يدين بها كل العالم المتأغرق . ولم يقتصر بطلميوس على ذلك ، فقد أدخل عبادة الاسكندر بصفة رسمية على الأقل في بعض المناطق ومن بينها ، دون نزاع ، مدينة الاسكندرية التي كان فيها جثمانه وضريحه .

وقد عرفت عبادة بطلميوس نفسه أثناء حياته ، وإن كان لم يصل إلى أن تصبح هذه العبادة عامة في كل مصر ، وإنما تمت في أنحاء متفرقة سواء في مصر أو في خارجها ، فقد أصبحت عبادة رسمية بصفة محلية في مدينة بطوليايس Ptolemais التي أسسها بطلميوس في الصعيد ، كما أضيفت إلى هذا الحاكم ألقاب فيها شيء كثير من النقديس في بعض المناطق الإغريقية ، مثل جزيرة رودس التي ساعدها بطلميوس أثناء حصار ديمتريوس فأطلق عليه أهلها لقب المنقذ أو المخلص Soter ، وهو اللقب الذي عرف به بعد ذلك ، ومثل جزر السكوكلايس التي أضيفت عليه أجمادا شديدة بأجماد الآلهة (١٣٣) .

على أن هذه المحاولات المتعددة والمتفرقة التي حاول بها البطالمة أن

(١٣٣) عن عبادة بطلميوس في مدينة بطوليايس راجع :

Scherer: Le Culte de Sôter à Ptolemais et à Coptos
(Bull. de l'Inst. Français d'Arch. Orientale, XLI),
Charles pp. 71-3 . عن الألقاب الإلهية خارج مصر راجع :
Michel: Recueil d'Inscr. Gr., 373

يضعوا صفة التقديس أو الألوهية على أشخاصهم أو على حكمهم ، لم تلبث أن تبلورت في عهد الجيل الثاني من هؤلاء الحكام في شكل عقيدة أو عبادة ملكية يتخذون فيها الصفات الإلهية بشكل رسمي (شأنهم في ذلك شأن بعض حكام الدول المتأخرة ، كما حدث في سورية عند ملوك الدولة السلوقية على سبيل المثال) . ففي ٢٧٠ ق.م. حين ماتت أرسينوى الثانية ، ثانی زوجات بطلميوس الثاني فيلادلفوس ، بعد الانتصارات البطلمية في الحرب السورية ، تم تأليها بالنسبة للمهرين على أساس أنها اتحدت ، بعد موتها ، بالإله رع ، كما أقام لها زوجها (وأخوها) فيلادلفوس عبادة إلهية بالنسبة للإغريق ، وبعد ذلك مباشرة نصب نفسه إلهاً معها وأقام عبادة الإلهين الإخوين Theoi Adelphoi له في حياته ولها بعد موتها . بعد ذلك نجد فيلادلفوس يؤله أباه بطلميوس الأول (سوتر) وزوجته بريينسكى الأولى في ٢٧٩ ق.م. تحت اسم « الإلهين المنقذين » . وحين اعتلى العرش بطلميوس الثالث أله نفسه وزوجته فأصبحا « الإلهين الخيرين » واستمر التقليد بعد ذلك (١٣٤) .

* * *

هذا ولم يكن تأليه الملوك في شكل عبادة أو عقيدة ملكية هو كل ما لجأ إليه تباطلة في مجال تدعيم ملكهم في مصر . فقد ظهرت بين العبادات التي عرفت في مصر في عصر هؤلاء الملوك عبادة سارابيس Sarapis التي أقامها بطلميوس الأول ، أو بعبارة أدق ، طورها من عبادة مصرية تشكل نوعاً من الاتحاد بين أوزير إله العالم الآخر وحابي Apis (الثور

المقدس الذى عبده المصريون) ، ليعطيها شكل رجل فى عنفوان قوته ورجولته (حسب المفهوم والتصور اليونانى للآلهة) له صورة الإله زيوس .

وقد قيل فى هذا المجال أن هذه العبادة التى أعطت الإله المصرى المتحد مظهراً يونانياً كانت تهدف أساساً إلى التقريب بين المصريين وبين المهاجرين اليونان الذين أستوطنوا مصر ، وذلك بإحياء عبادة إله مصرى بعد أن يعطوه صورة يونانية . ولا شك أن هذه العبادة قد أدت دوراً لا بأس به فى هذا الاتجاه وكان هذا مما يخدم سياسة البطلمة فى الداخل دون شك . ولكن يبدو أن البطلمة كانوا يهدفون من نشر هذه العبادة إلى جانب ذلك ، إلى تدعيم مركزهم فى المجال الدولى . بل أن المؤرخ ه. أ. بل (١٣٥) يثبت لنا فى شيء كثير من الاقتناع أن الهدف الأساسى من نشر هذه العبادة كان الاستهلاك فى المجال الدعائى الدولى ، إذ أنها لم تنتشر فى مصر كثيراً سواء بين المصريين أو اليونان خارج منف والاسكندرية ، وهما المركزان الرئيسيان لهذه العبادة فى مصر . ولكن الشواهد إذا كانت لا تؤيد إنتشار هذه العبادة فى مصر ، ومن ثم لا تدعم فكرة الربط بين المصريين والإغريق المستوطنين كهدف أساسى لها ، فإنها من الجانب الآخر تشير إلى إنتشار هذه العبادة خارج مصر . فقد أصبح سرايس هو الإله الذى يرعى الإمبراطورية البطلمية ، كما ظهر بشكل واضح (بعد أن أصبحوا يرون فيها عبادة أوزير وزوجته إيزيس وابنتها حورس) بين مجموعة الآلهة التى انتشرت عبادتها فى أنحاء العالم المتأغرق .

وقد كان ظهور الإله الآتى من مصر بين هذه المجموعة من الآلهة يشكل نجاحاً كبيراً للبطالة ويعطيهم هيبة من شأنها أن يدعها مركز هؤلاء الحكام فى المجال الدولى الذى كان قد بدأ فى ذلك الوقت يتخذ أهمية متزايدة بين الدول المتأثرة المحيطة بالقسم الشرقى للبحر المتوسط لظروف ذكرتها فى أحاديث سابقة ، ومن ثم أخذت السياسة الخارجية لدول هذه المنطقة تحتل مكاناً بالغ الأهمية فى دائرة نشاط حكامها .

وقد ساعدت على انتشار هذه العبادة ظروف معينة كانت قد بدأت تظهر بشكل واضح فى ذلك الوقت ، وكان من الطبيعى أن يدركها البطالة ويجمعوا منها إحدى نقط الانطلاق لدعايتهم السياسية التى كان أصحح مكان لتوجيهها هو الاسكندرية بموقعها المتوسط ذى الاتصال السهل بكافة أرجاء العالم المتأغرق . ومؤدى هذه الظروف أن أعراض القلق الروحى التى سادت القرن الأخير قبل ظهور المسيحية كانت قد بدأت تظهر بشكل واضح فى القرن الثالث ق.م فإن انهيار نظام المدينة الذى درج عليه اليونان ، بكل ما كان يتصل به من قيم لاجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية وروحية ، أدى إلى انهيار المثل العليا التى أقامها اليونان حول هذا النوع من الحياة على نحو ما أشرت فى مكان سابق ، ثم كان قيام الحكومات الاستبدادية العسكرية الكبيرة فى العصر المتأغرق على أسس تختلف عن تلك التى ألفها اليونان ، مما ساعد على تقويض البقية الباقية من هذه القيم والمثل العليا .

وليس أدل على القلق وعدم الاستقرار اللذين سادا هذه الفترة من ظهور الفلاسفة المتشككين الذين وضعوا أية قيم لاجتماعية أو سياسية

موضع الشك والارتياب ، والايبيقوريين الذين دعوا صراحة إلى نبذ كل القيم المقلقة والعكوف على الحصول على السعادة أو المتعة الفردية فحسب (١٣٦). وقد كان طبيعيا أن يصبح هذه الحياة القلقة تلهف إلى دين جديد يعيد لليونان شيئا من الاطمئنان الذي افتقدوه ، دين يتناول قيما إنسانية مطلقة ترتفع فوق العنت والضياع والقلق الذي يجدونه في حياتهم اليومية ، ويتحدث عن الاستقرار والرضا في حياة أخرى خالدة . وفي هذا الجو بدأ سكان العالم المتأغرق يتطلعون إلى الشرق ، مركز القيم الروحية ، بحثا عن الخلاص الديني المنشود . وفي هذا الجو انتشرت عبادة سراپيس ، الإله الشرقى الذى المظهر اليونانى .

٣ - الثقافة وتدعيم حكم البطالمة

ثم أنتقل إلى الحديث عن الجانب الثقافى من الدعامات الاجتماعية والأدبية التى حرص البطالمة على إقامتها وتنميتها فى سبيل توطيد مركزهم وفى هذا المجال نجد أن هؤلاء الملوك حرصوا منذ بداية حكمهم على أن تكون الاسكندرية ، عاصمة دولتهم ، بمكتبتها وجامعتها ، مركزا للإشعاع الثقافى فى العالم المتأغرق ، ليكون لهم من ذلك قاعدة أدبية يدعمون بها مركزهم ومركز دولتهم فى هذه المنطقة . وفى سبيل ذلك عمل البطالمة من البداية على أن يسيطروا بشكل فعال على كل ما يتعلق بالناحية الثقافية . وهكذا نجدهم ، رغم تشبهم بالصيغة الاغريقية للثقافة التى أرادوا أن تصبح الاسكندرية مركزا لها ، يبتعدون عن الطريقة التى سارت عليها الثقافة

Hammond : From City - State to World State , 44 sq (١٣٦)

Bertrand Russel : A History of Western Philosophy, pp.

الاغريقية حتى هذا الوقت والتي تميزت بالطابع الفردى الذى ينبثق عن الشعب ويمثل كافة المذاهب والاتجاهات ، ليدخلوا هذه الثقافة فى نطاق حكومى لا بد أن يخضع فى النهاية لتوجيه الحاكم .

ولسكى أوضح هذا الافتراض سائير بشكل سريع إلى بعض الامثلة التى تصور لنا هذين الاتجاهين لتعرف ، عن طريق المقارنة ، مغزى الدور الذى سار فيه البطالمة فى هذا المجال . لقد كانت المدارس الفكرية وحلقات المناقشة والمعاهد الثقافية التى ظهرت فى بلاد اليونان فى فترة ازدهار الثقافة اليونانية تمثل مذاهب يختلف كل منها باختلاف مؤسسه وانباعه دون تقيد بأى جهاز حاكم ، فالنعاليم السوفسطائية التى سيطرت على العقليّة اليونانية فى أواسط القرن الخامس كانت تمثل اتجاها حرا لا يخضع لتوجيه من أية هيئة رسمية أو حكومية ، وحلقات الدراسة والمناقشة التى كان يعقدها سقراط التى كانت أساس الفلسفة السقراطية إنما قامت لترد على نظريات المذهب السوفسطائى ، والنظريات التى ترددت فى جوانب الاكاديمية التى أسسها أفلاطون والتى كانت تنزع بشكل واضح إلى تمجيد الحكم الارستقراطى كانت فى الواقع ردا على اتجاهات الایموقراطية المتطرفة التى كانت سائدة فى أوائل القرن الرابع ، والافكار السياسية الواقعية المعتدلة التى توضح جوانب الخير والشر فى كل نظام من نظم الحكم والتى انبثقت من معهد اللوقيون الذى انشأه أرسطو كانت بدورها تمثل ردا على الافكار السياسية المثالية التى نادى بها استاذة أفلاطون من قبل والتى ثبت فشلها عمليا حين أراد هذا الاخير أن يجعله قاعدة للدستور الذى حاول أن يسنه فى سيراكيوز بدعوة من حاكم هذه المدينة .

ولم تقتصر هذه النزعة الفردية، التي أنبثقت من بين صفوف الشعب وابتعدت كل البعد عن التوجيه الحكومي، على الأفكار التي ظهرت في هذه المدارس الفكرية، بل إن المكتب التي كانت تقوم عليها الدراسة في المعاهد أو حلقات المناقشة التي ظهرت فيها هذه المذاهب المختلفة لم تكن تمثل مكتبات عامة تملكها الدولة، وإنما كانت مجموعات كتب شخصية يمتلكها الأفراد ويتصرفون فيها كما يروق لهم، يظهر ذلك جليا إذا عرفنا أن أرسطو أوصى بمكتبة معهد اللوقيون، وكانت هذه ملكا شخصيا له، لتلميذه ثيوفراستوس الذي خلفه في هذا المعهد، بينما ترك ثيوفراستوس هذه المكتب بعد وفاته لتلميذه وقرينه نيبليوس.

أما عند البطالمة فقد اتخذ الوضع اتجاها مغايرا ظهر فيه التوجيه الحكومي من البداية بشكل واضح. وسأحاول أن أعرض بشكل سريع بعض ما قام به البطالمة في هذا المجال لأن ثبت صحة الافتراض الذي أقدمه هنا، وهو أن البطالمة اتخذوا من النشاط الثقافي دعامة سياسية ومن ثم وجهوا المكتبة والجامعة لتؤدي، إلى جانب الغرض الثقافي الذي نيط بها، غرضا آخر هو التدعيم الأدبي لدولة البطالمة عن طريق الدعاية لعاصمتها. فنحن نرى بطليموس الأول سوتر وبتليميوس الثاني فيلادلفوس يعتمدان على ديمتريوس الفاليري، السياسي الأثيني الذي رأى في العاصمة البطلمية الفتية الغنية بحيويتها الدافقة وإمكاناتها الكبيرة خير مجال لفكرة راودته قبل ذلك مرات واتخذت حين خرجت إلى نطاق الواقع شكل أكبر جامعة في العصور القديمة وأول مكتبة حكومية عامة (وهو الأهم) عرفها العالم.

ولم تذهب جهود البطالة سدى فى ناحية الدعاية التى هدفوا اليها ،
فسرعان ما توافد على الجامعة والمكتبة علماء وأدباء ومفكرون من جميع
أنحاء العالم المتأغرق ، من أمثال كاليماخوس الشاعر الذى أتى من بركة
وهيروفيلوس الجراح والعالم فى الشريح وأرستراتوس العالم فى وظائف
الاعضاء الذين أتوا من آسيه الصغرى ، وهبارخوس الفاكى الذى أتى من
نيقيه وغير هؤلاء عشرات وعشرات - فقد وصل عدد هؤلاء العلماء فى
فترة ازدهار النشاط الثقافى فى الاسكندرية إلى نحو مائة - وكلهم ، فيما عدا
استثناءات قليلة ، أتوا من بلاد أخرى ليستقروا وليقوموا بعمالهم العلمى
فى الاسكندرية (١٢٨) . وهكذا ركزوا أنظار العالم من الناحية الثقافية
على عاصمة مصر . وقد تمثل نجاح البطالة فى ناحية الدعاية السياسية عن
طريق النشاط الثقافى فى السمعة العلمية العالية التى أشتهرت بها الاسكندرية
كنتيجة طبيعية لهذا التركيز والتخصص الثقافى . وقد بلغ من قسوة هذه
السمعة ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم العلمية أن ذكر لنا مؤرخ مثل
أميانوس ماركيانوس ، مشيراً إلى هذه الفكرة ، أن خير تركية كان فى
امكان أى طبيب أن يحصل هاها هو أن يقال عنه إنه أتم دراسته
فى جامعة الاسكندرية .

وقد كان هذا الاتجاه من جانب البطالة نحو الدعاية السياسية لدولتهم
ولحكومتهم عن طريق تركيز الاضواء على عاصمتهم كمرکز للثقافة العالمية ،

(١٢٨) Westermann ; op. cit., 1-16 راجع كذلك : نصيحى ، نفسه ،

هو قطعا الذى دفع البطالمسة إلى سلوك كل طريق ممكنة لتزويد مكتبة الاسكندرية بالنسخ الاصلية من الرسائل التى وجدت في عصرهم ، فالى جانب شراء الكتب بالطريق المعتادة لجأ بعض ملوكهم فى سبيل الحصول عليها إلى وسائل تبعد قليلا أو كثيراً عن الطرق السوية . من ذلك مثلاً أن ثالث حكام البيت البطلمى أرسل إلى أثينة يطلب ، على سبيل الاعارة المخطوطات الاصلية لمسرحيات ايسخولوس ويوريبيديس وسوفوكليس حتى ينضمهم أدياء الاسكندرية بعد أن وضع فى أثينة مبلغاً من المال قدره خمسة عشر تالنتاً كضمان لاعادتهم ، فلما انتهت مهمة النسخ أمر أن يفقد الضمان ويحتفظ بالنسخ الاصلية ، بينما أرسل إلى أثينة نسخاً من التى نقلها نسخ الاسكندرية (١٣٩) . ومن ذلك أيضاً المائتى ألف مجلد التى اضافتها كليوباتره إلى المكتبة حصصاً عايتها من ماركوس أنطونيوس الذى أهدى هذه المجلدات لفاتنته بعد أن نهبا من مكتبة برغامة أثناء حروبه فى آسيا الصغرى وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الجمرد ، وهى العدد الضخم من الكتب الذى ضمته مكتبة الاسكندرية ، إذ من المرجح أن هذا العدد وصل قرب نهاية القرن الثالث ق.م. إلى نحو أربعمائة ألف مجلد ، بينما قفز فى الفترة التى زار فيها يوليوس قيصر مصر فى أواسط القرن الاول ق.م. إلى سبعمائة ألف مجلد ، فاذا أضفنا إلى ذلك المائتى ألف مجلد التى أضيفت فى عهد كليوباتره السابعة على نحو ما أسلفنا لكان الناتج تسعمائة ألف مجلد حوتها مكتبة الاسكندرية فى نهاية عهد البطالمة وهو

عدد كفيل بأن يجتذب الانظار إلى الاسكندرية كأكبر مركز ثقافى موجود (١٤٠) .

وما لا شك فيه أن البطالة كانوا يهدفون إلى نفس الغرض الدعائى السياسى حين عهدوا بأمانة المكتبة إلى سلسلة من الاعناء كانوا أبعد ما يكون عن طبقة الموظفين الذين يؤدون عملا رومانيا آليا ، بل كانوا بحق مجموعة من العلماء برز كل منهم فى ميدانه كأبرع ما يكون التبريز . فكان أولهم الاديب زينودوتوس الذى أتى من لفسوس والذى كان أول من نشر ملحمتى الإلياذة والأوديسيه على أساس علمى من النقد والتحليل ، وكان من بينهم أبولونيوس شاعر الملاحم وأراتوسطين الجغرافى الذى قدره محيط الكرة الأرضية تقديرا يثير الإعجاب ، وأرستوفانيس (غير أرستوفانيس الشاعر المسرحى الكوميدي المعروف) الذى مات فى ١٨٥ ق. م. بعد أن كسب شهرة كبيرة فى نشر خلفات الشعراء الكلاسيكيين والكتاب الذين سبقوا عصر أفلاطون ، وكان آخر هذه السلسلة من الاعناء - الذين كانوا فى حقيقة الامر نخبة ممتازة من المفكرين - أرسطارخوس الذى دأب على نشر ما أنتجه شعراء اليونان المبكرين من هوميروس حتى يندار (١٤١) .

(١٤٠) عن عدد المجلدات التى ابتدأت بها مكتبة الاسكندرية (٢٠٠ مجلد) راجع

Josephos : Antic. Jud., xll, 3,1 . عن التقدير العام للعدد والذى

وصلت اليه المكتبة فى أوجها راجع : Westermann : op. cit., 9

هذا وأحب أن أنبه أن ما وصفته بالمجلدات أعنى به فى الواقع لفائف بردية

وقد كانت اللغافة البردية العادية تعادل نحو ٦ الى ٨ صفحات من الكتب

المعاصرة ذات القطع الكبير . راجع فى ذلك : U. Wilcken

(Hermes,xll), 103 sq

Grenfell & Hunt : Oxyrrh Papyri, x, 1241, col. ll (١٤١)

كذلك بما يشير إلى هذا الاتجاه مسألة الترجمة السبعينية التي ينسب القيام عليها إلى بطليموس فيلادلفوس . وفحوى هذه المسألة أن بطليموس هذا استقدم من فلسطين اثنين وسبعين عالما يهوديا وعهد اليهم بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية (١٤٢) . وقد قيل في التعليق على هذه الواقعة إنها تثبت مدى اهتمام البطالمة بالجوانب المختلفة من الثقافة ورغبتهم في أن ييسروا أمام الطبقة المثقفة اليونانية مجال الاتصال بالثقافات الأجنبية وهذا شيء لا يمكن إنكاره بطبيعة الحال ، ولكنى أرى في تفسير رغبة بطليموس على هذا النحو فحسب تقصيرا في إظهار المغزى الكامل لما قام به الحاكم البطلمي ، وفي رأي أن ترجمة التوراة تنطوي على أكثر من مجرد الرغبة في التثقيف العام ، فالتوراة لا تقتصر على الناحية العقيدية الروحانية من الدين اليهودي ، وإنما تتعرض في كثير من التفاصيل إلى تاريخ اليهود ونظمهم وتقاليدهم ومعاملاتهم والقيم التي تسود حياتهم وعلى هذا ففي ترجمة هذا الكتاب مع فائدة كبيرة لحاكم مصر إذا أراد أن يوجه دعايته السياسية نحو سورية وفلسطين حيث يقطن عدد كبير من اليهود - ونحن نعرف أن البطالمة كانوا على احتكاك سياسى وعسكرى دائم بهذه المنطقة .

وأخيرا فإن هناك واقعة تتصل بالمكتبة والجامعة أرى أنها تؤيد الافتراض الذى قدمته عن المغزى السياسى الدعائى للاتجاه الثقافى عند البطالمة وتاريخ الواقعة يرجع الى عهد بطليموس الثامن الذى نشب بينه وبين السكندريين نزاع شديد أدى الى تشكيله بهم فى كثير من القسوة وبشكل يكاد يقضى عليهم قضاء تاما . وفى وسط هذا النزاع نجد هذا الملك يوجه بطله

بوجه خاص الى علماء الاسكندرية بدرجة كانت نتيجتها تشتيت هؤلاء العلماء (١٤٣) ومن السهل أن نجد فيما قام به هذا الملك دليلا جديدا على ربط البطالة بين الثقافة والسياسة ، فالبطالة في اتجاههم نحو الدعاية السياسية عن طريق الثقافة كانوا يعتمدون على النشاط الفكري لهذه الصفوة المثقفة وهي المركز الأدبي الذي تحتله هذه الصفوة بين الإغريق ، سواء في مصر أو في خارج مصر . ومن الطبيعي في ضوء هذا المفهوم ألا يأمن بطلمبوس الثامن لموقف هؤلاء العلماء وآرائهم في فترة النزاع بينه وبين الكنديين . وهم المواطنون الإغريق في الاسكندرية .

القسم الثالث

السياسة الخارجية للبطامة

الباب الثامن

المرحلة الاولى : التوسع والصمود

سأقسم موضوع السياسة الخارجية للبطالة ، لغرض الايضاح ، الى
مراحل زمنية ثلاثة : المرحلة الاولى ، وهي تمتد عبر الفترة التي تشمل
حكم البطالة الثلاث الاول والشطر الذي ينتهى بمعركة رفع (٢١٧ ق.م)
من حكم بطليموس الرابع . وفيها نجد السياسة الخارجية المصرية تتخذ
شكل مد إيجابى يجعل من سياسة حكامها عنصرا فعالا ، أو على الأقل
عنصرا لا يمكن تجاهله ، فى تحريك الامور فى المجال الدولى فى القسم
الشرقى من البحر المتوسط . ثم تأتى بعد ذلك المرحلة الثانية ويشغلها
بقية حكم البطالة حتى بداية عهد كليوباتره السابعة ، آخر أفراد البيت
الحاكم البطلمى ، وفيها تتخذ السياسة الخارجية المصرية شكلا جزريا يقابل
المد السياسى الذى عرفته فى المرحلة الاولى ، فينقلب موقف مصر من
اتجاهه الإيجابى الذى يتفاعل مع الظروف المحيطة به فيتأثر بها ويؤثر فيها
الى سلبية تنهقر به الى حيث يجتزىء بالتأثر دون التأثير ، وتنجس به
الى وضع الانتظار والاستقبال بدلا من دور التحفز والانطلاق . وأخيرا
تأتى المرحلة الثالثة التى يشغلها حكم كليوباتره السابعة ، وفيها نجد موقفا
جديدا يتمثل فى طموح الملكية المصرية البطلمية الى مد نفوذها بشكل
لو تحقق لجعل حدود هذا النفوذ مطابقا لحدود الامبراطورية الرومانية
نفسها . وقد كان طبيعيا أن يودى هذا الطموح الإيجابى الى صراع

كليوباتره مع القيادة العسكرية والسياسية للعالم الروماني ولكن هذا الاتجاه لا يلبث أن يلاقي نهاية سريعة حين ينهار حلم كليوباتره بعد أن تنهار خططها أمام القوات المناوئة في رومه ، ثم تنهار بالتالي الدولة البطلمية لتصبح مصر إحدى الولايات التي تدور في فلك الإمبراطورية الرومانية ولتبدأ الحديث عن المرحلة الأولى .

١ - الاتجاه التوسعي في هذه المرحلة

وفي هذه المرحلة نجد أنه ، فيما عدا المناسبتين اللتين تعرضت فيهما مصر للغزو المباشر ، مرة من جانب پرديكاس في ٣٢١ ق.م. ومرة من جانب أنتيجونوس في ٣٠٦ ق.م. ، (وقد نجح بطليموس في صد كل من هاتين المحاولتين كما رأينا) ، فإن سياسة البطلمة في هذه المرحلة كانت تنسم بالطابع أو الاتجاه التوسعي (١٤٤) . ونحن نستطيع أن نميز ،

(١٤٤) عن المناسبتين اللتين تعرضت فيهما مصر للهجوم أنظر الباب الرابع من هذه الدراسات. عن موضوع السياسة التوسعية البطلمية لا تزال الدراسة الأساسية هي التي قام بها يوليوس بلوخ Julius Beloch تحت عنوان Die Auswärtigen Besitzungen der Ptolemäer Griechische Geschichte (المجلد الثاني من الجزء الثالث) ، صفحات ٢٤٩ - ٢٦٨ . كذلك هناك ملخص واف لهذه المرحلة قام به بيير جوجيه في البابين الأول والثاني في القسم الثالث من المجلد الرابع من Précis de l'Hist. d'Égypte تحت عنوان La Fondation de la Puissance Ptolemaïque و L'Empire de l'Égypte au III^{me} Siècle صفحات ٢٥٩ - ٢٧٥ من المجلد المذكور . ويجد القارئ العربي عرضاً وافياً لتفاصيل هذه المرحلة في: نصحي، نفسه، ج ١، ط ٢، صفحات ٤٨-١٤٣

بوجه عام، ثلاثة خطوط أو مجالات سارت فيها هذه السياسة التوسعية :
الاول هو مجال السيادة البحرية في القسم الشرقى للبحر المتوسط ، والثاني
هو الجبهة السورية ، والثالث ، وهو أقلم من ناحية حجم الجهد الذى
بذله البطالمة ومن ناحية الحسيز الزمنى الذى شغله فى سياستهم الخارجية
(وإن كان هذا لا يقلل من أهميته) ، ويشمل الجبهتين الغربية
والجنوبية .

وفىما يخص المجال الاول وهو الحصول على السيادة البحرية نجد أن
محاولات البطالمة تستمر فى مباشرة والحاح ظاهرين منذ بداية عهد بطليموس
الاول ، رغم ما تعرضت له من نكسات ، ولا تخفت نسبيًا إلا فى عهد
بطليموس الثالث فى أثناء الصراع مع پرديكاس (بعد موت الاسكندر
بسنة واحدة) نجد بطليموس يحالف بعض المدن الواقعة فى جزيرة قبرص
ثم يحدد تحالفه معها بعد مقتل پرديكاس ، وإذا كان موقفه قد تزعزع
بعد ذلك أمام سيطرة أنتيجونوس على شرقى البحر المتوسط (٣١٥ ق.م)
فإنه يعاود محاولاته التى تنتهى بضم الجزيرة نهائيا فى ١٣٠ ، كما يستولى
على بعض القواعد على شواطئ آسيا الصغرى (بامفيلية وليقية وكاريه)
وجزيرة كوس . كذلك نجده يحاول استعادة السيطرة البحرية بعد انتكاسه
مرة ثانية ، على أثر هزيمته فى ميناء سلاميس (٣٠٦) أمام ديمتريوس
بن أنتيجونوس ، فيتحالف مع ميليتوس ، ثم يخلو له الجو بعد سقوط
ديمتريوس فى الأسر (على يد سليوقوس فى ٢٨٥) فيسيطر على بعض
المواقع على الساحل الفينيقى وعلى جزيرة ثيره ومجموعة جزر الكوكلا ديس ،
بل من المرجح أنه أتخذ لنفسه إذ ذاك قاعدة بحرية على الساحل الشمالى

الشرقي لجزيرة كريت . هذا إلى جانب مساعداته لجزيرة رودس التي استطاع أن يضم بها هذه الجزيرة إلى دائرة حلفائه . وفوق ذلك فقد حاول بطليموس الأول أن يمد نفوذه إلى بلاد اليونان عن طريق السيطرة على مدن الحلف الهليني أو حلف كورنثي ، وإن كانت محاولاته في هذا المجال لم تصل إلى نتيجة إيجابية أمام خطط كسندروس .

وتستمر محاولات السيادة البحرية في عهد خلفه فيلادلفوس ، فيحالف برغامه في ٢٦٣ ق.م. ويستولى على إفسوس ويسيطر على شاطئه كاريه فيما بين ميليتوس وهاليكارناسوس . ولا يتوقف هذا الاتجاه إلا قليلا بعد هزيمة الاسطول البطلمي أمام أنتيجونوس جوناتاس في مياه جزيرة كوس (٢٥٨ أو ٢٥٦ ق.م.) التي يفقد فيها سيادته البحرية بما في ذلك سيطرته على جزر الكوكلايس ، إذ لا يابث فيلادلفوس ، بعد فترة وجيزة أن يستعيد سيادته على بحر إيجه ومعه الجزر المذكورة حوالي ٢٥٠ ق.م.

وأول بادرة من بوادر العدول عن محاولات التوسع في مجال السيطرة البحرية لانتحازها إلا في عهد بطليموس الثالث الذي يعدل عن معاداته لمقدونية ومعزفا بدائرة نفوذها على بلاد الإغريق بعد أن يفلح أنتيجونوس دوسون في ضم أسبرطة بالقوة إلى الحلف الهليني (وكان بطليموس الثالث قد حاول أن يمد سيطرته عليه دون نجاح كبير) . وقد أستمر بطليموس الرابع على سياسة خلفه في هذا الصدد فظل بعيداً عن التدخل في هذه المنطقة الشائكة (١٤٥) .

(١٤٥) عن أهم أحداث ومحاولات السيطرة البحرية (بما فيها الانتكاسات)

هذا عن الخط الأول في السياسة التوسعية للبطالمة ، وقد لمسنا فيه ، على الأقل في عهد الملوك الأولين من هذه الأسرة ، المحاولات التي لا تـكـل في سبيل تثبيت أقدامهم في مجال السيطرة البحرية . والشئ ذاته نلاحظه فيما يخص الخط الثاني من هذه السياسة التوسعية ، وهو الذي يتعلق بالجهة السورية . وفي الواقع فإن سجل البطالمة على هذه الجهة كان سجلا طويلا وحافلا ، ابتداء منذ فترة مبكرة من حكم بطليموس الأول قبل أن يعلن نفسه ملكا على مصر بسنوات عديدة ، واستمر عبر حكم عدد من خلفائه ، وكان النصر فيه سجلا بين حكام مصر وحكام سورية ، وإن كان جانب البطالمة هو الذي ظل راجحا بوجه عام حتى معركة رفع في عهد بطليموس الرابع .

وقد ابتداء هذا السجل في ٣١٩-٣١٨ ق.م حين استولى بطليموس الأول على المنطقة التي أسماها اليونان جوف سورية أو سورية الجوفاء koile Syria والتي يطلق عليها الآن اسم منطقة الغور (في جنوبي سورية وفلسطين وقسم من الاردن) ولكنه لا يلبث أن يفقدها في ٣١٥ ويمود فيستردها بعد ذلك بثلاث سنوات في أعقاب انتصاره على ديمتريوس

== في عهد البطالمة الثلاثة الأوائل أنظر : Diod: XIX, 56—62, XX,

19, 21, 27, 50, Plut.: Demetr., 15—16, Kleomenes, 32;

App. : Syr. 62; Athen.: V, 209; Polyb. : V. 39

عن العدول عن معاداة مقدونية في الشطر الثاني من عهد بطليموس الثالث

وفي عهد بطليموس الرابع أنظر : Polyb.: II, 47-69, V, 35-9;

Plut.: Aratos, 35-46, Kleom., 18-35. عن رودس ، راجع

حاشية ٩٨ من هذه الدراسات .

(بن أنتيجونوس) في موقعة غزة (٣١٢ ق م) . ويحاول بطليموس بعد ذلك أن يستكمل غزوه لسورية في ٣٠١ ق م . حين يغادرها أنتيجونوس ليواجه ليسياخوس ، ولكنه ينسحب من المنطقة حين يصل إلى عليه ، خطأ ، أن أنتيجونوس في طريق عودته إليها . وقد أغضب بذلك حلفاءه ضد أنتيجونوس ، الذين لم يغفروا له هذا التصرف الذي يترك الميدان خاليا لهدوهم ويضعه بذلك في موضع القوة . وهكذا ، حين يقسم الحلفاء الأسلاب يكون جوف سورية من نصيب سليوقوس الذي تفبث به منذ ذلك الحين أمام أية محاولات من جانب البطالمة في سبيل استعادته . ولما كانت الجهة السورية ، دفاعيا واقتصاديا ، من المناطق الحيوية بالنسبة لمصر ، فقد ابتدأ من هذه اللحظة ما يمكن أن نسميه بالمشكلة السورية . (١٤٦)

وقد امتدت هذه المشكلة السورية ، في فترة التوسع التي نحن بسبيل الحديث عنها ، عبر ما يقرب من ستين سنة ، خلال أربع حروب انتهت بمعركة رفح في ٢١٧ ق م . وقد وقعت حربان منها عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس ، الأولى في ٢٧٥ ق م . وفيها يغزو فيلادلفوس سورية ويستولى على دمشق ولكن أنطيوخوس الأول ، الملك السلوقي لا يلبث أن يلحق به هزيمة ويسترد دمشق . وبعد ذلك بخمسة عشرة سنة يجدد فيلادلفوس محاولاته في الجهة السورية . فيهاجم أنطيوخوس الثاني

(١٤٦) عن محاولات بطليموس الأول في سورية أنظر :

Diod. : XVIII, 43, XIX, 80-6, XX, 113; Plut. :

Demetr., V, 2-4; App.: Syr. 54-5

في ٣٦٠ ق م مبتدئا ما تعارف عليه المؤرخون باسم الحرب السورية الثانية ، وان كان الاشتباك قد اتخذ ميدانا له غرب آسية الصغرى في محاولة من بجانب الملك البطلمي لتحطيم نفوذ سورية . ولكن فيلادلفوس لا يحنى كثيرا من محاولاته هذه المرة بعد أن انتصرت على قوته البحرية قوة من رودس التي كانت قد نقلت ولاءها من الحاكم البطلمي الى الحاكم السلوقي .

وفي عهد بطليموس الثالث تقوم الحرب السورية الثالثة (٢٤٦ - ٢٤١ ق م) التي تتمخض عن سيطرة الملك البطلمي على كل الشاطئ السوري حتى مدينة حاوقية الواقعة على نهر العاصي . ولكن بعد حوالي ربع قرن يحاول الملك السلوقي ، أن يغزو جوف سورية (٢٢١ - ٢١٧ ق م) ويستولى فعلا على بعض المواقع . ولكنه لا يلبث أن يفقدها بعد معركة رفح التي ختمت هذه الحرب السورية الرابعة بنصر بطلمي رأينا في مناسبة سابقة كيف اعتمد فيه البطالمة أساسا على الجنود المصريين بعد أن اتخذت الفرق اليونانية التي كانت تخدم في جيش بطليموس بحيث كانت نصرا مصريا في مجال الحروب المتأغرة التي كانت تقوم أساسا على قوات مقدونية يونانية (١٤٧) .

* * *

وأستعرض أخيرا ، بشكل سريع ، محاولات البطالمة نحو التوسع غربا وجنوبا . وفي هذا المجال نجد بطليموس يفتح برقة في أول سنة من سني

(١٤٧) عن الحروب السورية الأربعة أنظر . Polyaen.: iv, 15, v, 18, 50.
Justin.: xxvll 1-2,5; Polyb.: 58-71, 79, 83, 87, 107 sq .

حكمه في مصر في ٣٢٣ ق. م. ويعين صديقه أوفلاس Ophellas حاكما عليها ، واسكنه يفقدها في ٣١١ بعد أن أوعز أنيتجونيوس إلى أوفلاس بالاستقلال بها ويضطر بطليموس إلى السكوت على هذا الوضع أمام تهديد أنيتجونيوس بغزو مصر ذاتها ، ثم يستعيدنها بعد ذلك بثلاث سنوات (٣٠٨) حين تسمح له الفرصة لذلك ، وتظل تحت حكم البطالمة حتى يدبجوها نهائيا في مصر في عهد بطليموس الثاني (حوالي ٢٥٨) عن طريق زواج سياسي بين ولي العهد البطلمي ، الذي أصبح فيما بعد بطليموس الثالث ، وابنة حاكم برقة الذي كان ينتمي هو الآخر إلى الاسرة البطلمية (١٤٨) .

أما عن الجنوب فنجد بطليموس الأول يحتفظ بحامييه في إلفنتين لحماية حدود مصر الجنوبية كما نجد بطليموس الثاني يرسل حملة إلى إثيوبية (التي كانت تعنى إذ ذاك شمال السودان) . وربما كان ذلك على أثر هجوم من جانب الإثيوبيين على القوات المصرية ، إذ أن هناك نص من النصف الأول من القرن الثالث يشير إلى هجوم من هذا النوع ، لعله يشير إلى هذه الواقعة (١٤٩) .

٢ - آراء في تفسير هذا الاتجاه

وقد تضاربت الأقوال في تفسير هذه السياسة التوسعية من جانب البطالمة ، فنجد مثلاً مؤرخا مثل كورنمان Kornemann وآخر مثل

(١٤٨) عن أهم الأحداث أنظر : Diod.; xviii, 19-21, xx, 41-2,

Pausanias; I, 6-8

(١٤٩) عن حملة إثيوبية Diod.: I, 37. عن النص المتعلق بهجوم الإثيوبيين على

الحدود المصرية والتعليق عليه راجع : نصحي نفسه ، ج ١ ، ط ٢ ، ص ١٠٨

وحاشية ٣ . راجع كذلك : Plin.: xxxiv, 148 .

Wilcken يرى أن البطالة كانوا يهدفون أساسا إلى تكوين امبراطورية لا تعدو مصر أن تكون مجرد مركز لها ، وإن كانت حدود هذه الامبراطورية تآرجح من أحدهما إلى الآخر بين حوض البحر المتوسط وبين الحدود العالمية التي رأينا الاسكندر يهدف إليها في بداية هذه الاحاديث (١٥٠) .

بلنبا يذهب رستوفتزهف Rostovtzeff إلى أن البطالة كانوا يهدفون إلى تدعيم ملكهم في مصر وأن اتجاهاهم التوسعي كان يستهدف مجرد حصولهم على الموارد اللازمة لهذا التدعيم (١٥١) . وقد عبر روستوفتزهف عن ذلك بطريقة حسابية تميل بعض الشيء إلى الجفاف وإلى قدر بسيط من المبالغة في التعميم حين قال في مجال الحديث عن التوسيع المصري في عهد البطالة : لقد كانت الفسكرة التي توجهه سياستهم هي أن يجعلوا من مصر دولة من الغنى والثروة بحيث تحتفظ باستقلالها وتظل في مأمن من أية محاولة خارجية لإخضاعها . ولضمان ذلك كان من الضروري أن تظل مصر سيدة للبحر ومتحكمه في الطارق البحرية التي توصل إليها . وقد كانت هذه مهمة شاقة ومعقدة ، ففي أيام الامبراطوريات المصرية القديمة والوسطى والحديثة (في عهد الفراعنة) كان امتلاك سوريه كافيا لتحقيق هذا الغرض . ولكن الموقف تغير منذ بداية الالف الاولى ق.م . إذ أن التقدم الحضارى الذى

E.Kornemann : (Klio, xvi) p. 229, U.Wilcken: Grundzüge (١٥٠) und Chrestomatie der Papyrusurkunde, I, (القسم الاول) p. 4.

Alexander der Grosse und die Hellenistische Wirtschaft, p. 61

Rostovtzeff: Foundations of Soc. and Econ. Life in (١٥١) Egypt. (Eg. Journ. of Arch., vi) , p. 172.

ظهر في آسية الصغرى والنزول المطرد للقوات البحرية في بلاد اليونان قاد مصر إلى أن تمتد منطقة نفوذها السياسى إلى جميع مناطق البحر المتوسط ، لا لتفوز آسية الصغرى أو بلاد اليونان ، وإنما ليكون في مقدورها مراقبة أية دول بحرية منافسة ، وإحباط أية محاولة لعزل مصر عن الطرق البحرية المؤدية إلى شواطئها سواء في الشمال أو في الشرق . ولكن السيطرة على هذه الطرق لا يمكن تحقيقها إلا بامتلاك أسطول قوى ، ومثل هذا الأسطول لا يمكن أن يتم بناؤه إذا اعتمدت مصر على مواردها الطبيعية من المواد الأولية فحسب ، فالخشب والمعادن اللازمة لذلك لا بد أن تأتي من الخارج ، ولكى تضمن مصر الحصول على كميات وافرة منها لا بد لها أن تحتل بعض المناطق الغنية بالغابات أو المناجم . وقد كان هذا هو السبب في أن تحتفظ مصر دائما بشبه جزيرة سيناء (الغنية بمعادنها) ، وأن تمتد سيطرتها إلى سورية وقبرص ، وأن تحاول احتلال بعض مقاطعات كآسية الصغرى وبخاصة لوقيه Lykia (الغنية بغاباتها) . كذلك تعتمد قوة مصر (وهى لازمة لتحقيق هذه السيطرة) على انتظام تجارتها الخارجية إذ أن قيام أسطول وجيش قوين يحتاج إلى مبالغ وافرة من المال ، والحصول على مبالغ كافية من الذهب والفضة لسك هذه النقود أمر لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التجارة الخارجية ، وهذه لا تنسى ممارستها على نطاق واسع إلا بالسيطرة على الطرق التجارية ، .

وإلى جانب هذين الرأيين نجد جوجيه Jouguet يطالعنا برأى وسط مؤداه أننا لا يمكن أن نفصل بين الاتجاه الامبراطورى وبين الاتجاه الاقتصادى في سياسة البطالة بشكل واضح ، لأن كل من هذين

الاتجاهين مرتبط بالآخر ، وإن كان أحد الاتجاهين يطفى على الثانى بدرجات متفاوتة تبعاً للظروف . ودليله على ذلك أن مصر ، شأنها شأن بقية الدول المتأغرة ، قد نبذت محاولات السيطرة على بحر إيجة بالقوة المسلحة ابتداء من القرن الثانى ق.م. حين بدأت رومه تزهج فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط سياسة حفظ التوازن عن طريق مد نفوذها لى المنطقة وسيطرتها عليها ومع ذلك فإن هذه الدول ظلت متشبثة ، فى المناطق المحيطة بها ، بتأمين الطرق التجارية البحرية اللازمة لازدهار اقتصادياتها ، كلها وجدت لى ذلك سيلا . (١٥٢)

على أن هناك نقط ضعف فى هذه الآراء الثلاثة سأحاول الرد عليها بشكل سريع . ولنبداً بالفكرة التى تتسأرجح بين الامبراطورية المحدودة والإمبراطورية العالمية . ففياً يتعلق بفكرة الامبراطورية نجد أن البطالة حقيقة تأثروا بالفكرة المصرية التى عرفها المصريون فى أثناء حكم الفراعنة سواء فى جانبها العملى الذى يتعلق بالناحية الادارية تفصلياً . ولكن هذا الاتجاه الامبراطورى عند البطالة لم يكن اتجاهاً ناضجاً من حيث فكرته أو كاملاً من حيث تنفيذه ، فمن جهة نجد أن بعض المناطق التى امتدت اليها سيطرة البطالة وبخاصة بين الجزر اليونانية ، كانت لازيد تبعيتها لمصر من مجرد اعتراف بالنفوذ المصرى ، دون أن تتم المقومات الاخرى التى تربط الدولة المسيطرة بالولاية ، مثل ارسال الولاة أو أخذ الضرائب أو غير ذلك من تفاصيل الادارة الامبراطورية . بل إن مناطق أخرى ، مثل جزيرة رودس وبعض المدن اليونانية كانت محاولات البطالة فيها

تتجسد في مجرد استمالتها أو خطب ودها عن طريق المساعدات الاقتصادية كما رأينا في مناسبة سابقة . وهي استمالة كانت لا تأمن مصر ، معها ، أن أن تنقلب بعض هذه المناطق ضدها إذا وجدت ذلك في مصلحتها بشكل أو بآخر ، كما حدث في أثناء الحرب السورية الثانية حين وقفت رودس (التي طالما استمالتها البطالمة) الى جانب أنطيوخوس الثاني ، الملك السلوقي وكانت سببا في هزيمة بحرية للبطالمة حوالي ٢٦٠ ق. م. (١٥٣) .

ومن جهة ثانية فقد كانت بعض المناطق الأخرى التي امتد إليها النفوذ البطلمي تتحول في الواقع إلى ممالك مستقلة يقوم على رأسها ملك ينحدر حقيقة من البيت البطلمي ، ولكنه لا يتبع الحكومة المركزية في الاسكندرية وإنما يسوس مملكته بل ويتصرف في مستقبلها كما يروق له حتى حين يصل هذا التصرف إلى حد توريثها للحكومة أخرى . وسنرى في أثناء الكلام على المراحل التالية هذه الفكرة تبلور بشكل واضح حين تستولى رومه على قبرص التي كانت تحت حكم أحد أفراد البيت البطلمي ، دون أن يجد في ذلك الملك البطلمي في مصر ما يفضيه . سنرى بطليموس السابع ملك برقه يوصى بمملكته للشعب الروماني بينما تقبل رومه هذه الوصية فتضم برقه الى الامبراطورية الرومانية دون أن ترى في ذلك اعتداء على ممتلكات مصر (١٥٤) .

* * *

أما عن فكرة العالمية التي تمثل الشق الثاني من هذه النظرية ، ففي رأي لم تميز سياسة البطالمة بشكل كامل سواء من ناحية المكان أو من

المضمون . فمن ناحية المكان نجد أن النطاق الذى توسع البطالمة فى حدوده تراجع إلى حد كبير عن نطاق إمبـاطورية الإسكندر التى كانت تمثل الشطر الأكبر من رقعة العالم المتحضر المعروف فى ذلك الوقت بكل ما يتضمنه ذلك ، بالضرورة ، من أجناس ونظم وعادات مختلفة استطاع الاسكندر أن يجمعها داخل إطار سياسى واحد وأن يشدها جميعاً إلى مركز إدارى واحد .

أما من ناحية المضمون فنجد أن البطالمة لم يتبعوا الاتجاه العالمى فى مزج الحضارات - وهو الاتجاه الذى بدأه الاسكندر - حتى داخل نطاقهم التوسعى الضيق - إلا فى حدود معينة . فهم مثلاً قد عملوا على جعل الاسكندرية مركزاً للإشعاع الثقافى ، تنتشر منه الثقافة اليونانية فى كل أرجاء القسم الشرقى للبحر المتوسط ، وكان من الممكن أن يقود هذا الاتجاه إلى نوع من عالمية الثقافة - وقد أدى فعلاً إلى شيء يقترب كثيراً من هذا المفهوم . ولكن اتجاههم هذا كانت تشوبه ، كما رأينا ، سياسة دعائية يهدفون من ورائها إلى تدعيم مركزهم فى المنطقة ، كحكام لدولة محددة ، وهو اتجاه رأيناه يشوب كذلك ، على الأقل فى رأى أحد مؤرخى هذه الفترة من تاريخ مصر (هـ . أ . بل) اتجاههم الذى تجسد فى ترويع عبادة سراپيس ، وهى العبادة التى مزجوا فيها ، فى مجال العقيدة ، بين جوهر شرقى (مصرى) وشكل غربى (يونانى) . وهكذا ، هنا أيضاً ، يتحول مضمون له كل مقومات العالمية ، ليخدم هدفاً محلياً (١٥٥) .

كذلك نجد هذا التأرجح بين العالمية كـ فكرة ، وبين تدهيم نفوذهم في منطقة محددة كواقع ، يصبح نظرتهم إلى نظام الحكم في المنطقة التي امتد نفوذهم إليها في صورة أو في أخرى ، فهم لا يتدخلون في نظام دولة المدينة polis - النظام اليوناني - الذي كانت تسير عليه المدن اليونانية التي دخلت ضمن نطاقهم التوسعي . بل إن بطليموس يقيم في مصر مدينة يونانية هي بطوليايس . وهذا يوحى بنوع من المزج بين النظام الشرقي المصري والنظام الغربي اليوناني - وهو الاتجاه الذي كان يمثل فكرة العالمية في إمبراطورية الإسكندر . ولكن هذا المزج مع ذلك كان بعيداً كل البعد عن أن يكون كاملاً ، فالباطل ساروا أساساً على النظام المركزي الاوتوقراطي (الفردي) الذي كان يمثل الاتجاه الشرقي في هذا المجال ، بينما نجد الاتجاه اليوناني الذي يمثله نظام المدينة كوحدة سياسية قائمة بذاتها لا يظهر في حكم البطالمة إلا بشكل صوري متناه في ضآلته وهكذا نجد بطليموس الأول يستغنى بإقامة المدينة التي أشرت إليها إلى جانب المدينتين الأخريين اللتين وجدتهما قائمتين عندما بدأ عهده في مصر وهما نقرطيس والاسكندرية ، وسنرى عند الكلام على إحدى هذه المدن ، وهي الاسكندرية ، كيف أن نظام الحكم اليوناني في مصر لم يحظ في الحقيقة بأكثر من شكله الخارجي دون أن تكون له مقوماته الجوهرية (١٥٦) .

* * *

هذه هي نقط الضعف في نظرية الامبراطورية بشكائها المحدود والعالمي : أما عن نظرية روستوفتوف التي تربط التوسع البطلمي بسياسة اقتصادية

بجته يهدف من وراثتها البطالة إلى تأمين الحصول على موارد مملكتهم ، فهو يفهم لنا دون شك جانبا من سياسة البطالة الخارجية ، مثل عناية بطليموس الأول ببسط نفوذه على جزر بحر ايجه وبعض الاقاليم الواقعة على شواطئ آسية الصغرى في قلبية وبامفليه وليقيه وكاريه ، وحرصه - بعد أن فقد في أواخر القرن الرابع ممتلكاته في آسية الصغرى التي أدت إلى فقدان سطوته البحرية - على استعادة هذه السيطرة في بداية القرن الثالث بالصورة التي أصبح معها سيد جزر الكوكلايس وشاطئ فينيقيه .

ولكن هذه النظرية رغم قوتها لا تفسر لنا وحدها بشكل مقبول كل اتجاهات البطالة التوسعية ولناخذ على سبيل المثال ، لا الحصر ، اتجاههم نحو بسط نفوذهم على برقة التي لم يكن بها من الموارد الاقتصادية ، كما لم يكن لها من الموقع الذي يتحكم في الطرق التجارية ، ما يبرر رغبة البطالة في السيطرة عليها إذا كان ما يحدوهم في توسعهم السياسى هو الاعتبار الاقتصادى فحسب . والشئ ذاته ينطبق على اتجاه البطالة التوسعى في المنطقة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية .

٣ - تقييم الاتجاه التوسعى في سياسة البطالة

وهكذا نجد أن الاتجاه التوسعى للبطالة لا يمكن تفسيره بشكل كامل إذا اكتفينا بنظرية الامبراطورية (سواء بشكلا المحدود أو بشكلا العالمى) كما يذهب كورنمان وفلكن ، أو بالنظرية الاقتصادية كما يذهب روستوفتزف ، أو بكليهما معا يذهب جوجيه ، وإنما أرى أن نضيف إلى هذه التفسيرات الثلاثة تفسيراً رابعاً ، إذا أردنا أن نصل إلى تقييم شامل لسياسة البطالة التوسعية . هذا التفسير هو أن البطالة وجموا اهتمامهم بوجه خاص إلى

الاماكن التي يستطيعون منها أن يدافعوا بشكل فعال عن ملكهم في مصر . وهذا هو الذي يفسر لنا استيلائهم على برقه ، فالحدود الغربية لمصر كانت نقطة شغب بالنسبة للمصريين في أكثر من مناسبة في الشطر الأخير من حكم الفراعنة ، وهو الشغب الذي وصل في استمراره إلى درجة مكنت الليبيين من أن يتسللوا إلى العرش المصري ليصبحوا فرسانة مصر في الأسرة الثانية والعشرين على سبيل المثال (١٥٧) :

والشيء ذاته ينطبق على اتجاه البطالمة نحو السيطرة على منطقة النوبة وشمال السودان . حقيقة إن هذه المنطقة تشير إلى الطريق نحو أواسط أفريقية وإلى القسم الشرقى من أواسط هذه القارة حيث تمتد الطرق الملاحية إلى الهند مع ما يعنيه هذا من واردات من بينها التوابل والعطور والذهب والفضة والأحجار الكريمة ، مارا بالحبشة وبسواحل شبه جزيرة العرب لتسير عبر الطرق البحرية والصحراوية والنيابية في مصر ، ثم تتجمع أخيرا في الاسكندرية ليعاد توزيعها من هناك على شواطئ القسم الشرقى للبحر المتوسط . وحقيقة أن منطقة النوبة كانت تنتج قدرا من الذهب - وإن كان ضئيلا . ولكنى لا أعتقد أن هذا الاعتبار كان هو الوحيد الذى دفع البطالمة إلى بسط نفوذهم على هذه المنطقة إذ لا نستطيع أن نغفل العنصر الدفاهى وراء سياسة البطالمة هناك . فالحدود الجنوبية لمصر ، تماما مثل الحدود الغربية ، كانت منطقة شغب بالنسبة للحكام المصريين في أكثر من مناسبة .

وستظهر لنا فترة أخرى من فترات التاريخ المصرى ، وإن كان فترة لاحقة للمعهد البطلمى ، أن الشغب الذى كالت نتعرض له مصر على

حدودها الجنوبية لم يكن أمراً عارضاً وإنما تكرر ظهوره في أكثر من عهد . ففي بداية الفترة التي خضعت فيها مصر للحكم الروماني نرى القوات الأثيوبية تقوم بعدة مناوشات على تلك الحدود يضطر معها كورنيليوس جالوسى ، أول ولاية أغسطس على مصر ، إلى أن يوجه جهوده العسكرية إلى هذه المنطقة بشكل جدى ينتهى بوضع المنطقة الواقعة جنوبى الشلال تحت إمرة حاكم يدين بمنصبه وبولائه لرومه ، وبقبول الإثيوبيين للحماية الرومانية . بل لأنه مما يدل على مقدار الشعب الذى كان لابد أن تنتظره أية حكومة لمصر من هذه الناحية أن القوات الأثيوبية عادت مرة أخرى لمناوشتها على حدود مصر الجنوبية في ٢٥ ق.م. ولما تمضى على التسوية المذكورة أربع سنوات مما اضطّر الوالى الجديد لمصر ، بترونيوس ، إلى أن يعيد مطاردة الإثيوبيين وأن يتخذ عدداً من الاجراءات لحماية هذه الحدود وهى إجراءات لم تكف لردع الأثيوبيين ، وكان لابد أن تتلوها ، بعد سنتين ، إجراءات أكثر صرامة قبل أن تستقر الحدود بصفة نهائية (١٥٨) .

وما يقال عن منطقة النوبة ينطبق في صورة أكثر وضوحاً على سوريه فقد كانت لهذه المنطقة هى الأخرى أهمية اقتصادية لا جسدال فيها سواء كمصدر للاخشاب التى كان البطالمه فى حاجة ماسة اليها لبناء الاسطول

(١٥٨) Dio Cassius, LIV, 5, 4 O. C. I. S. III, راجع : C.A.H., X,

240 sq. راجع التعليق على بعض النصوص فى:

عبد اللطيف أحمد على: مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق

البردية ، صفحات ٦١ - ٦٢

اللازم لفرض سيادتهم البحرية في القسم الشرقى للبحر المتوسط، في وقت انتقل فيه مركز الثقل السياسى إلى هذه المنطقة، أو كسوق تجارية لمصر كما يظهر لنا جليا في أواسط القرن الثالث ق.م. حين نرى أبولونيوس، وزير مالية بطلميوس فيلادلفوس يرسل في ٢٥٩ ق.م.، في أعقاب فتح فلسطين، وفدا من التجار يجربون منطقة جودايه مستخدمين في ذلك كل وسائل المواصلات الممكنة بما فيها العربات والخيول والبغال والحمير وحتى الجمال.

ولكن مع ذلك فهذا العامل الإقتصادي وحده لا يكفي لتفسير اتجاه البطالمة التوسعى في هذه المنطقة - وهو اتجاه يدل على إصرار عنيد على الاستيلاء عليها بأى ثمن وبغض النظر عما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج. ولتأخذ كمثال لهذا الإصرار موقفا أو موقفين أتخذهما بطلميوس الأول من هذه المسألة. فقد حاول بعد وفاة الاسكندر بفترة قصيرة أن يشتري إقليم الغور (Koile Syria) الواقع في الجزء الجنوبي من سورية من واليه لاددمون، ولكنه لم ينجح في ذلك فاستولى على الاقليم بالقوة في عام ٣١٩ - ٣١٨ منتهزا فرصة ضعف السلطة المركزية في الامبراطورية عقب وفاة انتياتروس الذى كان وصيا على العرش الامبراطورى. وفي ٣٠١ عندما سيطر سايوقوس على سورية نجده بطلميوس يعيد احتلاله لهذه المنطقة (وكان قد فقدتها في أثناء فترة الصراع بين قواد الاسكندر) أثناء اشتباك حلفائه (كسندروس وليسيماخوس وسليوقوس) مع ديمتريوس بن أنتيجونوس للقضاء بصفة نهائية على قوته. كما نجده يرفض النزول عنه

بعد ذلك رغم ما كان هذا الموقف ينطوى عليه من خطر الاشتباك مع سلوقوس الذى احتج فعلا على ذلك وان كان لم يقيم بعمل عسكري إيجابى ضد بطليموس لظروف لا تعيننا فى هذا المقام (١٥٩).

على أن موقع سورية كخط دفاعى طبيعى لمصر يمكن أن يفسر لنا بشكل معقول ومقبول هذا الاصرار الذى أشرت اليه . وقد قدر لبطليموس الاول نفسه أن يقدر هذا الموقع على حقيقته فى الفترة التى كان لا يزال فيها فى موقف الدفع والجذب مع منافسيه وزملائه السابقين من قواد الاسكندر فى موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م. حقيقة أن بطليموس كان فى الجانب المنتصر فى هذه الموقعة ، ولكنه مع ذلك قدر دون شك أن أطباع هؤلاء المنافسين من الممكن أن تصل إلى هذه المنطقة ومن ثم يجب أن تكون سورية ، أو على الأقل الجزء الجنوبي منها ، خطا دفاعيا طبيعيا للدولة التى كان بسبيل إقامتها فى مصر . وقد ظهر فعلا صدق هذا التقدير فى ٢١٧ ق.م. فى عهد بطليموس الرابع حين اشتبك مع السلوقيين فى موقعة دفاعية عند رفح . وقد أظهر حرصه على الانتصار فيها بأى ثمن مدى أهمية هذه المنطقة كخط دفاعى عن مصر لا يمكن إغفاله أو الاستغناء عنه . ولن تكون هذه الموقعة هى الاحتكاك الأخير بين الدولتين المتناحرتين على الحدود المصرية السورية ، فسرى فى أثناء الكلام عن المرحلة الثانية من مراحل السياسة الخارجية البطلمية كيف أن الخطر السلوقى تجدد فى أكثر من مناسبة ليثبت مرة بعد أخرى مدى أهمية هذا الخط الدفاعى على الحدود الشمالية الشرقية لمصر .

أما عن الأماكن الواقعة إلى شمالى مصر فى القطاع الشرقى من البحر

المتوسط والتي ينطبق عليها التفسير الاقتصادي الذي قدمه روستوفتزييف انطباقا واضحا ، على أساس أنها تضم ضمن نطاقها الطرق التجارية البحرية المؤدية إلى مصر ، كما تضم المناطق التي كانت تأتي منها إلى مصر الموارد التي يحتاج إليها البطالة - نقول أن هذه الأماكن رغم ميزاتها هذه الاقتصادية الواضحة ، تشير ، إلى جانب ذلك ، إلى السياسة الخارجية الدفاعية التي نحن بصدد التذليل عليها ونظهرها في أوضح صورها . فقبرص مثلا التي أدخلها البطالة في حين نفوذهم ، يجب ألا ننسى أنها كانت في يوم من الأيام نقطة اشتباك عسكري ذاق فيها بطليميوس مرارة الهزيمة حين قضى غرماؤه في سلاميس (الواقعة بها) على أسطوله في ٣٠٦ ق.م. وهكذا أصبحت هذه الجزيرة تمثل في ذهن مؤسس الدولة البطلمية وفي ذهن خلفائه من بعده ، نقطة انطلاق لخطر هؤلاء الغرماء ، ومن ثم يجب أن تصبح نقطة ارتكاز دفاعية أمام نواياهم التوسعية .

والإتجاه ذاته يفسر لنا موقف البطالة من كريت . حقيقة إن هذه الجزيرة لم تحدث فيها معركة مشابهة لتلك التي وقعت في قبرص ولكن مركزها قرب الطرف الجنوبي لبلاد اليونان ، حيث منطقة نفوذ الانتيجونيين في مقدونية ، جعل البطالة ينظرون إليها كحد يجب ألا يتعداه هذا النفوذ . وقد أثبتت الأيام أن الانتيجونيون يشكلون خطرا حقيقيا على مصر ، حين تحالف أحد ملوكهم (فيليب الخامس) مع الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث على احتلال مصر في عهد بطليميوس الخامس ، بقصد اقتسامها فيما بينهما كما سنرى في الأحاديث القادمة .

ولعل خير ما يثبت السياسة التوسعية الدفاعية التي انتهجها البطالمة في هذا القطاع ، أن البطالمة رغم حرصهم الشديد على مد نفوذهم إلى هذا الخط الدفاعي الذي يصل بين قبرص شرقا وكريت غربا ، فإننا نجد هذا الحرص يكاد ينعدم فيما وراء هذا الخط من ناحية الشمال ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن بطلميوس حاول إحياء حلف كورنث (في بلاد اليونان) تحت زعامته حوالي ٣٠٩ - ٣٠٨ ق م . ، فلما أخفق في ذلك أمام خطط كسندروس عاد إلى مصر ولم يترك هذه المحاولة مرة أخرى .

الباب التاسع

المرحلة الثانية : التدخل الرومانى

١ - الظروف الدولية بعد رفع

المرحلة الاولى فى السياسة الخارجية لمصر فى عصر البطالمة كانت ، كما رأينا ، مرحلة توسع وصدود ، ابتدأها مؤسس هذه الأسرة منذ أن أصبح حاكما على مصر ، وحتى قبل أن يعلن نفسه ملكا عليها ، بمحاولات دائمة لمد نفوذ دولته الجديدة وتوسيع دائرة سيطرتها بكل طريقة وبأية طريقة ، رغم ما تعرض له فى سبيل تحقيق هذا الهدف من صعوبات بلغت فى بعض الأحيان حدة الانتكاسات . وقد استمر هذا الاتجاه فى عهد خلفيه الاول والثانى ، وإذا كان اتجاه التوسع قد توقف فى عهد بطليموس الرابع ، ثالث هؤلاء الخلفاء ، فإن موقف الصمود الذى ميز موقف أسلافه فى ميدان السياسة الخارجية قد استمر فى عهده وكانت موقعة رفع تجسيدا واضحا لهذا الصمود .

ولكن عام ٢١٧ الذى شهد هذه الموقعة كان يمثل الحد الذى وقفت عنده سياسة التوسع والضمود ، وبعدها بدأت فترة ركود مصرى فى المجال الدولى لم يلبث فيها المد التوسعى أن أخذ فى الانحسار . وهكذا بدأت فترة التدهور الذى ميز المرحلة الثانية من مراحل السياسة المصرية الخارجية فى عهد البطالمة . وقد بدأت مظاهر هذا الركود ثم التدهور تبدو واضحة قبل أن ينتهى عهد بطليموس الرابع ، فان هذا الملك الذى

ألهته حياة العبث والمجون وشلت حركته ثورات المصريين الذين أعاد لهم في رفح ثقتهم في أنفسهم ، لم يلق بالآلا إلى التيارات التي كانت قد بدأت تتحدد اتجاهاتها بشكل واضح في المجال الدولي بعد هذه الموقعة ، وتندر بارتظام لابد أن يؤدي إلى تغيير كبير في المنطقة .

وقد كان أول هذه التيارات مصدره سورية التي أخذ ملكها ، أنطيوخوس الثالث ، يبذل جهودا فائقة ليعيد بناء إمبراطوريته بعد أن يسترد الممتلكات الساوقية في آسيه الصغرى وفي أواسط آسية ، ويتأهب في أثناء ذلك للثأر لمزيمته في رفح وتقويض أركان الإمبراطورية البطلمية . أما التيار الثاني فقد كان مصدره مقدونية التي كان ملكها فيليب الخامس يبنى هو الآخر قوته ، ويمد نفوذه في المنطقة المتأغرقة ، ويتجه بأطماعه كذلك إلى الممتلكات المصرية . وأخيراً فقد كان مصدر التيار الثالث هو رومه ، القوة الجديدة الصاعدة على الحدود الغربية للعالم المتأغرق ، والتي كانت قد قاربت تدعيم سيطرتها الكاملة في غرب البحر المتوسط ، وبدأت تنظر إلى حفظ التوازن الدولي في القسم الشرق لهذا البحر على أنه أمر جوهري وحيوي للبقاء على كيانها الدولي وعلى مصالحها .

وفي الواقع فإن البطالة إذا كانوا قد عرفوا الاحتكاك الذي وصل في بعض الأحيان إلى الصدام مع القائمين على الأمور في سورية وفي مقدونية ، وإذا كانت الظروف الجديدة بعد رفح ستؤدي إلى أن تصبح رومه بالتدريج عنصراً ظاهراً في البداية ، ثم مسيطراً بعد ذلك ، في توجيه السياسة المصرية ، فإن هذا لا يعني أن البطالة لم يحتكوا برومه قبل هذه المرحلة . فقد ابتدأت العلاقة بينهما في وقت مبكر يرجع إلى الشطر الأول

من القرن الثالث ق.م. في ذلك الوقت كانت رومه قد انتهت إلى حد ما من تدعيم قواتها في شبه الجزيرة الايطالية وبدأت أول احتكاك جدي لها مع العالم المتأغرق ، حين اشبكت مع بيروس Pyrrhos (ملك لميروس) في صراع امتد ست سنوات وانتهى في ٢٧٥ ق م. بحروج رومة ظافرة لتصبح ، لأول مرة قوة معترف بها في البحر المتوسط . وقد كان ضمن من اعترفوا بهذه القوة الجديدة بطلميوس فيلادلفوس ملك مصر في ذلك الوقت ، الذي كان يرقب دون شك هذا الصراع بين الدولة الناشئة والملك المتأغرق ، فقد أوفد إلى رومة سفارة في ٢٧٣ ق م. كما أرسل مجلس الشيوخ الروماني بدوره سفارة إلى مصر ، وكانت نتيجة هذا التبادل عقد اتفاق بين مصر ورومة ، ورغم التفسيرات العديدة التي أعطيت لهذا الاتفاق وسواء أكان الغرض منه تجاريا أو كان فيلادلفوس يرمى من ورائه إلى كسب سياسي مباشر أو غير مباشر ، فإن العلاقة التي قامت بين البلدين إذ ذاك والتي امتدت حتى فرغت رومة من حروبها مع قرطاجه لم تعتمد الحدود الضيقة للتعامل التجاري والاعتراف السياسي المتبادل (١٦٠) .

ولكن رومه ، بعد أن تخلصت من الخطر القرطاجي في موقعة زامة Zama (٢٠٢ ق.م) ، واطمأنت بذلك بعض الشيء لمركزها في غربي

(١٦٠) عن السفارة التي أرسلها فيلادلفوس Liv, xiii p, 1 sq. عن مغزى السفارة

راجع : Rostovtseff; Sac. & Econ. Hist. of the Hell. world, I, 395 .

Bouché - Leroq. op. cit., I, 319

محمد عواد حسين : نشأة المسألة المصرية في السياسة الرومانية (المجلة التاريخية

المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ١ ، ١٩٥١) ص ١ .

المتوسط ، لم تلبث أن وجهت اهتمامها لمعالجة الوضع الناجم عن الاطماع المتضاربة لحكام سورية ومقدونية ، الذين رأيناهم يتحفزون لابتلاع ممتلكات مصر والسيطرة على النصف الشرقى للبحر المتوسط . وهكذا وجدت رومة نفسها مدفوعة ، فيه سبيل المحافظة على قوتها الجديدة ، إلى التدخل لوضع حد لنشاط هؤلاء الحكام . وتحت هذه الظروف ، ونتيجة لها ، بدأت مصر تعرف رومة ، لا كمنظير يقف منها على قدم المساواة كما كان الحال منذ اتفاق فيلادلفوس ، ولكن كقوة كبرى لها صفه جديدة ووضع جديد .

٢ - بداية التدخل الرومانى فى شئون مصر

على أن هذه العلاقة الجديدة بين مصر ورومة ، التى شهدت بداية التدهور السياسى المصرى ، والتى قادت فى النهاية إلى فتح الرومان لمصر ، كما تقود المقدمة إلى النتيجة ، لم تتخذ فى مرحلتها الاولى سوى شكل سلبى ، فرومة لم تتدخل فى شئون مصر إلا لتجند من اطماع واحد أو أكثر من أعدائها حين كان مجلس الشيوخ الرومانى يجهد فى مد هذه الاطماع عبر حدود مصر أو أملاكها ما يودى إلى تضخم قوة أحد حكام العالم المتنازق ، وبالتالي إلى اضطراب التوازن الدولى فى هذه المنطقة ، مما يعرض نفوذ رومة للخطر من الشرق . فاذا لم يكن هناك خطر خارجى على مصر لم تتدخل رومة إلا حين يثور النزاع الاسرى على العرش بين أفراد البيت الحاكم البطلمى (وما أكثر ما كان يثور فى ذلك الوقت) ، وحتى فى فض هذا النزاع نجد أن تدخل رومة يحتفظ بشكاه السلبى فتجتزىء منه رومة بأقرار الامور فى مصر لئلا تتعرض المذنبات

النتيجة عن محاولات التضخم السياسى فى هذه المنطقة ، حتى إذا فرغت من فض النزاع الذى دعت من أجله تركت مصر وشأنها حتى يثور طرف آخر يستدعى تدخلها .

وقد بدأ هذا التدخل فى ١٩٠ ق.م. فى السنة السابقة لهذا التاريخ وجد بطليموس الخامس (إبيفانيس) Epiphanes نفسه يواجه تهديدا مزدوجا ، إذ كان انطيوخوس الثالث ، الملك السلوقى ، وفيليب الخامس ملك مقدونية قد اتفقا فيما بينهما على اقتسام أملاك مصر ، وأمام هذا الخطر المحقق بمملكته بعث الملك البطالى إلى رومه يستعديها على انطيوخوس ودعم رسالة هدية من القمح والمال ويعرض بوضع بموجب موارد مصر تحت تصرف رومة . وقد رفضت رومة العرض والهدية ، ولكنها باتتصارها على القوات السلوقية فى موقعة ماجنيسيه Magnesia فى ١٩٠ وبمعاهدة أباميه Apamia بعدها بسنتين استطاعت أن تستذل كلا من انطيوخوس وفيليب واصبحت المتصرفة فى شئون الشرق بما فى ذلك مصر (١٦١) . حقيقة إن رومه لم تكن كسبا ماديا سواء فى مصر أو خارجها ولكن الدهوة التى وجهها إليها ملك مصر والموقف الحاسم الذى وقفته رومه من أعدائه ، وإن كان أولا وآخرأ لصالح النفوذ الرومانى فى الشرق إلا أنه وضع مصر فى وضع التابع من رومة .

على أن موقف بطليموس الخامس لم يكن إلا الحلقة الأولى من سلسلة المواقف التى ربطت مصر بصفة نهائية بعجلة النفوذ الرومانى ،

ففي عهد خلفه بطليموس السادس philometor ، يتكرر الموقف السابق مع اختلاف طفيف في التفاصيل . فحين يحاول ملك مصر استرداد الاملاك المصرية في فلسطين يرد عليه انطيوخوس الرابع بدخول مصر ومحاصرة الاسكندرية (١٧٠ - ١٦٨ ق.م) وهنا ، مرة أخرى ، يستنجد الملك البطلمي برومه ويتدخل مجلس الشيوخ الروماني بصورة حاسمة فيرسل مبعوثه بوبليوس لايناس C. Popilius Laenas ليفض هذا الموقف الذي قد يؤدي إلى تقوية نفوذ الملك السلوقي على حساب النفوذ الروماني . ويقال في هذا المجال إن مبعوث مجلس الشيوخ حين أمر أنطيوخوس بالانسحاب من مصر فوراً ، رسم بعصاه دائرة حول المكان الذي يقف فيه هذا الملك وطلب إليه أن يعطيه جواباً قاطعاً بالموافقة أو الرفض قبل أن يخطو خارج هذه الدائرة (١٦٢) . وسواء أصحت هذه الرواية أم قصد بها القاء ضوء مسرحي على الموقف الحاسم الذي وقفته رومه ، فقد انسحب أنطيوخوس من مصر وبذلك أصبح الملك المصري مديناً بعرشه لرومه .

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد الذي دعم من نفوذ رومه في مصر في عهد هذا الملك ، فقد ثار موقف آخر حين تنازع بطليموس السادس مع اخيه الاضغر بطليموس السابع على العرش ، وحاول كل منهما أن يحصل على تأييد مجلس الشيوخ الروماني لكي ينفرد بالحكم . ففي ١٦٤ يسافر الاخ الأكبر إلى رومه ويحصل على تأييد منها بأن تكون له مصر

وكل الممتلكات المصرية خارج الحدود ، وفي السنة التالية يسافر الأسخ الأصغر بدوره ويقنع مجلس الشيوخ بتعديل قراره السابق وتنصيبه ملكا على قبرص (أحد الممتلكات المصرية) . ولكن روما في موافقها هذه لاتدعم تأييدها بأية مساعدة مادية لأحد الاخوين ، وهكذا يستمر النزاع بينهما ويتكرر ذهاب كل منهما إلى رومه طالبا العون والتأييد ومبرهنا على ولائه لها بشتى الطرق ، ويتكرر تبعا لذلك موقف رومه من تأييد هذا مرة وذاك مرة أخرى دون أن تحسم النزاع بشكل نهائى . وواضح أنها كانت ترى من وراء ذلك إلى ترك الامر على ما هو عليه مادام لايسبب متاعب حقيقية لنفوذها في الشرق ، وربما كانت ترى كذلك في استمرار هذا النزاع ما يزيد من تدهيم نفوذها على أساس نظرية فرق تسد *divide et impere* التى بلورها الرومان إلى حد كبير .

ولعل خير مثال يدل على مدى اندفاع الحكم المصرى إلى فلك النفوذ الرومانى فى تلك الفترة هو الوصية التى كتبها بطليموس السابع فى ١٥٤ ليوصى فيها بما كلفه فى يرقه Kyrene للشعب الرومانى إذا توفى لآى سبب دون أن يترك وريثا لعرشه (١٦٣) .

أما التدخل الذى أعقب ذلك فقد حدث فى ظروف يمكن أن نعتبرها إلى حد كبير امتدادا لظروف التدخل السابق ، وإن كان التدخل نفسه قد بدأ يأخذ فى هذه المرة طابعا ينهى بأن مرحلة التدخل السلمى الذى درجت عليه

U. Wilcken : Urkunde der Ptolemaeerzeit, I, 188, (١٦٣)
Bevan : op. cit., 201 M N.Tod : Greece and
Rome, II, 47 sq.

رومه حتى الآن قد استنفدت غرضها من مجرد حفظ التوازن السياسى فى هذه المنطقة ، وأن مرحلة أخرى من التدخل تنسم بطابع آخر مختلف قد أصبحت وشيكة البدء . فى هذه المرة يثور النزاع الاسرى مرة أخرى بين أفراد الأسرة البطلمية ، فبطليموس السابع لم يسكد يخلو له الجو بوفاة اخيه الاكبر الاياواجه منافسة أميرتين من أعضاء البيت المالك ، وهنا تقوم رومه مرة أخرى ، أمام بعض الشكاوى التى وصلت إليها من منافستى الملك ، بتكليف احد مبعوثى مجلس الشيوخ إلى المنطقة الواقعة فى شرق المتوسط ، وهو سكيبو ايميليانوس Scipio Aemilianos بفصل الامر بين المتنازعين .

وحقيقة أن موقف سكيبو من هذه المسألة ان يتهدى بعض المعاملة الجاففة مع بطليموس ليظهر له أن رومه غير مرتاحه إلى موقفه ، بينما يترك الامر ليسويه المتنافسون فيما بينهم بطريقتهم الخاصة ، ولكن عاملا جديدا سيميز موقف روما هذه المرة عن مواقفها السابقة . فالزيارة التى قام بها سكيبو إلى مصر لم تكن لمجرد فض النزاع بين الامراء المصريين ، ولكنها كانت جزءاً من جولة كلفه بها مجلس الشيوخ ليتفقد احوال الممالك الواقعة فى شرقى البحر المتوسط ، وهو حين يزور مصر لا يكتفى بمجرد الاغ رغبة مجلس الشيوخ الرومانى فيما يخص النزاع الاسرى البطلمى ، ولكنه يعاير الاسكندرية بمينائها ومناراتها ، ويركب النيل حتى منف ويرى الحقول الغنية بالمحصول والعدد اللانهاى من القرى والمدن الريفية التى تتسكنل بين الحين والحين عبر هذه الحقول ، وهو فى اثناء ذلك لابد سيقدر القيمة الاقتصادية لتجارة الاسكندرية ولنتائج حقول الدلتا ، وسيدرك كيف احسن بطليموس الاول الاختيار حين اتخذ مصر قاعدة لملكه ومركزا لنشر نفوذه فى شرقى

المتوسط ، وكيف يمكن أن تصبح تلك البطالة موردا هاما من موارد
الامبراطورية الرومانية وقاعدة لحفظ نفوذها في الشرق (١٦٤).

٣ - تزايد التدخل الروماني في شئون مصر

الحلقة الثانية من تدخل رومه في شئون مصر يشغل أغلبها حكم
بطليموس الحادى عشر Auletes الذى قضى كل فترة حكمه (٨٠ - ٥١
ق.م) يدافع عن عرشه مرة أمام عدم اعتراف رومه به ومرة أمام
ابنته بيرينيكى الرابعة التى كانت تطامع فى هذا العرش ومرة أمام الشعب
السكندرى الذى ناصبه العداء فى أكثر من مناسبة ، أما الجزء الباقى فيشغله
حكم بطليموس الثانى عشر وبطليموس الثالث عشر والقسم الاول من
حكم كليوباتره السابعة ، الى ندر لها فى نهاية حكمها أن تلعب أهم دور
فى علاقة مصر برومه .

وقد ميز هذه الفترة من التدخل الروماني فى شئون مصر ، عدد من
العوامل التى لم تظهر فى خلال المرحلة السابقة . أول هذه العوامل هو أن
المسألة المصرية بدأت تظهر بشكل واضح فى السياسة الرومانية ، إذ بدأت
تدخل كعنصر هام فى براجم الاحزاب المتصارعة على الحكم داخل رومه ،
كل يحاول أن يكون له السبق فى الاستيلاء عليها بينما يعمل جامها على
إحباط مساعى الحزب المناوئ فى هذه السبيل . والسبب فى ذلك مزدوج

Justin. : XXXVIII, 8, 8; Athen.: XII, 549 - 50; Diod.: (١٦٤)

Bevan: op. cit., 310; Bouché : XXXIII, 28

Leclercq, op. cit., II, 86; Cary: op. cit., 224

فالفتره التي نحن بسبيل الحديث عنها كانت تشهد تطورا سريعا في الاتجاه السياسى فى رومه علا فيه نجم القواد العسكريون ، بعد أن أصبح توسيع حدود الامبراطورية والمحافظة على هذه الحدود رهنا بكفاية هؤلاء القواد ، وقد كان من الطبيعى تحت هذا الظروف أن يدرك هؤلاء القواد قيمة كفايتهم الحربية فى مجال مد النفوذ السياسى لرومه ، ولم يمض وقت طويل قبل أن يبدأوا فى استغلال المجد الذى يكسبونه فى ميدان القتال كدعامة يقوم عليها ظهورهم السياسى داخل رومه ، وبخاصة إذا عرفنا أن سيطرتهم على جنودهم كانت تامة ، إذ كانت التعبئة العسكرية فى رومه تقوم أساسا ، فى تلك الفتره ، على التطوع ، وكان تمويل القوات المتطوعة ، سواء فى أثناء جمعها أو من حيث تكاليفها فى الميدان أمرا يقع على عاتق القائد بصفتة الشخصية ، وليس على عاتق الدولة (١٦٥) ، وهكذا انتقل ولاء الجندى من الدولة إلى القائد ، وتحت هذه الظروف أصبح ضم دولة مثل مصر إلى ولايات الامبراطورية عملا يحقق المجد العسكرى للعائد الذى يقوم به كما يودى إلى التفوق السياسى له وللحزب الذى ينتمى اليه . أما السبب الآخر فهو أن ثروة مصر ومواردها ستصبح دون نزاع دعامة اقتصادية من الطراز الاول للحزب الذى يقيس له الاستيلاء عليها ، كما لا بد أن يودى تدفق هذه الثروة وهذه الموارد إلى رومه إلى إنعاش الحالة الاقتصادية فى المجتمع الرومانى عموما .

(١٦٥) الذى قام بادخال هذا النظام فى القوات العسكرية الرومانية هو ماريوس Marius فى أواخر القرن الثانى ق م .

في هذه الظروف إذن بدأ الصراع بين الأحزاب الرومانية على الاستيلاء على مصر ، وبدأ زعماء هذه الأحزاب في اختلاق الأعذار وترتيب المناورات للوصول إلى ذلك . وسأجزيء لنصوير هذا الوضع بذكر محاولتين للحزب الديمقراطي في هذا المجال ، وقد ظهر في المحاولتين يوليوس قيصر كأحد زعماء هذا الحزب ، وكان يرمى من ورائهما إلى موازنة الظهور العسكري والسياسي الذي وصل إليه قائد آخر هو بومبيوس Pompeius ، بعد أن وصل نفوذ هذا الأخير إلى درجة هائلة عندما أعطى سلطة غير عادية مرة في ٦٧ ق م . للقضاء على خطر القرصنة الذين كانوا يهددون مصالح رومه في شرق البحر المتوسط ، ومرة أخرى في السنة التالية لقيادة الحرب ضد مثراداتيس الذي كان يهدد نفوذ رومه في الشرق (١٦٦) .

وفي المحاولة الأولى نجد الحزب الديمقراطي يتقدم عن طريق المناورات الدستورية باقتراحين يقضى أولهما بفرض جزية على مصر لمواجهة النفقات التي تسكفها رومه في حربها ضد مثراداتيس ، بينما يفضى الآخر بمنح يوليوس قيصر سلطة استثنائية ليقوم بتنظيم ولاية مصر الرومانية ، معتمدين في ذلك على أن مصر قد أصبحت ، من الناحية القانونية ، ولاية رومانية ، بمقتضى وصية كان قد تركها بطلميوس العاشر يوصى

(١٦٦) يجد القارئ العربي تفصيلاً لظروف إعطاء بومبيوس هاتين السلطتين في : عبد اللطيف أحمد علي : التاريخ الروماني ، عصر الثورة ، صفحات

فيها بمصر بعد وفاته للشعب الروماني (١٦٧). وحين استطاع شيشرون ، وهو إذ ذاك من أنصار بومبي وحزب المحافظين ، أن يحبط هذه المحاولة ، حاول الديموقراطيون أن ينفذوا خططهم مرة أخرى بأن يقدموا في ٦٤ ق. م. مشروع قانون زراعى مؤداه أن تنشأ مستعمرات لعامة الرومان في الأراضى الصالحة للزراعة داخل إيطاليا ، فإذا لم تكف هذه ، فتشترى لهذا الغرض مساحات أخرى من الأراضى الخاصة ، على أن يحصل المال اللازم لذلك عن طريق بيع أجزاء من الأملاك الرومانية الواقعة خارج إيطاليا . ورغم البراءة الظاهرة لهذا المشروع الذى أوحى به قيصر ، فقد هاجمه حزب المحافظين مرة أخرى على لسان شيشيرون الذى أظهر في لباقة سياسية فائقة أن حدود هذا المشروع تنسج في الحقيقة ، لتشمل بمالك بأكملها مثل بيشنيه والاسكندرية ومصر ، (١٦٨) .

* * *

(١٦٧) عن الاقتراحين أنظر Plut: Crassus, 13, Suetonius) Caesar, xl راجع التعليق على ما ذكره سويتونيوس في :

محمد عواد حسين : نشأة المسألة المصرية ... الخ ، ص ، ١٥ ، حاشية ٢ .
عن الوصية واحتمال أنها كانت مزيفة راجع : عبد اللطيف أحمد على :
مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، ص ١٣ ، كذلك :
Voiterra: Le Testament de Ptolémée Alexandre II Roi
d Égypte (Bulletin de l'Inst Fr. d. Arch. xxi)

(١٦٨) كان الرومان ينظرون إلى الاسكندرية على أنها كيان قائم بذاته ومن هنا تسميتهم لها
Alexandria ad Aegyptum أى الاسكندرية المجاورة لمصر. قام بتقديم
المشروع للنقاشه نقيب العامة Servilius Tullus عن رد شيشرون على
المشروع أنظر : Cicero : Leg. ١ gr عن مناقشة المشروع والتعليق
عليه راجع : محمد عواد حسين : نفسه ، صفحات ١٦ - ١٨ ، كذلك :
عبد اللطيف أحمد على نفسه ، صفحات ١٥٥ - ١٥٨ .

والعامل الثانى الذى ميز هذه الفترة هو التدخل العسكرى الرومانى فى مصر . حقيقة إن التدخل لم يكن سياسة رئيسية موجهة من جانب رومة ، بل كانت تغلب عليه النزعة الفردية ، بحيث يمكن اعتباره مجرد مغامرات شخصية متفرقة لغرض عسكرى أو سياسى ، وحتى مع هذا فلم يكن الدخول فى مصر فى كثير من كثير من هذه المغامرات مقصودا لذاته ، وإنما كان يتم كجانب من خطه تهدف إلى غرض آخر أوسع . ولكن رغم كل ذلك كان هذا التدخل العسكرى سابقة أشارت دون شك إلى طرق جديدة يمكن أن تسلكها رومة فى علاقتها مع مصر ، وجعلت مسألة التدخل المسلح مسألة لا تحتاج بعد ذلك إلى دفع وجذب كثيرين من الأحزاب . ومن أمثلة هذا التدخل ما حدث فى ٥٥ ق . م . حين وجد بطليموس الحادى عشر ابنته بيرينيكى الرابعة تنازعه عرشه بعد أن نصبها الإسكندريون ملكة على مصر فى غيابه . لقد طلب بطليموس إلى جابينيوس الحاكم الوماني لسورية ، أن يتدخل ليعيده إلى عرشه واستجاب جابينيوس لطلبه ، فزحف على مصر واحتلها لحساب الملك المصرى المخلع فى ربيع العام نفسه ، وإن كان عمله هذا لم يرض دون موازنة شديدة من جانب السلطات فى رومة (١٦٩) .

ولم يكن تدخل جابينيوس على هذا النحو هو المثال الوحيد لهذا الاتجاه العسكرى الجديد ، فقد كانت مصر مسرحا لتدخل جديد فى ٤٧ ق . م . حين كان قيصر بسبيل مطاردة پومبيوس ، خصمه السياسى . لقد احتوى پومبيوس فى مصر وكان لا بد لقيصر أن يدخل بقواته ليأسر غريمه ،

وحقيقة إن بومبوس أُغتيل قبل أن يقع في يد قيصر ، ولكن هذا
الآخر لم يلبث أن وجد نفسه يخوض معركة مع القوات المصرية عرفت
باسم حرب الاسكندرية Belluw Alexandrinum انتهت بانتصار قيصر
ومقتل الملك المصري ، : إن كان قيصر قد اكتفى من هذا النجاح العسكري
بأن نصب على عرش مصر اثنين من أمراء البيت البطلمي كان يعتقد في
ذلك الوقت أنها على قدر كبير من الولاء له ولرومة ، وهما كليوباترة السابعة
وأخوها الأصغر بطليموس الرابع عشر (١٧٠) .

أما المثال الثالث للتدخل العسكري فقد تم بعد ذلك بستة أعوام
حين دعت كليوباترة السابعة أنطونيوس لزيارة الاسكندرية وليساعدها ،
لقام معونتها المالية له ، في القضاء على أخوها الصغير ، أرسينوى ، التي
كانت تنافسها على عرش مصر . وكان يوليس قيصر قد رأى أن يقضى
هذه الاميرة عن مصر عندما نصب على عرشها كليوباترة وأخوها ، تفاديا
لنشوب نزاع على العرش فأرسلها إلى رومة (حيث عرضت في موكب
النصر الذي أقامه قيصر في ٦ ق. م) ثم نقلت بعد ذلك إلى معبد إفسوس
وهناك لقيت مصرعها بتدبير من أنطونيوس على ما يبدو ، استجابة لرغبة
كليوباترة (١٧١) .

* * *

على أن ظهور المسألة المصرية في السياسة الرومانية والتدخل العسكري
في مصر لسبب أو لآخر لم يكوئا الظاهرتين الوحيدتين اللتين ميزا علاقة

(١٧٠) Plut.: Caesar, 49, Dio Cassius : XLII, 34 راجع كذلك :

Cary : op. cit., 404; Bevan: op. cit., 363

Dio Cassius: XLIII, 3; Joseph.: Ant. Jud, xv,4 (١٧١)

رومة بمصر في هذه المرحلة ، وإنما ظهرت إلى جانب ذلك عوامل أخرى ، فقد بدأت روما تتحين الفرص لتقتطع أجزاء من الممتلكات المصرية ثم تحولها بصفة نهائية إلى ولايات رومانية . لقد حدث ذلك في برقة التي مات ملكها في ٩٦ ق.م. بعد أن أوصى بها لرومة ، وقد اعتدت رومة على هذه الوصية ففرضت نفوذها على برقة وإن لم يعتمد هذا في بداية الأمر الاستيلاء على أراضي الملك وفرض بعض الضرائب ، بينما تركت الأمور الداخلية تنمير في مجراها المعتاد تحت إمرة أحد أفراد البيت البطلمي . ولكن هذا الوضع لم يستمر ، ففي ٧٤ ق.م. حولت برقة إلى ولاية رومانية وعين لها حاكم روماني (١٧٢) ، وهكذا انتقلت هذه المنطقة إلى رومة بعد أن ظل البطالمة يحكمونها مدة ٢٢٦ عاما وأصبح الخطر الروماني يربض بصفة دائمة على مسافة ٨٠٠ كيلو مترا غرب الاسكندرية .

ولم يكن الاستيلاء على برقة هو الاعتماد الوحيد على الممتلكات المصرية ، فقد تكرر في ٥٨ ق م حين قدم كلوديوس ، أحد أعموان يوليوس قيصر ، مشروع قانون يقضى بأن تصبح قبرص (وكانت من ممتلكات مصر) ولاية رومانية . وقد تمت الموافقة على هذا المشروع وأرسل مجلس الشيوخ ماركوس كاتو إلى الجزيرة لكي يقنع ملكها

(١٧٢) 2 , 5 , Juslin.: xxxix, راجع 332 Bevan : op. cit. هذا وكانت

مسألة توريث برقة لرومة قد وردت قبل ذلك في وصية كتبها بطليموس يوجينيوس الثاني (والد الملك الذي نتحدث عنه) حين كان ملكا على برقة. ولكن هذه الوصية لم توضع موضع التنفيذ لظروف تتعلق باسترداد عرش مصر وتوريثه برقة لابنه . راجع ترجمة عربية لهذه الوصية في : عبد اللطيف على نفسه ، ص ١٠

المصري بأن يوصى بمملكته لرومة . وقد آثر الملك ، أمام الضغط الروماني أن يضع حداً لحياته ، وهكذا انتقل جزء آخر من الممتلكات المصرية إلى رومة التي قدمت كسبب لخطوتها هذه أن هذا الملك الثرى لم يظهر في علاقاته مع الرومان كرمياً كافياً (١٧٣) .

* * *

وأخيراً ، وإن لم يكن آخر ، فقد أخذ الساسة الرومان يدخلون في اعتبارهم ، فيما يتعلق بمصر ، عنصراً لم يكونوا يعيرونه انتباهاً كبيراً من قبل . ذلك هو ثروة البيت المالكة المصري . لقد رأينا في مناسبة سابقة كيف رفضت رومة الهدايا المصرية من القمح والمال وعروض ملك مصر بوضع موارد مملكته تحت تصرف الرومان في سبيل مساعدته في رجه الخطر السلوقي المقدوني المشترك الذي كان محققاً به ، أما الآن فقد تغير الموقف تغيراً كلياً بحيث أصبح ما كان يرفض بالأمس هو قاعدة التعامل المعترف بها ! فلك مصر لا يتوانى عن بذل الرشاوى الباهظة ليحصل على اعتراف رومة بعرشه ، وأولو الأمر في رومة ، سواء من تقواد أو زعماء الأحزاب السياسية أو أعضاء مجلس الشيوخ ، يخجلون في برامجهم جانباً لهذه الرشاوى ، بل ويطلبونها إن لم تأت من تلقاء نفسها .

لقد حدث ذلك في ٦٠ ق. م في هذه السنة ظفر يوليوس قيصر بمتنصب القنصلية وأصبح في مقدوره أن يستغل ما لهذا المنصب التنفيذي

(١٧٣) يجد القاريء العربي عرضاً وافياً لمشكلة قبرص في : عواد حسين ، نفسه ، صفحات ٢٢ - ٢٥ (المصادر في ذيل الصفحات) .

الأول في رومة من وزن ، سواء في معرض المناورات الدستورية ، أو في مجال الضغط الأدبي لتحقيق ما كان يهدف إليه من إدخال مصر في نطاق الامبراطورية الرومانية ، وهنا نجد قيصر يرسل إلى بطليموس أوليتيس يطلب إليه مبلغ ستة آلاف تالنتا ثمنا لاعتراف رومة بوضعه كملك لمصر ، ويسارع الملك البطلمي في دفع المبلغ المطلوب يفتدى به عرشه . وتكون النتيجة هي أن يمرر قيصر ، رغم معارضة الارستقراطيين ، قانونا في أوائل السنة التالية تعترف فيه رومة بأوليتيس ملكا شرعيا لمصر ، وتدعمه بمعاهدة يصبح بمقتضاها الملك المصري حليفنا وصديقا للشعب الروماني ، (١٧٤) .

وقد تكرر الوضع مرة أخرى بين ٥٨ - ٥٥ ق . م . حين احتدم النزاع بين أوليتيس وشعب الاسكندرية . فقد ذهب الملك ، الذي كاد يفقد عرشه ، إلى رومة ليحصل على التأييد اللازم لموقفه وفي سبيل ذلك وزع على الساسة وأصحاب النفوذ من الرومان كل ما معه من هبات وأموال ، بل واضطر قوق ذلك أن يستدين مبالغ طائلة لكي يتمكن من تقديم هذه الرشاوى . ويمكننا القول أنه نجح بهذه الطريقة في أن يشترى تأييد أعضاء مجلس الشيوخ جميعا ، حسبما يذكر لنا شيشرون في دفاعه عن رابيوريوس بوسثوموس ، أحد المعوليين الرومان الذين اقترض منهم الملك المصري مبالغ كبيرة في هذه المناسبة (١٧٥) .

ولم تنته هذه الفترة التي غابها أوليتيس عن مصر دون أن تشهد أمثلة أخرى من الرشوة التي أصبحت أحد العناصر الأساسية في علاقة مصر

: Suetonius: Caesar, 54, Cicero: Ad Attic. II 5-16 (١٧٤) راجع :

Bevan: op. cit., 352

Cicero: Pro Rab., 3

(١٧٥)

برومة في ذلك الوقت . فالملك المصرى الذى استطاع أن يحصل على التأييد السياسى والادبى من أعضاء مجلس الشيوخ ، لا يلبث أن يتصل بجايانيوس الحاكم الرومانى لسورية على نحو ما فصلت ويقدم له مبلغا باهظا من المال كثمن لمساعدته عسكريا على استعادة هرشه (١٧٦) . وقد أشرت في مناسبة سابقة إلى المعونة التى قدمتها كليوباترة السابعة إلى أنطونيوس لمساعدتها فى التخلص من أختها التى كانت تنافسها على العرش .

(١٧٦) عن التفاصيل راجع : عواد نفسه ، صفحات ٣٨ - ٤١ (المصادر فى ذيل الصفحات) .

الباب الخامس

المرحلة الأخيرة : عهد كليوباتره السابعة

١ - الاتجاه الجديد في السياسة الخارجية البطلمية

ثم يأتي عهد كليوباتره السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.) ، آخر حكام البيت البطلمي ، وهو يغطي المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل السياسة الخارجية البطلمية . وفي بداية هذا العهد نجد استمرارا لموقف التبعية لرومه ، الذي لمسناه في المرحلة السابقة ، فيوليوس قيصر هو الذي سيفصل في مسألة تولي العرش حين يموت بطليموس أوليتيس ، فيضع ابنته كليوباتره وأكبر أخويها على هذا العرش حسب وصية أبيهما ، ويبعد عن مصر أختها التي كانت تنافسها في الملك . كذلك نجد كليوباترة ، على نحو ما مر بنا ، تلجأ إلى أنطونيوس ، القائد الروماني ، لكي تتخلص نهائيا من أختها هذه التي كانت كليوباترة لا تطمئن على عرشها طالما بقيت (الأخت) على قيد الحياة .

ولكننا مع ذلك نلحس إلى جانب هذا الاتجاه ، إتجاها آخر جديدا مؤداه أن هذه الملكة كانت تهدف إلى ما هو أكثر من مجرد الحصول على اعتراف روماني بالعرش الذي تشغله . فحين يأتي قيصر إلى مصر لا تكتفي باعتراقه بمركزها مع أخيهما على عرش مصر ، وإنما تحاول أن تكسب قيصر بطريقة جديدة لهدف أبعد من ذلك . فهي تنجب ابنا منه في ٤٧

ق م. وتعطى هذا الحدث (رغم عدم شرعيته الظاهرة) وضعاً شرعياً فتسجل على جدران معبد أرمنت أنها أنجبت هذا الابن من آمون رع ، بعد أن تبدى لها وخالطها في صورة يوليوس قيصر - وهو وضع إن دل على شيء ، فعلى اتجاه جديد مؤداه محاولة الارتباط بقيصر ، لتصبح معه على رأس إمبراطورية تكون مصر مجرد ولاية من ولاياتها (١٧٧) . فقد كانت كليوباتره تدرك دون شك قوة مركز قيصر ، وهو مركز جعل منه سيداً فعلياً لرومه .

ومن المحتمل أن قيصر ، من جانبه كان على اتفاق معها على هذه الرابطة عن طريق الزواج ، فقد اعتبرت كليوباتره نفسها زوجة له بالخطوة التي أقدمت عليها في معبد أرمنت - وهو أمر كان يضعهما في أكثر من مأزق إذا لم يكن قيصر متفاهماً عليه ، أو على الأقل راضياً عنه ، كذلك فإن مؤرخاً واحداً على الأقل يذكر أن قيصر أعترف بأبوته لهذا الابن ، وفوق ذلك فقد ذهبت كليوباتره فعلاً إلى رومه وأقامت هناك فترة على مقربة منه . ولكن على أى الأحوال فإن هدف كليوباترة من علاقتها بقيصر لم يتحقق ، إذ كان أعداؤه (وبعض أصدقاءه الذين كانوا يخشون أن يعلن نفسه ملكاً على رومه - ذلك اللقب البغيض إلى نفوس الرومان) - أقول كان أعداؤه أسبق من آمال كليوباتره التي عقدتها على الارتباط به ،

(١٧٧) عن انجاب كليوباترة لابناً من قيصر : Dio : Caesar, 49; Plut. :

Cass.; XLVII, 31 عن التعليق على هذا الحدث وعلى إعلان كليوباتره

لأصل هذا الميلاد راجع . نصحي ، نفسه ، ج ١ ، ط ٢ ، صفحات

فقتلوه في ٤٤ ق م. وقنعت الملكية البطلمية من الغنيمة بالإياب ، بعد أن تأكدت أن حياتها ستكون معلقة على كف القدر لما هي بقيت في رومه مدة طويلة ، وبخاصة إذا عرفنا أنها أوعزت ، بتعاليتها ، كل الصدور ، بما في ذلك حتى من أرادوا التقرب إليها (١٧٨).

* * *

ولكن إذا كانت هذه الملكية قد قدر لمحاولتها ألا تأتي بالنتيجة التي كانت تهدف إليها ، فقد ظل الأمل يراودها في نفس الاتجاه ، وقد جعلت وسيلة إلى تحقيق هدفها أن تستغل ، مصلحتها ، الظروف التي كانت تسود رومه في ذلك الوقت . وحقيقة أن محاولتها ستنتهي بالاختفاق وبسقوط مصر لتصبح إحدى ولايات الإمبراطورية التي كانت كليوباترة تمنى وتهدف إلى أن تصبح على رأسها كشريك لمن يصل إلى مركز السيادة في رومه ، ولكن مع ذلك فقد شككت هذه المحاولة أول (وآخر) عمل جرى في الشطر الثاني من حكم البطالمة لانتشال السياسة المصرية الخارجية من وهدة التدهور الذي كانت قد تردت فيه .

وتفصيل ذلك أن المسألة المصرية التي كانت قد أصبحت في القرن الأخير قبل الميلاد أحد العناصر الرئيسية في برامج الأحزاب المتصارعة في رومه ، قد تطورت أثناء حكم كليوباترة السابعة لتصبح العنصر الأساسي

(١٧٨) اعتراف قيصر بأبوت لابن كليوباترة منه : Suetonius: Caesar, 52.

ذهاب كليوباترة إلى رومه : Dio Cassus: XLIII, 27 . عودة

كليوباترة إلى مصر بعد مصرع قيصر : Cicero: Ad. Attic, XIV, 8.

عن تعالي كليوباترة وضيق الشخصيات الرومانية من هذا التعالي Ibid. XV, 15.

الذى سيحدد مصير رومه والامبراطورية التى تدور فى فلكها . فى ذلك الوقت كانت الأحوال السياسية فى رومه قد بدأت تتخذ اتجاهها قدر له أن يقودها إلى أخطر انتقال سياسى لها منذ سقوط الملكية قرابة خمسة قرون قبل ذلك . فالقادة العسكريون الذين بدأ نجمهم فى الصعود منذ أيام ماريوس بعد أن أصبحوا يشكلون الدعامه الاولى لتوسيع الاملاك الرومانية ، لم يعودوا فى الفترة الاخيرة يستمدون قوتهم من مناصرتهم لطبقة العامة مرة ولطبقة الارستقراطيين مرة أخرى ، وإنما أصبح الهدف الصريح الذى يرى اليه كل منهم هو الحصول على سلطة فردية لنفسه بعد أن فقد الصراع القديم بين الطبقتين عمقه ومغزاه السياسى نتيجة لحصول العامة على مطالبهم الاجتماعية والسياسية . وهكذا قام القواد العسكريون من حيث الواقع ، بالدور الاول فى تصريف أمور الدولة ودفعوا بالمجالس التى تمثل طبقتى الارستقراطيين والعامة إلى مؤخره المدرج السياسى ليقيموا فيه بدور ثانوى هو مجرد إضفاء الضفة الدستورية على تصرفات القواد المتصارعين على الانفراد بالسلطة (١٧٩) . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان الحكومة الثلاثية الثانية التى قامت فى رومه بين أنطونيوس وأكتافيان وليبيدوس كانت قد أصبحت فى الحقيقة دكتاتوريه ثنائية ، بعد أن نجح أنطونيوس وأكتافيان فى إقصاء شريكهما ، وبعد أن قسما الامبراطورية فيما بينهما إلى منطقتى نفوذ .

(٧٩ .) عن وصول القادة العسكريين إلى مركز القوة فى السياسة الرومانية

راجع : Léon Homo : Roman Political pp. 147 — 67

(ترجمة انجليزية) Institutions .

وقد أدى هذا الوضع الجديد ، بجانبه ، إلى تطور جديد في التسابق على السلطة فاختلفا الشريك الثالث في حكومة القواد الثلاثة أفقد هذه الحكومة عنصر التعادل بين أطماع كل من أنطونيوس وأكتافيان ، وعجل بدفع هذه الاطماع المتعارضة إلى مرحلة الصدام المكشوف . كما أدى ارتقاء الصراع بين طبقتي الارستقراطيين والعامة وانحدار المبادئ التي كانت تشكل محور هذا الصراع إلى المرتبة الثانية في المجال السياسي ، إلى افتقار القواد المتنافسين إلى الشعار الملبوس الذي يدفعون جنوهم إلى النضال في سبيله ، وهكذا كان على القائد الذي سيقدر له النصر في الصراع حول الانفراد بالسلطة أن يبحث عن شعار جديد ، يدعم به مركزه السياسي ويرى جنوده في الدفاع عنه دفاعا عن مبدأ وليس مجرد تأييد لقائد وفامر يسعى إلى تحقيق مطمع شخصي .

تحت هذه الظروف ، إذن ، تمهد الاتجاه الذي كان على اكتافيان وأنطونيوس أن يتبعاه في تسابقهما نحو السيادة السياسية ، لقد كان على كل منهما ، أو على الأقل على أكثرهما جديده وذكاء في مساعيه للحصول على هذه السيادة أن يجد هذا العنصر الجديد ، هذا الشعار اللازم لتدعيم موقفه السياسي والعسكري . وقد كان موقف مصر إذ ذاك ، أو بعبارة أدق موقف ملكتها كليوباترة ، هو العنصر الذي بدأ باعطاء أحد الشريكين المتنافسين الشعار الذي ينبغي - وهو الموقف الذي لم يلبث أن تطور ليخط بصفة حاسمة المصير السياسي والحربي لمصر من ناحية والامبراطورية الرومانية من ناحية أخرى ... ففي سنة ٢٨ - ٣٧ ق . م . عزم أنطونيوس على القضاء على خطر البارثيين الذي كان يهدد نفوذ رومسه في الشرق ، راميا من وراء ذلك إلى نصر يدعم به موقفه الحربي ، وبالتالي موقفه

السياسى ، أمام شريكه وخصمه أكتافيان ، ولكن الموقف يفت من يده
فى هذه الحملة فتنتهى بالاختفاق ويققد فيها عدداً لا يستهان به من خيرة
جنوده ، وزاد من فداحة هذه الخسارة أن أنطونيوس لم يكن فى مقدوره
لذ ذاك أن يعرضها بالحصول على جنود آخرين ، وذلك لبعده عن رومه -
هذا فى الوقت الذى تغلب فيه أكتافيان فى الغرب على غريمه سكستوس
وأصبح نتيجة لذلك سيد هـ فرقة من خيرة فرق الجيش .

٢ - الصراع بين مصر ورومه .

فى هذا الموقف يذهب أنطونيوس ، بدعوة من كليوباتره ، إلى الاسكندرية
ريثما يتدبر موقفه . وهنا تستغل الملكة المصرية حاجة أنطونيوس إلى المساعدة
الادبية والمادية لتبدأ الصراع المثلث على السيادة فى العالم اذ ذاك - هذا
الصراع الذى ستتدخل شخصيات الاطراف المتنازعة بقدر ما تتدخل
الظروف السياسية لتحدد نتيجته النهائية .

أما كليوباترة فقد كانت تحلم بالسيطرة على الامبراطورية الرومانية ،
تشهد بذلك تسميتها لابنها بطليموس قيصر الذى يرمز اسمه الاول إلى حقه
فى عرش مصر بينما يرمز اسمه الثانى إلى حقه فى سيادة رومه ، ويشهد
بذلك القسم الذى ينسبه المؤرخ ديو كاسيوس Dio Cassis إليها والذى
تظهر فيه واثقة كل الثقة من أنها ستفصل فى شئون الرومان فى الكايتول
(مركز السيادة الرومانية ورمزها) فى يوم من الايام (١٨٠) . ويشهد بذلك
حتى أعداؤها من الرومان كما يظهر من أحد أناشيد هوراتيوس الذى
نظمه بعد موت كليوباتره مباشرة وتغنى فيه بخلاص رومه من خطرهما .

وهو يستهله بقوله :

لفشرب الآن ، ولندق الارض رقصا بأقدام لا تعرف الكل . .
فالآن ، أيها الرفاق ، يحق لنا أن نعد أرائك الآلهة لمآداب لانعرف
للبدخ حدا .

أما قبل الآن ، فقد كان لئما أن نخرج من الخوابي الخثر المعتقدة ...
بينما كانت الملكة تسعى إلى تدمير الكابيتول ، وتبيت الخراب
للإمبراطورية (١٨١) .

وأخيرا فإن الحلم الذي كانت ترعاه كايوباتره يظهر في أوضح صورهِ
في محاولتها للتأثير على الرأي العام المحيط بها عن كُتب في مصر ، أو
الذي يقتنع نشاطها من بعيد في رومه وفي الولايات التي تتبعها وبخاصة
في الشرق ، وذلك عن طريق العدد الكبير من النبوءات التي أطلقتها
إذ ذاك ، والتي كانت تحاول أن تثنى بها حرباً نفسية على رومه كقُدْمة
لكسب اشتباك مسلح معها . والذي ينظر إلى هذه النبوءات عن كُتب
يرى فيها احتياطا من جانب الملكة المصرية اكفاة الاحتمالات التي يمكن
أن يتمخض عنها مثل هذا الاشتباك .

ومن بين هذه النبوءات تلك التي تؤكد أن الوقت قد أزف لسقوط
رومه واستعبادها على يد آسيه ، وهي تمثل أكثر هذه الاحتمالات تفاؤلا
ثم هناك نبوة الإغريق الذي لم يصانها اسمه والذي تنبأ بأن كليوباتره

Horace : The Odes, Book I, Ode XXXVII. (١٨١)
(ed. Allcroft & Hayes).

حين تنجح في إسقاط رومة ستمد لها يد المساعدة وتقبلها من عثرتها لتبدأ عهداً ذهبياً ينتهى فيه الصراع الطويل بين الشرق والغرب وتسهم كل من آسيه وأوروبه في حكم يسوده العدل والمحبة - ولعل هذه النبؤه تمثل نوعاً من خط الرجعة الذى اتخذته كليوباترة في حربها النفسية لتقابل به ، أمام شعوب الامبراطورية نصراً غير حاسم في اشتباكها المسلح مع رومة قد تضطر فيه إلى مهادنتها أو إلى تقسيم مناطق النفوذ في الولايات معها . إلى جانب هاتين هناك النبؤه التى أشاعها اليهود إذ ذاك ومؤداها أن نصر كليوباترة سيكون نهاية للفترة القائمة في تاريخ العالم ، وبداية لفره أخرى يظهر فيها المسيح وينشر حكمه بين الناس - وفى رأى أن الغرض الذى كانت تهدف اليه كليوباترة من هذه النبؤه الاخيره ، وأغلب ظنى أنها أطلقت بإيعاز منها ، هو الاستعداد أمام العالم لموقف تنجح فيه الملكة المصرية فى القضاء على قوة رومه ولكنها لا تتمكن ، لسبب أو لآخر ، فى متابعة هذا النصر أو استغلاله (١٨٢) .

ولعل لا أبعد كثيراً عن الصواب إذا ذكرت أن ما تدل عليه هذه الفسوافد والمظاهر لم يكن مجرد حلم يراوده كليوباتره ، وإنما كان حقاً تعتقد فى عدالة مطالبتها به . لقد استندت رومه أسرتها قرناً أو يزيد ، واقتطعت ساسة هذه الدولة أجزاء من ممتلكات الدولة التى تجلس على عرشها ، وهناك الآن أكثر من دليل على أن اكتنافيان يحاول أن يضع نهاية لما تبقى

(١٨٢) عن هذه النبؤات، راجع 367-80، 350-61، 75-92، 46 54، Sibyll, III,

راجع كذلك : Cument: (Rev de l'Hist. des Religions, CIII,

193،) pp. 65-72 Tarn: (C. A. II.) x, 82-3

لهذه الدولة من مظاهر السيادة ، وأن يدخل هذه البقرة الحلوب فى حظيرة
الامبراطورية الرومانية ، ألم يكن من العدل بعد كل ذلك (من وجهة
نظر كليوباترة) أن تحاول إضعاف النفوذ الرومانى ، أو مشاركة رومة
سيادتها إذا أتاحت لها الفرصة أو انتزاع هذه السيادة لحسابها إذا
استطاعت إلى ذلك سبيلا ؟

عل أن كليوباترة ، التى كانت على بينة من أمرها من البداية ، كانت
تدرك أنها لا تستطيع أن تعتمد فى تحقيق هدفها على قوتها الحربية فحسب
كما كانت تعلم أن ثراها وحده لا يمكنها من شراء السيادة التى تشدها
وهكذا كان لا بد لها ، إذا كان اللوحة التى فى يدها أن تسكب ، أن
تستغل الظرف السياسى السائد فى رومة إذ ذاك ، وهو انتقال الصراع
من دائرة الأحزاب إلى دائرة القواد العسكريين على نحو ما اسلفت ،
وذلك بأن تستعدى قائدا رومانيا على قائد رومانى آخر ، فان أى نصر
على رومة لا يمكن إلا أن يكون على يد قائد من رومه .

ولم تكن هذه الفكرة جديدة على كليوباترة فى الفترة التى نحن بصدد
الحديث عنها ، فقد حاولت ، كما رأينا ، أن تنفذها حين اتى يوليوس
قيصر إلى مصر ، وان لم تصل بمحاولتها الى ماكانت تهدف اليه بعد أن
سبقتها ظروف رومة الى احباط هدفها . والآن اصبح أمامها أنطونيوس ،
القائد الرومانى الذى دفعت به ظروفه العسكرية والسياسية الى الشرق ،
وهو قائد له من كفايته الحربية ما يتفوق به على أكتافيان وله من مكائنه
السياسية ما يجعله نظيرا له وبالتالى فإن احتمال نجاحه فى صراعه على
السيطرة مع زميله وخصمه متكافئ ، ان لم يكن فى الواقع مرجحا .

وقد عملت كليوباتره من البداية على استمالة أنطونيوس اليها بكل الوسائل التي يمكن أن تلجأ اليها امرأة تملك ، إلى جانب ثروتها الضخمة ، دهاء سياسيا جعل منها إحدى شخصيتين محشيتهما رومه في تاريخها الطويل الذي لم تخش فيه فردا أو دولة ، كانت أخراهما شخصية هانيبال . وكانت الخطة التي اتبعتها هي أن تفصل نهائيا بينه وبين اكتافيان وأن تعرقل استمرار أية رابطة بينهما - وقد كان بينهما أكثر من رابطة سياسية وشخصية - من شأنها أن تؤدي إلى اتفاقهما ، سواء تم ذلك على قدم المساواة أو على أساس طغيان شخصية أحدهما على شخصية الآخر ، هذا في الوقت الذي تضمنه فيه إلى جانبها بحيث يصبح أي نصر يحززه نصرا فعلياً لها .

وقد ابتدأت كليوباتره علاقتها بأنطونيوس بشكل يفصح عن خطتها هذه في وضوح شامل . فكان أول ما قامت به بعد أن اجتذبه بأكثر من طريقة إلى الإقامة في الاسكندرية ، هو أن ربطته بشخصها برابطة الزواج في خريف ٣٧ ق.م في الوقت الذي كان فيه متزوجا من أخت اكتافيان ، خصمه وشريكه في الحكومة الثلاثية . أما الخطوة الأخرى التي قامت بها في هذه السبيل فهي أنها أحاطت بأنطونيوس بكل المظاهر السياسية التي تبعده شيئا فشيئا عن رومه ، فوثائق الحكم التي كانت تؤرخ حتى ذلك الوقت بتاريخ واحد هو اعتلائها العرش ، أصبحت تؤرخ الآن بتاريخين ثانيهما يتخذ سنة زواجها من أنطونيوس بداية لها - وقد استمرت هذه الطريقة في تاريخ وثائقها حتى نهاية حكمها في ٣١ ق.م. الذي وافق العام الثاني والعشرين لاعتلائها العرش والعام السابع من الحكم المشترك (١٨٣).

(١٨٣) يرى تارن هذا الرأي (C.A.H., X, 81 & n. 3) وهناك رأى

ربما يدل على هذا الاتجاه كذلك أن أنطونيوس ، بعد غزوه لأرمينية في ٣٤ ق م . احتفل بانتصاره في الاسكندرية ، وهو أمر أرجح كثيرا أنه قام أرضاء لها وتحت اقناعها أو اغرائها . وقد كانت هذا أمرا شاذا بالنسبة لقائد روماني ، وكانت ثانی مرة في تاريخ رومه يحتفل أحد قوادها بالنصر خارج أسوارها (١٨٤) .

* * *

أما أنطونيوس فقد ساقته الظروف إلى أن يحقق ما كانت كليوباترة تهدف إليه ، وهو الانفصال عن اكتافيان بشكل يجعل التفاهم بين الشريكين القديمين أمرا متعذرا ، إن لم يكن مستحيلا . وقد كانت بداية التشاحن هي موقف اكتافيان من وعده بعد اتفاق تارنتوم . لقد تضمن هذا الاتفاق ضمن بنوده أن يمد أنطونيوس زميله بأسطول يساعده على إتمام حربه في صقلية ، بينما يمد اكتافيان نظير ذلك باربوع فرق لينهى حربه في بارييه . وقد أقام أنطونيوس لتوه بتنفيذ الجزء الذي يخصه من الاتفاق بينما راوغ اكتافيان في الوفاء بوعده لمدة سنة ونصف . وحتى حين يبدأ في تنفيذ هذا الوعد في ربيع ٣٥ ق م . فإنه لا يرسل الفرق المطلوبة ، وإنما يرسل ما تبقى من أسطول أنطونيوس . وهو ما لم يكن هذا الأخير يطلبه أو يريد في ذلك الوقت الذي كان يعنيه فيه أن يضع نهاية للخطر البارثي بشكل يقفز بمكانته الحربية إلى القمة والبالى يدعم مركزه السياسي في رومه ،

= معارض لا يرى في ذلك إشارة إلى الحكم المشترك . أنظر : عبد اللطيف احمد على ، نفسه ، ص ٢٢ ، حاشية ٢ والمراجع عن هذا الرأي المعارض في استمرار الحاشية على ص ٢٣

لقد عرف أنطونيوس إذن نية شريكه وأدرك أن عودته لقيمة لها وأن الانفصال النهائي بينها واقع لا محالة ، فإذا كان الأمر كذلك فليعجل به وليتم الانفصال على وجه سريع وصريح . وفي سبيل التأكيد لخصمه بدأ يقع تحت تأثير كليوباترة وبدأ في الواقع ينفذ خططها . وقد بدأ أنطونيوس خطواته في هذا الاتجاه في أول فرصة وافته بعد هذا الموقف فبعد أن غزا أرمينية في خريف ٣٤ ق م لم يقيم احتفاله بالنصر في روما بل في الاسكندرية على نحو ما ذكرت في مكان سابق ، رغم ما في هذا الاجراء من خروج على التقاليد الحربية الرومانية ، وفي هذا الاحتفال قدم أنطونيوس أسراه من الارمينيين إلى كليوباترة التي كانت تستقبله استقبالا رسميا كملك مصر . وقد يكون هذا ، بل من المرجح أنه كان ، مجرد إجراء كيدى لا يقصد منه أنطونيوس سوى أن يظهر عدم تقيده باكتافيان شريكه في الحكومة الثلاثية . ولكنه كان يكفى في نظر رجل الشارع في رومة - وهو يمثل الطبقة التي كان أنطونيوس يعتمد عليها في جميع جنوده - لأن يكون تمجيذا لكليوباترة ، ورمزا واضح الدلالة على اتجاه نية أنطونيوس إلى نقل عاصمة الامبراطورية إلى الاسكندرية .

أما الخطوة التالية التي قام بها أنطونيوس في سبيل أفصاحه عن خصومته لاكتافيان فهي تقديمه عددا من الولايات الرومانية والممالك المحالفة لها كهدية للملكة المصرية ولابنائها ، ومنحهم ألقابا تضافى عليهم صفة الشرعية في سيادتهم على هذه الاقطاعات . وحقيقة أن هذا الاجراء في حد ذاته لا يمكن أن ينظر اليه كخيانة وطنية من جانب أنطونيوس ، فمنح السيادة الشكلية على أجزاء من الامبراطورية كان أمرا أقدم عليه أكتافيان نفسه فيما بعد دون أن يثير بذلك أى شعور لإمبراطورى عند

رجل الشارع في رومه . كما أن هذه الاقطاعات ، أو « المنح السكندرية » ، كما أصبحت تدعى ، ولم تكن تمثل إقطاعات حقيقية من الامبراطورية ، فميديه وبارثيه اللتان كانتا ضمن نصيب أحد أبناء كليوباترة كانتا لانزالان في حوزة ملوكها وكان تقديمها ضمن هذه المنح على سبيل ما سيكون وليس ما هو كائن بالفعل ، بينما كان في أرمينية وفلسطين ونباتايه إلى ظهرت قائمة المنح السكندرية بحكم مخالفون لرومة (١٨٥) .

ولكن إذا لم يكن ما قام به أنطونيوس يضر بالامبراطورية اضرارا مباشرا ، وإذا لم يكن في حد ذاته خيانة وطنية ، إلا أن أى خصم لأنطونيوس كان في مقدوره إذا استغل الظروف القائمة بشيء من الذكاء الاجتماعى ، أن يترجم ما حدث إلى خيانة فعالية لقضية الوطن والامبراطورية ، وكان في إمكانه فرق ذلك أن يجسد تحت تصرفه ما يشير إلى هذه الخيانة ، فالعملة التى سكها أنطونيوس فى هذه المناسبة تحمل على أحد وجهيها رأس كليوباترة مع لقب « ملكة الملوك وملكة أبناؤها الذين هم ملوك » ، مما يوحي به هذا من الاعتراف بها كسيدة للشرق كله من ميديه شرقا إلى حدود آسيه الصغرى وبرقة غربا (وهى الحدود التى تضم منع الاسكندرية) بينما يحمل الجانب الآخر صورة أنطونيوس قاهر أرمينية (١٨٦) ، يوحي به هذا الارتباط على جانبي قطعة واحدة من العملة من أن ما يصل إليه أنطونيوس تشاركه فيه كليوباترة - حتى إذا كان ما يصل إليه هو مركز الامبراطور .

(١٨٥) Dio Cassius : L. 3,5 عن التعليق على حقيقة هذه الملاحظات راجع :

Cary:op. Cit., p. 442

(١٨٦) راجع صور هذه العملة فى : C. A. H. (مجلد الصور) Iv, 198 sq

على أن هذا لم يكن الخطأ الوحيد الذى وقع فيه أنطونيوس فى سبيل محاولته لإظهار عدائه لاكتافيان ، بل لقد أقدم على خطأ آخر وهو بسبيل الكيد لشريكه وغريمه ، وذلك بإعلانه أن كليوباتره كانت زوجة شرعية ليوليوس قيصر ، وأن بطلميوس قيصر ابنها منه ، (وهو الذى سماه الإسكندريون قيصرون) (١٨٧) هو ابنه الشرعى وأنه (أى أنطونيوس) يرى فى إعلان ذلك تأدية لواجب لا بد من أدائه لذكرى القائد الكبير . وقد كان أنطونيوس يرمى من وراء ذلك إلى إضعاف مركز اكتافيان الذى حمل اسم قيصر كوريثه الوحيد فى غياب أى وريث آخر ، وحمل مع هذا الاسم الحق الأدبى فى ولاء جنود يوليوس قيصر واتباعه له . ولكن أنطونيوس فى ثورة حنقه على شريكه الذى حدث بوعده ، لم يرى الوجه الآخر للصورة - فلم يدرك أن تدعيمه بهذه الطريقة لمركز كليوباتره ولشرعية ابنها من قيصر كان من الممكن أن يفمر نفسه -يرا آخر من نخهم يستطيع أن يلب الرأى العام فى عاصمة الامبراطورية ، لسبب بسيط هو أنه يقيم بالفعل بها .

* * *

أما موقف اكتافيان فقد كان واضحا ومحددا من البداية ، وكان فى وضوح- وتحميده يشير إلى نيته فى الانفرد بالأمر فى الامبراطورية . وكان قد مهد لذلك من قبل بالتخلص من غريمه سيكستوس بومبيوس

(١٨٧) عن هذه التسمية أنظر: Dio Cass.: XLVII, 31; Plut.: Caes.49

عن الواقعة ذاتها أنظر: Dio Cass.: XLIX, 41, L, 1, 5; Plut.:

Ant., 54; Suetonius: Div. lul., 52, 2

وبتعاونه مع أنطونيوس في التخلص من مزاحمة لبيدوس ، الشريك الثالث في الدكتاتورية المثلثة ، بحيث أصبحت في الواقع دكتاتورية ثنائية على نحو ما أسلفت ، والآن أصبح من الواضح أن شخصية أنطونيوس تعترض سبيله ، ولاشك أن اكتفیان وجد في زواج أنطونيوس من كليوباترة في الوقت الذي كان لا يزال فيه متزوجاً من أخته (أى أخت اكتفیان) أكتافيا ، ثم معاملته المهينة لها بعد أن ظلت ترعى مصالحه السياسية في رومه ، وحتى حين حاولت السفر اليه في الشرق ومعها الأموال اللازمة له وعشرون الفا من الجنود الذين كان في مسيس الحاجة اليهم - لاشك أن اكتفیان وجد في ذلك ما يبرر موقف العداء الذي اتخذته من أنطونيوس أمام نفسه وأمام الشعب الرومانى .

وهكذا سارت خطته من البداية في حلقات متصلة ، فهو لا يبر لأنطونيوس بوعده الذى قطعه على نفسه في تارنتوم بإمداده بالمعونة العسكرية اللازمة ، هذا في الوقت الذى كان يدرك فيه كل الإدراك بعد أنطونيوس عن ايطاليه (حيث المكان الذى يستطيع فيه أى قائد أن يجمع ما يحتاجه من جنود) سيكون نقطة ضعف في جانبه ، بل ربما كانت نقطة الضعف القاضية . ثم كان ما ذكرت من تمجيد أنطونيوس لكليوباتره ومن تعزيزه لمركزها في مسألة منح الاسكندرية رغم ما ظهر من طموحها الذى لم تكن تحده إلا حدود الامبراطورية نفسها . الامر الذى أكد موقف اكتفیان وحدده بشكل نهائى وجعل استمراره فيه ، بعد أن خطا خطواته الاولى ، أمراً محتوماً .

وهكذا أصبح الشقاق بين المريكين المتنازعين أمراً واقعاً ، وفي هذا

الشقاق وقفت ملكة مصر إلى جانب أنطونيوس . وإذا أردنا أن نضع
الاسماء على مسمياتها ، لقد أصبح الصراع أمرا واقعا بين الغرب تمثله
رومه في شخص اكتافيان وبين الشرق تمثله مصر في شخص ملكتها
كليوباتره ، ووقف إلى جانب كليوباتره زوجها أنطونيوس .

٣ — الصراع ونهاية ملك البطالمة

لقد تحدد الموقف ، إذن ، بوقوف أنطونيوس في صف كليوباتره ، وما
حدث بعد ذلك لم يكن إلا استعداداً لنهاية الشوط الذي تمت بدايته
بالفعل ، ولم تكن نهاية الشوط إلا الصدام الفعلي الذي سيحدد إذا ما كانت
مصر ستصبح سيدة للعالم الروماني أو تابعة تدور في فلكه . وستشهد
المرحلة التمهيدية لهذا الاستعداد مناورات دعائية يهدف من ورائها كل من
أنطونيوس وأكتافيان ، سواء بطريق مباشرة ، أو غير مباشرة ، إلى أن
يقنع مجلس الشيوخ بوجاهة موقفه من الناحيتين الوطنية والدستورية في
الحدود التي لا تقف مقدما في سبيل ما يضره من الانفراد بالسلطان في
المستقبل (١٨٨) . حتى إذا بدأ الاستعداد الفعلي في ٣٢ ق.م. للمركة الفاصلة
وجدنا الطرفين يكادان يتعادلان في جميع الامكانيات التي جندوها .

فن الناحية الحربية ، إذا كان اكتافيان قد استطاع أن يجمع ٨٠ ألف
جندي من المشاة ، و ١٢ ألفا من الفرسان وأربعمائة مركبا فقد عاد له
أنطونيوس وكليوباتره بقوة قوامها من ٧٠ إلى ٧٥ ألفا من المشاة و ١٢
ألف فارس وفوق خمسمائة مركبا ، وإذا اكتافيان قد اعتمد على هبقرية

القائد أجريبه Agrippa في ناحية القيادة البحرية ، فان كفاية أنطونيوس العسكرية كانت كفيلة بأن تجعله سيد أية موقعة بريه ومن الناحية المالية إذا كان أكتافيان قد استطاع أن يستعد لتكاليف الحرب بفرض عدد من الضرائب على البلديات الإيطالية فقد أسهمت كليوباتره في تجهيز الفهـلى للقوة التي سيقودها أنطونيوس ، هذا إلى ما أخذته على عاتقها من امداد الجيش والاسطول بالتموين اللازم لها ومن تقديم ٢٠ ألف تالنتا للابتداء في الاتفاق على القوة المضاربة (١٨٩) ، وأخيرا فالحماس الذي كان يدفع أكتافيان الى الحصول بأية طريقة على النصر الذي سيجعله سيد الامبراطورية الرومانية ، كان يعدله او يزيد عليه طموح تضج به نفس كليوباترة ويأخذ عليها كل مسالك تفكيرها ليجعلها ترمى بكل ما تملك في هذه المغامرة الكبرى التي إذا قدر لها أن تنجح ، لا بد أن تفتصب لها السيادة من برائن رومه .

* * *

على أن عوامل وظروف محسنة كانت تنف في سبيل كليوباترة وانطونيوس ، وقد كانت أول هذه العوامل الدعاية الناجحة التي قام بها أكتافيان لتدعيم موقفه ، فهو قد أثار الرأي العام في ايطالياه بشائعات مؤداها أن أنطونيوس قد ترك قياده لغانية أجنبية من الشرق واقترح (أى أكتافيان) أن يضع الشعب ثقته فيه كزعيم وقائد لإيطالية ، في وقت ايد دهايته هذه بموقف أنطونيوس حين أرسل هذا الأخير في مايو أو يونية ٣٢ ق.م. إلى أكتافيا (زوجة أنطونيوس وأخت أكتافيان) خطابا رسميا

Tarn: "Class. Quarterly, XXVI": p. 75; (C.A.H X) (١٨٩)

للطلاق ، كما أيدها بإذاعته لوصية أنطونيوس التي أكد فيها الرغبة السابقة
لكليوباتره من يوليوس قيصر وشرعية لإنها منه وبين ما ورثه لابنائه
من كليوباتره كما أظهر فيها رغبته (أى رغبة أنطونيوس) عند موته في
أن يدفن الى جوارها في الاسكندرية (١٩٠) .

لقد كانت هذه الدعاية حاسمة في النتائج التي أدت اليها والتي دعمت
موقف اكتافيان بينما أطاحت بأية ثقة كان من الممكن أن يحصل عليها
أنطونيوس في صراعه على السيادة في رومه ، اذ جعلته يخسر كثيرا من
أشد أتباعه مراسا من أمثال بلانكوس وتيتيوس *Blancus, Titius*
الذين انتقلا الى صف اكتافيان بكل ما يحمل اسمها من قوة دعائية ،
وبكل ما يعرفانه من أسرار عن استعدادات أنطونيوس ، كما جعله رجل
الشارع في رومه يعتقد أن أنطونيوس كان يهدف الى نقل عاصمة
الامبراطورية الى الاسكندرية - الامر الذي دفع بكثير من المترددين ،
بشكل نهائي ، الى جانب اكتافيان .

وقد وصل نجاح هذه الدعاية الى أقصى درجاته حين اشتركت كل
المدن الإيطالية واحدة تلو الأخرى في قسم *coniuratio* بايعوا فيه اكتافيان
كقائد لهم في جهاد مقدس ضد الخطر الآتي من الشرق ولم يلبث هذا
القسم أن انتقل الى خارج حدود إيطاليا لتأخذه على نفسها بلديات
الولايات الغربية وصقلية وسردينيه وأفريقية وولايता غالة وولايता

اسبانيه (١٩١) . ونتيجة لهذه المبايعه العامة استطاع اكتافيان أن يصل الى حرمان أنطونيوس من منصب القنصلية الذى كان من حقه بالاشتراك مع اكتافيان فى سنة ٣١ ق.م. بينما نجح اكتافيان الذى تقلد منصب القنصلية للمرة الثالثة فى أن يوجه الاعلان الرسمى ضد كليوباترة لحرب تستهدف نصرة الحق *iustum bellum* - وقد كان اعلان هذه الحرب ضد كليوباترة وحدها دين ذكر اسم انطونيوس (الذى كان رغم كل ماحدث لايزال يتمتع بمناصرة جانب من الشعب الرومانى) حافزا لأن يتكتمل رأى العام من خلفه اكتافيان (١٩٢) .

العامل الاخير الذى فت فى عضد الطرف الشرقى فى هذا الصراع بين الشرق والغرب هو اصطحاب أنطونيوس لكليوباتره فى المعركة ، أو بصارة أدق ، اصرار كليوباترة على أن تكون موجوده فى وسط المعركة . لقد وقفت كليوباتره الى جانب أنطونيوس منذ أن استقر رأيه بعد عودته من أرمينية فى ٣٣ ق.م. على أن يحارب اكتافيان ، وقد نصت فى افسوس شتاء ٣٣ - ٣٢ فى استعدادات مضنيه ، ومنذ ذلك الوقت وهى ملازمة له تمده بالسلاح والمال والمؤن ، ولم تترك لحظة واحدة حتى فى أثناء المعركة الفاصلة أمام اكتيوم *Actium* ، وموقفها فى كل هذا واضح ، فبالنسبة لها كانت الحرب مع اكتافيان أكثر من مغامرة قائدين لقد كانت حرب مصر مع رومه ، ولم يكن أنطونيوس فى هذه الحرب ،

Res Gestae, 25. Suet.; Aug., 17, 2 (١٩١)

K Scott: Octavian's Propaganda C. Q., XXIV;: The (١٩٢)

Political Propaganda of 44-30 B.C. (Mem. of American Acad., XI)

من وجهة نظرها ، سوى القائد الرومانى الذى يستطيع أن يقف أمام
أكتافيان - وهو القائد الرومانى الآخر الذى كان يقف فى سبيل
تحقيق حلها .

على أن ملازمة كليوباترة لانطونيوس سواء فى استعداداته أو فى
تحركاته قبيل المعركة وفى أثناءها ، وتدخّلها فعليا فى بعض الأحيان فى
تحميد التحركات العسكرية اللازمة (كما حدث قبل أكتيوم حين رأى
كانيديوس Canidius - أحد مساعدى أنطونيوس - أن يترك الأسطول
وأن ينتقل بجنوده إلى مقدونية حيث يقابل جنود أكتافيان وجها لوجه
وأصرت كليوباترة على أن يشترك الأسطول فى المعركة ووافقها أنطونيوس
على ذلك) - هذه الملازمة مهما كانت مبرراتها ، وهذا التدخل مهما كانت
وجاهته كانت لها نتيجة سيئة ، هى أن تتأكد فى ذهن اتباع أنطونيوس
وجنوده حقيقة ظاهرة ، وهى أنهم يحاربون تحت لواء كليوباترة ، الملكة
المصرية ، وليس تحت لواء أنطونيوس الوعيم الرومانى . وقد كان لهذا
أمره السىء على هؤلاء الاتباع والجنود ، الذين أعربوا عن سخطهم ، صدعت
إلى حد كبير الدعامة التى يرتكز عليها أنطونيوس ، وهكذا ، منذ أن
بدأت تحركاته حول الخنايج الامبراسى بدأت الخيانة تدب فى صفوفه مثلثة
فى البداية فى انتقال اثنين من اتباعه هما روميئالكيس Rhoemetaces
حاكم مقدونية وديوتاروس Delotarus حاكم بافلاجونية إلى صفوف
أكتافيان ، الميمم أمينتاس Amyntas حاكم جالاتية ، الرجل الذى كان
يدين بمركبه لانطونيوس ، ومعه قوته التى كان قوامها الفى فارس ، ولم
يسكن هذا إلا بداية الموقف ، فحين تخرجت الآور بعض الشيء بدأ

الفرار من صفوف أنطونيوس إلى صفوف اكتافيان يتم على نطاق واسع وحتى حين حاول أنطونيوس أن يضع حداً لذلك باستعمال الشدة كما حدث حين أعدم يامبليخوس Iamblichus (حاكم أميسه وأحد أعضاء الشيوخ الروماني) ومن كانوا في ركابه ، لم يزد ذلك الفارين إلا إمعاناً في فرارهم حتى دوميتيوس Domitius ، الذي كان يحتضر ، آثر أن يذهب إلى اكتافيان ليقضى ساعاته الأخيرة هناك ، ولم يكن هذا الموقف قاصراً على الاتباع من أصحاب المركز والنفوذ فحسب ، بل انتقل كذلك إلى الجنود واستمر كذلك حتى في أثناء معركة أكتيوم نفسها ، وبعدها في أثناء عودة أنطونيوس إلى مصر ، حيث حاول أن ينظم بعض فرقته فتركه وانضمت إلى جالوس Gallus نائب اكتافيان كما اتجهت بعدها في نفس الطريق الفرق الموجودة في سورية تحت قيادة ديدايوس iDdius (١٩٣).

أما العامل الثاني الذي وقف ضد الشرق في هذه المقامرة الكبيرة والذي كان إلى حد كبير مرتباً على العامل السابق ، فيتعلق بالموقع الذي اتخذته أنطونيوس وكيوباترة لقواتها . لقد وضعا هذه القوات على خط يمتد على الساحل الغربي لبلاد اليونان من كوركيرا Korkyra إلى ميثوني Methone (في ميسينا) ، وكانت القوة الضاربة فيها تحتل شبه جزيرة أكتيوم وهي النتوء الجنوبي الذي يحد من الجنوب المدخل الضيق للخليج أمبراصيه ، وأقاما مركز القيادة في باتراى Patrae ، بينما اعتمدا في

تموين القوات على السفن المصرية المحملة بالقمح والتي كانت تدور حول رأى تارنتوم Tarentum لتتجه شمالا لزاء الساحل البلوبونيزى ، أما النقط التى كانت تحمى خط التوين فكانت محطات متناثرة على هذا الساحل فى ليوكاس Leukas وغيرها ، وكانت مشونى أقصاها من ناحية الجنوب .

ونظرة سريعة على هذا الموقع ترينا أنه لم يكن على جانب كبير من المنساعة ، بل كان فى حقيقة الأمر موقعا سيئا ، إذ أنه لم يكن قوات أنطونيوس وكيوباترة من الاتصال السهل بمقدونيه وبقية شبه جزيرة البلقان من الشرق بينما جعل هذه القوات مكشوفة إلى حد كبير من الغرب . والفكرة العامة التى يعطياها اختيار هذا الموقع الضعيف هى أن الشخص الذى تم على يديه هذا الاختيار كان غرضه الأول تغطية الساحل المصرى وسهولة الاتصال به قبل أن يكون غرضا هجوميا يريد منه القضاء على قوات خصمه أولا قبل كل شيء ، فقد كان الوضع الطبيعى إذا أراد أنطونيوس أن يهاجم خصمه أن يذهب اليه فى إيطاليا فى خريف ٢٢ ق.م حيث كان أوكتافيان لا يزال يواجه بعض الاضطرابات ، وحيث يكون فى إمكان أنطونيوس ، القائد القدير ذى الشعبية الواسعة أن يهيب بعاطفة جنده القدماء ، كما يكون فى ظهوره بشخصه أمام الشعب ما يخفف بعض الشيء من حدة الدعاية السامة التى نفثها ضده أوكتافيان فى غيابه . أما أن يترك إيطاليا ويضع نفسه فى موقف دفاعى مكشوف من الغرب وصعب الاتصال من الشرق فهذا يبدو غريبا لأول وهله .

ولكن أنطونيوس لم يكن يملك فى الواقع أن يتخذ غير هذا الموقف ، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى إيطاليا ومعه كيوباترة إذ معنى هذا أن

يؤكد بشكل قاطع الدعاية التي اثارها ضده اكتافيان والتي جعلت - بحق - من المملكة المصرية عدواً يريد احتلال رومه ، وهو في نفس الوقت لا يستطيع أن يقابل خصمه وحده ، إذ أن كليوباترة لن تتركه . لقد كانت هذه حربها وقد كانت تعمل لكي تظهر بهذه اللحظة منذ أن ذهبت إلى رومه لتفشد مهونة يوليوس قيصر ، لولا أن سبقها اليه أعداؤه فقضوا عليه وقضوا معه على ما ترتبته من خطط يكون هو فيها القائد الروماني الذي يخوض معاركها المصرية . والآن وقد تحققت هذه الخطوة الاولى من حلها ، وهي أن يشن حربها على رومه فائداً روماني آخر فلم تكن مستعدة لأن تترك شيئاً للظروف .

إن ذهاب أنطونيوس وحده إلى إيطاليا قد يعنى انهيار خططها بشكل نهائى ، لقد كانت هناك زوجته السابقة اكتافيه التي ظالت على ولائها له وظلت ترعى مصالحه السياسية والحربية وتعتنى بأولاده ، حتى حين اقترح عليها أخوها اكتافيان أن تترك بيت الزوجية ، بعد أن أصبح واضحاً لكل إنسان أن أنطونيوس قد قرر البقاء إلى جانب كليوباترة ، ومن يدري ، فقد تستطيع اكتافيه أن توفق بين زوجها وأخيها فيصلا إلى حل وسط لا يمكن أن يكون له إلا ضحية واحدة - هي كليوباترة ومعهما خططها وأحلامها التي تحلق بها في أفق الامبراطورية الرومانية . كما كان في إيطاليا أكثر من صديق ، وقد يتوسط أحد هؤلاء الأصدقاء ، الذين لا يعرفون لولاهم منتجها غير رومة ، وقد تنجح هذه المساعي فيصلون إلى ما قد تصل إلى اكتافيه ، أو حتى إلى أكثر ما قد تصل اليه .

وإذن فأنطونيوس تيوس ، سواء أراد أو لم يرد ، لم يكن في مقدوره

أن يقابل خصمه في ايطاليه ، وهكذا كان عليه أن يستدرجه إلى خارج ايطاليه في مكان يجمع بين القرب منها وبين تغطية الطريق إلى مصر التي قد يضطر لسبب أو لآخر أن يلتجئ إليها ، وقد كان من سوء حظه أن يكون الموقع الوحيد الذي يمكن أن يجمع بين هاتين الميزتين موقفا يضم إلى جانبها نقط الضعف الآتية الذكر .

وقد ظهر بالفعل ضعف هذا الموقف بمجرد ابتداء المناورات الحربية ، فالقائد أجريبه استطاع من البداية أن يهاجم هذا الخط الساحلي المكشوف ، فاستولى على مشرف وبذلك أصبحت له قاعدة في خطوط أنطونيوس التوينية ، بينما استطاع أكتافيان تحت ستار هذه الحركة أن ينزل في إبيروس ، ويتحرك بسرعة جنوبا لمواجهة قوات أنطونيوس وكليوباترة في شمال الخليج الامبراسي . كما تمكن أجريبه مرة أخرى من أن يهاجم ليوكاس ، وبذلك يحاصر مدخل الخليج الامبراسي ، بينما استطاع باستيلائه على باتراي وكورنث أن يقطع اتصال أنطونيوس بشبه جزيرة البلوبونيسوس ، وهكذا أصبح أنطونيوس وكليوباترة محاصرين ، بعد أن فقدوا خطوطهما التوينية مع مصر وبعد أن امتنع عليهما الاتصال برأ من الناحية الشرقية .

هذه إذن هي الظروف التي أحاطت بصراع الشرق والغرب الذي انتهى بهزيمة قوات كليوباترة وأنطونيوس في أكتيوم في ٣١ ق.م . ومطاردة أكتافيان لها إلى الاسكندرية ، حيث وضع الاثنان حدا

لحياتها وأصبح أكتافيان سيد الشرق والغرب بعد أن ضم مصر إلى
سلطان الشعب الروماني على حد تعبيره (١٩٤) .

Res Gestae (V. Ehrenberg & A.H.M. Jones: Documents (١٩٤)

Illustrating the Reign of Augustus and Tiberius, no. I

راجع التعليق على عبارة «لقد ضمنت مصر إلى سلطان الشعب الروماني»
في حاشية ١ من كتاب «مصر من الامكندر الأكبر حتى الفتح العربي» ،
تأليف ه. أ. بل وترجمة : عواد حسين ، وعبد اللطيف علي . راجع
كذلك التعليق على هذه العبارة في : عبد اللطيف علي ، مصر والامبراطورية
الرومانية ، ص ٢٧ وما بعدها . كذلك : لطفي عبد الوهاب يحيي :
مصر في العصر الروماني ، ص ٩ ، وما بعدها .

القسم الرابع

الاسكندرية : عاصمة البطالمة

البار الحاردي عيش

الوضع السياسي الاسكندرية

نظرة عامة

اتخذ البطالمة من الاسكندرية ، التي وضع أساسها دينوكراتيس Denokrates مهندس الاسكندر ، عاصمة الدولة التي أقاموها في مصر . وقد عاصر تأسيس الاسكندرية وظهورها تيارين رئيسيين سيطرا على المنطقة التي امتد فوقها العالم المتأغرق - والاسكندرية إحدى عواصمه . أما التيار الأول فتمثله النزعة العالمية التي صبغت أعمال الاسكندر الأكبر والتي كانت تشير إلى اتجاهه نحو مزج حضارة الشرق بحضارة الغرب . وقد مات الاسكندر قبل أن يمضي شوطا طويلا في هذا الاتجاه ، ولم يلتزم به خلفاؤه الذين أصبحوا حكاما على القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط ولكن مع ذلك فإن التيار الذي ابتدأ الاسكندر لم يستطع هؤلاء الخلفاء أن يوقفوه ، وأن يعودوا بالزمن إلى الوراء - إلى ما قبل عهد الاسكندر . وهكذا استمر هذا التيار ، ولكن ليس في صورة امتزاج حضاري ، وإنما في صورة لقاء بين عناصر من الشرق والغرب يمكن أن نسميه ازدواجا حضاريا .

وأما التيار الثاني فيتمثله الاتجاه نحو النشاط الدولي الذي عم المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها ، والتي أصبحت الاسكندرية أحد مراكزها الرئيسية وقد وصل هذا النشاط الدولي إلى أبعاد كبيرة في كافة المجالات ، كما بينت

فى الدراسات السابقة ، سواء كانت حزبية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها .

وقد كانت الاسكندرية بالضرورة صورة للعصر الجديد ، عكست هاتين الصفتين ، أو هذين التيارين بشكل واضح ، والدراسة التى أقدمها على الصفحات التالية هى محاولة لإبراز هذه الحقيقة عن طريق عرض الخطوط العامة لوضع الاسكندرية فى ثلاثة مجالات هى : المجال السياسى والمجال الاقتصادى والمجال الاجتماعى . وليكن حديثنا الآن عن وضع الاسكندرية فى المجال السياسى .

١ — موقع الاسكندرية كعاصمة لدولة البطالمة

حين كان البطالمة بسبيل إقامة دولتهم فى مصر ، هذه المملكة المتأثرة الجديدة ، التى وجدت فى المنطقة التى انتقل اليها مركز النشاط السياسى والحضارى فى العصر الذى ابتدأ بفتوح الاسكندر ، والتى هيات لها ميزاتنا الطبيعية كل فرص الاستقرار الكفيل بتدعيمها كمركز للحضارة المتأثرة ومعقد لجوانبها المتعددة ، كان على القائمين عليها أن يختاروا مكانا مناسباً يصلح كعاصمة ملكهم . ولكن البطالمة لم يختاروا طيبة أو منف ، العاصمةين التقالديتين للفراعنة ، إذ رغم أنهم تشبهوا بالفراعنة وساروا على نهجهم فى كل ما يتعلق بنظام الحكم ، إلا أن العواصم الفرعونية كانت لا تصلح للقيام بقبعات العهد الجديد . فالقيمة الأساسية لمنف كعاصمة كانت تنحصر فى أنها تمكن الحكومة من السيطرة على « الأرضين » فى الشمال والجنوب ، فى وقت كان فيه الربط بين الوجهين أمرا فى

مقدمة المهام السياسية (١٩٥) ، أما قيمة طيبة كعاصمة فكانت تستمدّها من موقعها كمركز ثقل سياسى فى دولة تخرّص على الاتجاه السياسى والتوسعى نحو الجنوب ، لإبقاء الأماكن التى ينتشر فيها النفوذ القوى لكمة آمن تحت المراقبة المباشرة ، أو للسيطرة على مناطق النوبة وشمال السودان أو لمد النفوذ الاقتصادى إلى إقليم بونت .

ولكن هذه الاعتبارات ، رغم أهميتها البالغة التى لا يمكن للحكومة جادة أن تتجاهلها ، لم تكن الاعتبار الأول فى العصر الجديد . فإن الظروف التى سادت فى ذلك الوقت كانت تحتم على البطالمة أن يتجهوا أساساً نحو البحر المتوسط ، وبخاصة فى قسمه الشرقى ، سواء فى برنامجهم التوسعى أو فى علاقاتهم السياسية والحربية . فبوت الاسكندر كان شارة الانطلاق لصراع قواده على اقتسام إمبراطوريته ، وتركز الصراع فى القسم الشرقى للبحر المتوسط على نحو ما أسلفت ، واستمرت الخصومة فترة طويلة امتدت بعد وفاة الاسكندر ، وظهر فى خلالها من بين أقرباء الاسكندر وبعض قواده من يسعى إلى إبقاء الامبراطورية تحت حكم فيليب ، كما كان من بينهم أنتيجونوس الذى كان يرى هو وابنه ، الإبقاء على هذه الوحدة

(١٩٥) يظهر ذلك جلياً فى ظهور وصف « ملك الأرضين » بين الأوصاف التى كانت تطلق على الفراعنة - وعلى الآلهة ، وهو وصف قلما كانت تخلو منه قصيدة تظهر فيها أوصاف الملك ، أو الإله ، أنظر مثالين على هذا فى :

A. Erman: The Literature of the Ancient Egyptians
(الترجمة الانجليزية) ، صفحات ٨٤ - ٨٥ و ٢٨٣ وما بعدها . راجع القسم الأول من هذه الدراسات

ولكن تحت حكم بيته هو . وقد كان الابقاء على الإمبراطورية سواء تحت بيت فيليب أو بيت أنتيغونوس كفيلا بأن يقضى على أطماع بطليموس حول الاستقرار في مصر والاستقلال بها ، ولم تكن أطماع بقية القواد الذين يرون تقسيم الإمبراطورية بأقل خطرا على آمال بطليموس . ومن هنا كان كفاحه في سبيل البلد التي أزمع أن يتخذها موطناً له ومقراً للملكة . وقد كان كفاحاً استمر مدة ليسب بالقصيرة ، على نحو ما مر بنا ، وكان بطليموس في خلاله وبصفة تكاد تكون مستمرة مدافعا أو مهاجماً أو متحالفاً أو متآمراً ، سواء قبل أن يعلن نفسه ملكاً على مصر في ٣٠٦ ق.م. أو بعد ذلك .

وطوال هذه الصراع كانت الاسكندرية هي الملاذ الذي يلجأ اليه بطليموس بعد انتصاراته أو هزائمه أو حين استعداده لاستئناف شوط جديد من أشواط الصراع ، وقد أدت هذه الظروف بالضرورة إلى تشكيل نظرتة واتجاهه تشكيلاً خاصاً فيما يتعلق بالموقع الاستراتيجي للعاصمة التي اختارها للملكة والتي أصبح من اللازم أن تكون مطلة على شرقى البحر المتوسط ، الذي لم ينته فيه التناحر بين خلفاء الاسكندر على تقسيم ملكه إلا ليبدأ صراع جديد مديد حول مناطق النفوذ بين حكام الممالك المتأغرة التي قامت على شواطئ هذا البحر .

كما وقد أظهر تاريخ البطالمة صدق هذا الاتجاه إظهاراً تاماً ، سواء في فترات قوتهم أو في أوقات ضعفهم ، فالبطالمة الأوائل سيتجهون إلى فرض حمايتهم على الجزر اليونانية الواقعة في بحر إيجه وإلى التوسع على حساب سورية وبرقة وقسبرص ، وكلها مناطق دخلت في دائرة السيطرة البطلمية لفترات طويلة أو قصيرة . وحين بدأت قوة البطالمة في الاضمحلال كان الخطر

الذى يتهدد مصر يأتى من هذه المنطقة كذلك، سواء من جانب مقدونية أو من جانب سورية أو من جانبها معا فى آن واحد كما رأينا فى عهد بطليموس الخامس، ولم تكن الاسكندرية بمنأى عن هذا الصراع، فحين يحاول بطليموس السادس استرداد الاملاك المصرية فى فلسطين يرد عليه انتيوخوس الرابع بدخول مصر ومحاصرة الاسكندرية فى ١٧٠ - ١٦٨ ق.م كما أن حكم البطالمة سيشهد، عشية انتهائه، صراعا دائما فى الاسكندرية بين أوكتافيان وبين كليوباترة التى ارادت أن تقف، هى وأنطونيوس، موقفا دفاعيا أخيرا حتى بعد أن تحدد مصير مصر نهائيا فى اكتوبريوم ٣١ ق.م. (١٩٦).

كذلك كان موقع الاسكندرية، فى توسطه وإطلاله على المنطقة الشرقية للبحر المتوسط، أنسب مركز للدعاية السياسية التى وجهها البطالمة منذ بدء حكمهم بدأب منقطع النظر نحو جميع أرجاء العالم المتأغرق الذى كان يصدق بهذه المنطقة، ويكفى أن أشير فى هذا المجال إلى الوفود أو السفارات التى كان البطالمة يرسلونها بصفة مستمرة إلى جميع المناطق التى كانوا يريدون إقامة علاقات معها على مستوى أو على آخر، أو إلى السفارات الاجنبية التى كانت تصل إلى مصر وبخاصة فى أعياد البطوليمية التى كانت فى الحقيقة معرضا لكل نواحي التفوق الحضارى فى مصر والتى أراد بها البطالمة مضارعة أعياد الباناتيمية فى بلاد اليونان فى عصرها الذهبى (١٩٧).

(١٩٦) راجع القسم الثالث من هذه الدراسات (السياسة الخارجية للبطالمة).

H. I. Bell: op. cit., 39 - 40

(١٩٧)

هذا الى جانب ما أسلفت الإشارة اليه في صدد الحديث عن الدعاية السياسية البطلمية ، سواء عن طريق المجال الثقافي ممثلا في الجامعة والمكتبة أو عن طريق المجال الدين ممثلا في عبادة سراپيس - وقد كانت الاسكندرية هي المركز الوحيد بهجـال الاول ، والمركز الرئيسي للمجال الثاني .

وهكذا نجد أن الاسكندرية كانت خير مكان يصلح لتقوم به عاصمة البطالمة ، فهي في المقام الاول كانت ذات موقع يمكن البطالمة من توجيه سياستهم الدفاعية في عصر كانت صفته الاولى هي الصراع المستمر بين حكام العالم المتأغرق ، ومن جهة أخرى كانت خير مركز لإطلاق دعائهم السياسية التي كانوا يهدفون من ورائها الى توسيع دائرة نفوذهم في وقت أصبح فيه التوجيه السياسي يشير أساساً الى هذه المنطقة من البحر المتوسط .

٢ - الوضع السياسي للاسكندرية كعاصمة

واذا كان الاتجاه الذي تميز بالنشاط الدولي الواسع ، العنيف في أغلب الأحيان ، في المنطقة التي أصبحت مسرحاً للعالم المتأغرق ، هو الذي حدا بالبطالمة ، بل أكاد أقول دفع بهم دفعاً ، الى اختيار الاسكندرية كعاصمة لملكهم ، فإن الاتجاه العالمي الذي ظلت آثاره ، حتى بعد خبوته عقب موت الاسكندر ، متجسدة في ظهور الحضارتين الشرقية والغربية جنباً الى جنب في مظهر حضارى ازدواجى فريد - أقول هذا الازدواج الحضارى قد ظهر بشكل واضح في الوضع السياسي للاسكندرية في عصر البطالمة . فالاسكندرية كانت من جهة عاصمة للبطالمة ، ومن جهة أخرى مدينة يونانية من

النوع الذى انتشر فى الشرق الاذن فى أعقاب فتوح الاسكندر مثل
كسندريه وليسياخيه وأنتيجونيه وأنطاكية وهى المدن التى كانت
تمثل الحضارة اليونانية فى مهجرها الجديد فى العصر المتأغرق .

ولنبداً بالجانب الأول . لقد كانت الاسكندرية مقراً لحكومة أهلها
كل الظروف لى تكون حكومة استبدادية مركزية ؛ وكان لهذا
أكثر من سبب . فمصر دولة تميل بطبيعتها تكوينها الجغرافى نحو النظام
المركزى بشكل ظاهر ، ولم يكن هذا أمراً جديداً عليها ، بل كان أمراً
طبيعياً بالنسبة لها ، امتدت معرفتها به الى بداية تاريخها ، واستمدت
جذوره من الظروف الجغرافية التى احاطت بها ؛ فالحدود المحيطة بسوا
فى الشرق أو الغرب حيث صحراء العرب وصحراء ليبيا أو فى الشمال
حيث المستنقعات فى شمال الدلتا وحيث الساحل الخالى من الموانئ الطبيعية
السملة سواء الى شرق الدلتا أو الى غربها ، أو فى الجنوب حيث
صحراء النوبة الملاصقة لمجرى النيل وحيث سلسلة الجنادل والشلالات
التي تبدأ جنوبى سينى - هذه الحدود المحيطة جعلت التوجيه الطبيعى لمصر
نحو الوحدة والتماثل الداخلى . وقد ساعد على هذه الوحدة مجرى النيل
الذى لا تعترض الملاحة فيه من الشلال حتى المصب أية عقبات طبيعية
بما يجعله يربط ربطاً سهلاً تماماً بين أطراف القطر من أقصى الشمال الى
أقصى الجنوب ، والذى يجمع بانتظام فيضانه كل سكان البلاد على ضفتيه
أو بين أفرع دلتاه .

إن هذه الظروف تختلف قطعاً عن ظروف بلاد مثل بلاد اليونان

التي تخترقها الجبال في كل اتجاه بشكل يتعذر معه الاتصال الداخلي بين مناطقها إلا عن طريق ممرات أو أنهار أغلبها لا يصلح للانتقال إلا في أضيق الحدود ، مما جعلها تدخل التاريخ في هيئة دويلات منفصلة مستقلة عن بعضها ومنطاحنة في سياستها وتقاليدها وأحوال معيشتها ، أو مثل شبه الجزيرة العربية التي فامت فيها الامتدادات الصحراوية المقفرة بما قامت به الجبال المانعة في بلاد اليونان ، فدخلت التاريخ هي الأخرى في شكل قبائل متفرقة متناحرة بمنزعا الانفصالي مهما كان النظام السياسي الذي يجمعها من الناحية الشكلية .

ولكن على العكس من ذلك كانت مصر ، فالإطار المحكم الذي وجدت بداخله والذي تكونه حدودها الطبيعية ، والشریان الذي ظل من البداية يجمع بين سكانها ويصل بين أجزائها من شمالها إلى جنوبها كان من الطبيعي أن يدفعها دفعا نحو نظام سياسي مركزي في فترة مبكرة من تاريخها . وقد حدث ، فمصر لم تكمل تستهل تاريخها المعروف حتى كانت مناطقها المختلفة قد تم توحيدها على يد أول ملوك عهد الأسرات . وسارت منذ ذلك الوقت على نظام إداري مركزي لم يتدخل في فترات الانحلال السياسي المحدودة إلا ريثما يعود من جديد قويا كما كان .

بل حتى في الظروف السياسية الفلقة التي مرت بها البلاد في القرن الرابع ق م ظل النظام الإداري المركزي حافظا لتناسكه سواء تحت حكم الفرس أو تحت حكم الفراعنة الذين ثاروا على الحكم الفارسي وقبضوا على ناصية الأمور لفترات طويلة أو قصيرة ، فالملك تاخوس مثلا ، أحد

هؤلاء الملوك الثائرين ، استطاع في فترة استرداده للحكم من الفرس أن يحصل عدداً من الضرائب منها ضريبة الرأس وضريبة على المساكن وثالثة على مبيعات القمح ، إلى جانب ضريبة دخل مقدارها العشر فرضها على التجار وأصحاب الحرف . واستمرار الإدارة المركزية بهذا الشكل المنظم يدل دون نزاع على محافظة هذه الإدارة على كيانها العام أمام موجات الانقلاب السياسي في تلك الفترة . وحتى بعد أن استعاد الفرس سلطانهم على مصر على يد أرتاخشاشاه ظلت الإدارة المالية محافظة على تماسكها رغم التخريب الشديد الذي تعرضت له أثناء الفتح . وقد ظلت الإدارة المالية على ما هي عليه من تماسك حتى تسلبها الاسكندر بعد دخوله مصر دون أن يغير منها شيئاً فيما عدا تعيين مشرف يوناني (هو كليومينيس) على الشؤون المالية يدفع إليه أحكام المفاطعات ما كانوا يجمعونه من دخل .

وإذا كانت الظروف الجغرافية قد أعدت مصر ، التي أصبحت الاسكندرية عاصمة لها ، لكي تكون دولة تميل في حكمها إلى الصفة المركزية الاستبدادية فقد كان للناحية الإدارية نفس الاتجاه . فمصر في عهد الفراعنة كانت تحكم على أساس أن الفرعون هو مصدر جميع السلطات ، وأن له كافة الحقوق على شعب مصر وأرضها ، إذ هو أصلاً ، بصفته إلهاً أو سليلاً للآلهة ، الذي منح رعاياه كل ما يتمتعون به في حياتهم ، كما بعث في الأرض كل ما فيها من خصب ونماء ، وقد سقت في مكان سابق أمثلة على هذا الحق . وقد اتخذ بطليموس الأول منذ بداية حكمه ، سمت الفراعنة بكل ما يستتبعه ذلك من حقوق . وبني نظريته في هذا الصدد على أساس أن حكم الفراعنة لم ينقطع خلال أية فترة . فالإسكندر ، حين نصبه الكهنة المصريون ابناً للاله آمون في معبد هذا الإله بواحة سيوة أصبح بذلك

فرعون مصرى ، وأكتسب بصفته الإلهية كل حقوق الفرعون ، وبطلبيوس حين أصبح ملكا على مصر إنما كان خليفة للاسكندر ، وبالتالي فرعوناً على مصر - وهو وضع سيدعه خلفاؤه من حكام البيت المالك البطلمى عن طريق تآليه أنفسهم ، كما رأينا فى مناسبة سابقة ، بكل ما يستتبعه هذا التآليه من حقوق ، أهمها الحكم الفردى المطلق .

كذلك فالناحية الدفاعية هى الأخرى وجهة حكومة مصر نحو النظام المركزى المستبد . فالظروف التى قامت فيها الدولة البطلمية ، والتى شهدت صراع قواد الاسكندرية وخلفائه حول تقسيم امبراطوريته كانت ظروفًا شديدة قفرت بالاعتبارات العسكرية الدفاعية والهجومية إلى المقدمة . وقد كانت مثل هذه الظروف لا تسمح إلا بنظام يكون القائم فيه على الدولة قابضاً على زمام الامور بها بشكل يمكنه من تسخيرها لخدمة هذه الاعتبارات العسكرية إذا اضطر إلى ذلك ، وهذا بالضرورة نظام لا يتأتى إلا فى ظل حكم مركزى مطلق .

والذى ينطبق على الناحية الدفاعية يصدق كذلك على الناحية الاقتصادية فالصراع الدائر فى العالم المتأغرق كان من شأنه أن يدفع البطلمة إلى الاعتماد على كل سلاح من الممكن أن يلتفتوا به ليكونوا على مستوى التحدى الدولى الذى يجابههم . وقد كانت الثروة والامكانيات الاقتصادية تشكل ، دون نزاع ، أسس هذه الأسلحة . ومن هنا اتجه البطلمة إلى السيطرة على الاقتصاد المصرى وتوجيهه توجيهاً يكاد يكون كاملاً - وهو أمر لا بد أن يؤدى ، هو الآخر إلى اتجاه مركزى فى الحكم .

وقد كانت الاسكندرية ، الاسباب التى أسلفت الإشارة إليها ، هى

أنسب الامكنة في مصر لكي تكون مقرا لهذه الحكومة التي انجبت ،
بحكم الظروف ، اتجاها مركزيا ، مطلقا . وهكذا اكتسب الاسكندر
الجانب الاول ، الذي كان استمرارا للاتجاه الشرقي الفرعوني في
جانب السياسة .

٣ - الوضع السياسي للاسكندرية كمدينة يونانية

ولكن الاسكندرية كانت مدينة أنشأها الاسكندر على النمط اليوناني ،
شأنها في ذلك شأن بقية المدن التي أنشأها خلفاء الاسكندر في مصر وفي
غير مصر ، وقد كانت المدن اليونانية كياناتها المستقل القائم بذاته ، الذي
هو في الواقع كيان دولة ، وهو وضع لا بد أن يتعارض مع نظام الحكم
المركزي الذي سار عليه هؤلاء الخلفاء الذين أصبحوا حكاما للعالم المتأغرق
فماذا كان من أمر هذه المدن ؟

لقد بقيت هذه المدن محافظة على المظهر التفليدي لنظام دولة المدينة ،
ولكنها فقدت ، بالضرورة ، مضمونة ، فالتقسيم القلي (الذي كانت تقوم عليه
إدارة دولة المدينة) وجد ، ولكنه أصبح مجرد تقليد أو يكاد ،
ولم تعد له الصفة الجوهرية التي كانت تتجلى في فترة ازدهار نظام المدينة
في توزيع مناصب القيادة العسكرية في المدينة بين انقبائل مثلا ، والملعب
gymnasion وجد ولكنه لم يعد حجر الزاوية في تكوين المواطنين في
في فترة التدريب العسكري ephebeia التي كانت إحدى مقومات حق
المواطنة - بعد أن أصبحت الجنود المرتزقة هي عماد الجيوش في العهد
المتأغرق ، والأرض chora كانت هي الأخرى موجودة حول المدن
اليونانية الجديدة في كثير من الأحوال . ولكن غرضها الأساسي ، وهو

أن تكون، كمورد إقتصادي، إحدى الدعائم الأساسية لنظام دولة المدينة، لم يعد أمراً طبيعياً في ظل نظام الملكيات الكبيرة التي تعتمد على موارد أوفر بكثير من الموارد التي عرفتها المدن اليونانية في عصر دولة المدينة ، والذي تحول فيه الدور الاقتصادي للمدينة اليونانية من دور إنتاجي إلى دور توزيعي محض بعد أن انتقلت الطاقة الإنتاجية أساساً إلى الريف ، وهكذا تعرض هذا الجانب الجوهري من جوانب نظام المدينة إلى مجرد شكل يظهر أو يختفي حسبها يتراعى للحكومة المركزية .

وأخيراً وليس آخراً فقد كانت هناك مسألة المجالس التشريعية ، وهي حجر الأساس في نظام المدينة اليونانية ، والأدلة متوفرة على وجود هذه المجالس في كثير من هذه المدن . ولكن رغم وجود هذه المجالس فقد كانت السلطة الأساسية ، كما أسلفت ، مركزة دائماً في يد القوة الكبيرة المسيطرة على أمثال هذه المدن . بدأ ذلك منذ أن أصبح فيليب الثاني المقدوني زعيماً إجبارياً للحلف اليوناني المكون من المدن اليونانية غداة انتصاره عليها في معركة خيرونيه عام ٣٣٨ ق . م . واستمرت بعد ذلك في عهد الاسكندر الذي ورث زعامة هذا الحلف عن أبيه والذي اتجه ، رغم احتفاظه من ناحية الشكل بصفه الزعامة ، إلى التدخل في شؤون المدن المكونة للحلف بشكل يترب كثيراً من الحكم المركزي الذي أصبح القاعدة التي سار عليها خلفاء الاسكندر في العصر المتأخر .

وهكذا لا يمكن أن نتصور مثلاً أن تمتد سلطة المجالس الشريعية إلى مناقشة أمور تتعلق بالامن الداخلي أو بالدفاع عن البلاد أو بإعلان حرب

أو عقد سلام أو تشكيل اتجاه سياسى خارجى ، وإنما ستقتصر ملطة هذه المجالس على أمور داخلية لا يمكن أن تخرج كثيرا عن نطاق الاحتياجات اليومية للسكان ، أو تنظيم سياستهم الاجتماعية بشكل أو بآخر ، أو ممارسة بعض جوانب نشاطهم الترويحى أو الترفيهى ما دام ذلك لا يتعارض أساسا مع اتجاهات الحكومة المركزية - ومن هذه الزاوية يجب أن ننظر إلى الملامح اليونانية التى حافظت عليها هذه المدن كمناصر للاستهلاك المحلى فحسب ، تمكن مواطنيها من أن يقيموا نظاما إداريا محليا بحيث لا يختلف كثيرا عن نظام المجالس البلدية الذى نعرفه الآن ولاكنه لا يتعدى ذلك إلى أى نشاط جوهري ترى الحكومة المركزية من صالحها أن تظل مسيطرة عليه .

* * *

وفي ظل هذه الفكرة يجب أن ننظر إلى وضع الاسكندرية كمدينة يونانية . وفي هذا المجال إذا كان وجود بعض العناصر المميزة لنظام المدينة أمر ثابت كما هو الحال في التقسيم القبلى للمكندريين وفي وجود أرض يحيط بها وتابعة لها وفي وجود الملعب وغيره من المظاهر الاجتماعية للمدن اليونانية ، (١٩٨) فإن الجانب الأساسى لهذا النظام ، وهو المجالس التشريعية ، لا يزال يحيط به قدر غير قليل من الغموض . وفي السطور التالية سأحاول أن أناقش هذه المجالس من ناحية قيمتها الدستورية في ظل الحكم المركزى المطلق لذى أسلفت الإشارة إليه ، وسأتناول في المقام الاول المجلس الشعبى أو الجمعية الشعبية ، ثم أنتقل منه إلى مجلس الشورى أو مجلس الشيوخ .

واللفظان المذان يطلقان عادة على المجلس الشعبي هما ديموس demos (ومعناها الحرفى الشعب) أو الإكليزية ekklesia أما عن كلمة ديموس فنحن لا نصادفها بالمرّة فى النصوص التى تتعرض لتاريخ الإسكندرية ، سواء بالإشارة أو التفصيل . والمناسبة الوحيدة التى ورد فيها هذا اللفظ هى نقش موجود بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية يشير إلى قرارات اتخذها الديموس ومجلس الشورى ؛ وقد قيل فيها يتعاق بهذا النص أنه لا ينتسب إلى الإسكندرية وأنه ربما يشير إلى مجلس رودس ، وإن كان جوهريه قد حاول بقدر كبير من النجاح أن يثبت أن اللهجة الدورية التى تميز لغة الرودسيين لا أثر لها فى النقش ، وأنه لا يوجد به ما ينقض نسبته إلى الإسكندرية ورغم أنى أرى شخصيا ، اعتمادا على ملامح النقش ومقاييسه ، أنه ينتسب إلى الإسكندرية ، إلا أنى سأترك هذا جانبا لأننا لا نملك من وسائل تحقيقه بالأدلة المادية المقارنة ما يقوم مقام الافتراضات الحالية (١٩٩). أما كلمة إكليزية فإنها ترد فى بعض هذه النصوص ولكن دون أن تعطى المعنى التقليدى الذى يشير إلى التنظيم الخاص للمجالس الشعبية كما نعرفها فى العصر اليونانى ، وعلى هذا فلا يمكننا أن نعتمد على هذه النصوص فى مناقشة الفكرة التى نحن بصدددها .

على أن كلمة أخرى تقرب بعض الشيء من معنى المجالس الشعبية بدأت تتردد فى النصوص المتعلقة بالشعار الأول من العصر المتأخر

بوجه عام ، وتظهر في تلك التي تشير إلى مدينة الاسكندرية - هذه الكلمة هي « المقدونيون » وقد كان طبيعيا أن تظهر هذه المجالس في هذا الوقت بالذات ، إذ كانت الصفات العسكرية المقدونية لا تزال مسيطرة على حكم الممالك المتأثرة فحكم هذه الممالك كانوا من القواد المقدونيين ، ونظام الجيش المقدوني وتقاليده كانت لا تزال سائدة في ممالك هؤلاء الحكام وفي جيشهم في بداية العصر المتأغرق . وهذه المجالس التي يشير اليها لفظ hoi Makedones أو مرادفاته تمثل تقليدا عرفه الحكم المقدوني منذ بدء ظهور مقدونية ، ثم انتقل مع قواد الاسكندر إلى الممالك المتسأغرة التي أصبحوا ملوكا عليها . وكان هذا اللفظ يطلق على القواد المسأحة المقدونية مجتمعة في هيئة مجلس ، وكانت هذه القوات ، بهذا الوضع ، هي التي تمنح السلطة الرسمية للحكام . وهكذا كان لا بد من انعقاد مجلس المقدونيين هذا عند اعتلاء الملوك المقدونيين للعرش ، وفي حالة ما إذا كان الملك فاصرا كان هذا المجلس هو الذي يختار الوصاة ، كما كان يعقد في هيئة محكمة في حالات الخيانة العظمى .

هذه المجالس انعقدت في بعض المناسبات عندما كان الاسكندر في آسية ، ومن بينها المجلس الذي عقد في بابل ، غداة موت الاسكندر ، لينظر في مصير امبراطوريته . وقد زادت سلطاتها في عهد خلفاء الاسكندر بشكل واضح . ومن المرجح أن بطليموس الاول لجأ إلى مجلس من هذا النوع عندما أراد أن ينقل ولاية عهده من بطليموس كراونوس ابنه من زوجته يوريديسكى إلى بطليموس ابنه من زوجته برينيكى . ويرى لنا المؤرخ بوليبيوس فيما يتعلق باانعقاد المجلس عند ارتقاء بطليموس الخامس

(إبيفانيس) العرش أن الوزير يوسيبوس هو وأجاثوكليس ، احد رجال البلاط المقربين من بطلميوس الرابع ، قرأوا في الصالة الكبرى بالقصر الملكي أمام رجال القصر وضباط المشاة والفرسان وصية الملك الراحل الذى يجعلهم فيها أوصياء على ابنه القاصر ، ثم يذكر لنا كيف أن أجاثوكليس هذا حاول بعد ذلك أن يقدم الملك القاصر أمام المقدونيين ، (٢٠٠) .

كان هذا هو المجلس الذى يقرب نظامه إلى حد ما من الفكرة العامة للمجلس الشعبى والذى عرفت الاسكندرية فى الشطر الاول من العصر البطلمى . وهو مجلس له بعض السلطات السياسية كما رأينا ، ولكنه لا يمثل إلا الجنود وضباطهم ، بينما كانت المجالس الشعبية التقليدية التى عرفها العصر اليونانى تضم جميع المواطنين ، ثم إن مجلس المقدونيين هذا يبدو أنه كان لا يجتمع إلا لأمر خطير طارئ يحتاج إلى حل حاسم ، بينما كانت المجالس الشعبية التقليدية تعالج جميع ما يعن للبلد من مشاكل داخلية وخارجية .

على أن هذا النوع من المجالس كان لا يمكن أن يستمر فترة طويلة فى الاسكندرية أو فى غيرها من مدن العالم المتأغرق ، فبعد جيل أو جيلين فقد المقدونيون فى مصر كل صلة بالجو المقدونى الذى كان فيه مجلس

Jouguet : Les Polyb.: xv, 23 a; 26, 1—9. (٢٠٠) أنظر تعليق :

Assemblées d'Alexandrie a l'Epoque Ptolemaïque,
Bull, de la Soc d'Arch, d'Alex, 1948, p 81 & n, 28

المقدونيين يمثل نوعا من التماسك أو التجاوب بين الصفة المدنية والصفة العسكرية . بل لقد ابتعدت جيوش الممالك المناغرة شيئا فشيئا عن التقاليد المقدونية . بعد أن بدأت تضم بين جنودها أعدادا كبيرة ومن غير المقدونيين من سكان شواطئ البحر المتوسط ومنهم ، في حانة مصر ، كثير من المصريين الذين فتحت أمامهم فرص الترقية حتى وصلوا إلى أعلى مراتبها بما في ذلك صفوف الحرس الملكي .

* * *

وهكذا أخذت الإشارة إلى هذا المجلس تقل تدريجيا في الكتابات التي عاصرت أو تناولت تلك الفترة . حتى إذا انتهى عهد إيف-انيس لم يعد من الممكن العثور على الألفاظ التي كانت تستخدم للدلالة عليه (٢٠١) . وإنما أخذت تحل محلها في القرنين الثاني والاول ق م لفظة جديدة هي « السكندريون » Alexandreis في المناسبات التي تظهر فيها الحاجة إلى نوع من التصرف السياسي ، والتي لا يكون فيها الملك أو كبار موظفيه ، لسبب أو لآخر ، هم القائمون بهذا التصرف أو الموجهون له .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، ففي ١٦٩ ق م . حين هدد أنتيوخوس

(٢٠١) من هذه الألفاظ hoi Makedones وتصريفاتها أنظر :

Arrian.: Anab. III, 26, 7; IV, 14. 2. Diod, XVI, 3, 1;
XVIII, 36, 7; Plut., Alexandros 55, Eumenes, 8, 12;
Polyaenus, iv, 6, 14;

Diod.: XVII, 39, 4; xix, : koine ekklesia أنظر :

15, 1 وكذلك Koine ton Makedonon ekklesia أنظر :

Diod.: XIX, 51, 1, 61. 1.

الرابع مصر، وسقط بطليموس فيلوميتور بين يدي العدو، نجد، «السكندريين» يضعون زمام الأمور في يد أخيه الأصغر الذي سيشارك أخاه في الملك تارة على عرش مصر وتارة في حكم برقة حتى ١٤٥ ق.م. وحين يموت فيلوميتور في تلك السنة نجد وفداً من هؤلاء «السكندريين» يقوم بتسليم هذا الأخ الأصغر شؤون الحكم في مصر تحت اسم يوليوجيتيس الثاني. وعندما يموت هذا الملك في ١١٦ ق.م. تاركا ولدين ووصيه يعهد فيها إلى أرماته كليوباترة الثالثة باختيار أحدهما ملكا لمصر، نجد، «السكندريين» يجبرونها على اختيار أكبرهما، سوتير الثاني، للعرش بينما يترك الابن الأصغر أمر الحكم في قبرص، وفي ١٠٨ نجد هذه الملكة التي كانت تحكم مع ابنها تقوم بطرده بمعاونة هؤلاء السكندريين أنفسهم الذين أجبروها منذ ثمان سنوات على اختياره للعرش، ثم لا تلبث أن نجد وفدا منهم يستدعيه ليعود للحكم مع ابنته برينيكى الثالثة.

كذلك يبدو محتملا أن السكندريين هم الذين قاموا في ٥٧ ق.م. بطرد بطليموس أوليتيس وأعطوا التاج لابنته كليوباترة الرابعة، كما أخذوا يبحثون لها عن زوج من بين الأمراء السوريين، ولكنهم يعدموا موقفهم هذا ضد أوليتيس أرسلوا إلى رومه وفدا مكونا من مائة عضو تحت رئاسة العالم السكندري ديون الذي نجح أوليتيس في اغتياله (٢٠٢).

(٢٠٢) Strabo: xvii, c, 796. Dio Cass., xxxix 12, 2 — 13,1.

Bouché Leclercq: ii, p. 147 Jouguet ; Les Assemblées d'Alexandrie a l'Epoque Ptolemaïque, Bull. de la Soc. d'Arch. d'Alx., 1948, p. 48 f.

وهناك ، غير هذه ، أمثلة كثيرة يظهر فيها السكندريون سواء باسمهم اليوناني الذي أسلفت ذكره أو بمرادفه اللاتيني *Alexandrinus* الذي عرفهم به الرومان أو بمرادفات أخرى يونانية أو لاتينية أصبحت تطلق عليهم وتفيد معنى الشعب أو العامة مثل *plethos* و *ochlos* اليونانية و *multitudo* و *populus* اللاتينية (٢٠٣) .

ولكن من هم هؤلاء السكندريون ؟ وهل كان لهم التنظيم الذي عرفت به المجالس التشريعية في العصر الذهبي لنظام المدينة ؟ إن الجالية اليونانية السكندرية كان لها تنظيم مدني *politeuma* على جانب كبير من الدقة ، فقد كانت مقسمة إلى قبائل تنقسم بدورها إلى أحياء ثم إلى عشائر على النظام التقليدي لمدن اليونانية . كذلك يبدو من تنظيمها أنها كانت لاتضم كل من أراد الالتحاق بها وإنما كانت تقتصر على عدد محدود هم الذين تسجل أسماءهم في سجلات الأحياء أو المناطق ، أو الذي ينتظرون تقييد أسمائهم في هذه السجلات وهؤلاء هم الذين كان لهم حق الاشتراك في النشاط السياسي ، أما اليونانيون الآخرون الذين يخرجون عن نطاق هذه الشروط ، فإنهم لا يتمتعون إلا بالحقوق المدنية كذلك كان لا بد لأعضاء هذه الجالية من إعداد موجه منظم حتى يصبحوا مواطنين عاملين ، فقبل أن يحصلوا على حقوقهم المدنية والسياسية كان عليهم أن يمروا بفترة من التدريب والتثقيف

العسكريين ephabeia تؤهلهم للتمتع بهذه الحقوق (٢٠٤) .

هذا التنظيم الدقيق يوحى بأن السكندريين الذين رأيناهم يأخذون على عاتقهم توجيه الأمور في الأمثلة التي ذكرتها آنفا ، كانوا يمارسون نشاطهم السياسى هذا كـ مجلس منظم . ولكن بعض المناسبات التي تمت فيها هذه الاجتماعات السياسية تشير بوضوح إلى أن الذين كانوا يجتمعون في هذه المجالس لم يقتصرُوا على « السكندريين » ، بتنظيمهم الضيق الذي أشرت إليه وإنما كانوا يضمون بينهم عناصر يونانية أخرى من سكان الاسكندرية الذين لم يكن يشملهم هذا التنظيم . بل تشير بعض هذه الأمثلة إلى أن الغوغاء الذين كانت تزدهم بهم شوارع المدينة ، كانوا هم الآخرون يذهبون إلى هذه الاجتماعات . يبدو هذا واضحا من حديث المؤرخ ديونكاسيوس عن المناسبة التي أعلن فيها بطايوس السادس الحرب على أنتيوخوس الرابع . وفي هذه المناسبة يصف لنا كيف قام يولايوس وليناياوس ، الأوصياء على الملك ، بدعوة العامة ليحشوا الملك على الموافقة على إعلان الحرب (٢٠٥) . بل أكثر من هذا نجد أن هذه الاجتماعات لم تكن تقتصر على المدنيين ، وإنما يكاد يكون من المقطوع به أن عناصر

M.A.H.El- Abbadi : The Alexandrian; Id. : Ibid.(٢٠٤)

Citizenship (Journ. of Eg., Arch, 1962) صفحات ١٠٧ وما بعدها

راجع الباب الخاص بالوضع الاجتماعى فى الاسكندرية فى نهاية هذا القسم ، وفيه تفصيل للأراء المختلفة حول وضع السكندريين .

Dio Cass. : xxx. 16.

(٢٠٥)

عسكرية كانت تختلط بالمجتمعين بشكل غير منظم أو منظم وبخاصة في فترات الاضطراب ، وهكذا أمكن ليوليوس قيصر أن يكتب في ٥١ ق. م. أن جنود مصر كانت لديهم عادة طرد الملوك الذين لا يرضون عنهم وتعيين آخرين مكانهم (٢٠٦) وهو في هذا المجال ليس بصدد الحديث عن مجالس عسكرية منظمة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما يصف هذه الحركات التي يشترك فيها الجنود كثورات غير منظمة . كذلك بما ينفي الصفة العسكرية المنظمة عن هذه الاجتماعات الصاخبة أن قيصر حين أراد لإقرار كليوباترة السابعة وبطلميوس الثالث عشر على عرش مصر ، أعلن ذلك أمام الإسكندرانيين مجتمعين في هيئة مجلس *ekklesia* ولا يمكن أن يكون الكلام عن مجالس عسكرية ، إذ قد حدث ذلك بعد أن حمل جنود البطالمة السلاح ضده في بلوزيون (٢٠٧) .

كان هذا هو مجلس الإسكندرانيين وهو كما رأينا لا يمكن أن يوصف بأنه مجلس منظم بالمعنى الذي ينطبق على المجالس التشريعية التي عرفها عصر نظام المدينة ، كما أنه لا يقتصر في تكوينه على من لهم حقوق المواطنة الإسكندرية ، وإنما يضم إلى جانب هؤلاء عناصر أخرى مدنية وعسكرية

(٢٠٦) *Cass. : de Bell. Alex. III, 110* . وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن الجنود لم يكن بينهم مواطنون يحملون الصفة الإسكندرية أنظر :

P. Hamburg, 1968 وراجع تعليق : *op. cit.* : *EI - Abbadi*

ص ١٠٩

(٢٠٧) *Dio Cass. XLII. 35, 4-5; Jouguet; B S.A. A , 1948. p. 80.*

غير منظمة . كذلك نلاحظ أن المناسبات التي يظهر فيها إلى حد ما ، كوجه لسياسة البلاد ، تكاد تقتصر على فترات الاضطراب التي تصحب انتقال العرش من ملك إلى ملك أو التي يسببها النزاع الأسرى بين أفراد البيت الحاكم البطلمي ، وما يتبع ذلك من دسائس ومكائد ومؤمرات . أما فيما عدا ذلك فلا تكاد نشهد مجلس السكندريين هذا يشترك في تصريف أمور البلاد في الأوقات التي يتم فيها الاستقرار .

ولكن مع ذلك فقد كان المجلس ذا كيان معنوي معترف به بشكل رسمي أو على الأقل شبه رسمي ، يظهر ذلك من حرص قيصر على عقده وإعلانه بتثبيت كليوباترة السابعة وأخيها على العرش كما ذكرت ، كما يظهر في مناسبة أخرى حين جمعه أنطونيوس ، بصفته زوجا لكليوباترة ليعلم أمامه توزيع أجزاء من الامبراطورية الرومانية (أو الأقاليم الداخلة في دائرة نفوذها) على كليوباترة وأبنائها (٢٠٨) . ولكن إذا كان هذان المثلان يظهران أن لهذا المجلس كيانا رسميا رغم عدم تحديده أو تنظيمه على الأقل في بعض المناسبات ، فإنها يظهران كذلك أن سلطته ، في غير

(٢٠٨) Dio Cass. : XLIV. 41. L. 5. 1 ; plut: Ant. 54.
هذا ولن أتكلم هنا عن مجلس الجيوسيا، ففوق أن النص الذي يذكر هذا المجلس مهمل بشكل يجعل الاعتماد عليه أمراً غير مقبول نجد أن اشرف هذا المجلس ربما كان أدبيا أو أخلاقيا أكثر منه سياسيا أو اداريا . أنظر :

Λ. v. premerstein. : Alexandriche Geronten von Katsar Gaius, Mltt. aus d. Papyrussammlung der Gierssen Universitaetsbibliothek. v. p. 57 — 61 : Jouget Les Assemblées d'Alex. à l' Epoque Ptolemaïque, 1948, p. 90 & n. 64.

أوقات الاضطرابات ، كانت سلطة إسمية فحسب ، إذ من الواضح أن موقف أعضائه من إعلان كل من قيصر وأطونيوس لم يكن موقف المناقش الذى له حق التعديل أو الرفض الى جانب حق الموافقة ، وإنما كان موقفا لا يمكن أن يزيد كثيرا عن مجرد استكمال الرسميات التى جرى بها العرف أو رسمها القانون ، وقد لا أخطئ كثيرا اذا قلت ان ما رأيناه فى هاتين المناسبتين لا بد أن ينطبق الى حد كبير على فترات الاستقرار المتناثرة فى الفترة التى سبقت تدخل كل من قيصر وأنطونيوس .

* * *

على أن مجلس المقدونيين ومجلس السكندريين لم يكونا المجلسين الوحيدين الذين عرفتهما مدينة الاسكندرية ، فقد كان هناك كذلك مجلس لـ *Boule* . حقيقة لقد ثار الخلاف حول وجود هذا المجلس أو عدم وجوده ، وقد بدأ المؤرخ مومسن *Momsen* هذا الإشكال حين ذكر أن وجود المجالس التشريعية لا يمكن أن يتفق والاتجاه المركزى الاستبدادى الذى سار عليه البطالمة فى حكمهم ، واستنتج من ذلك أن مثل هذه المجالس لم توجد لا فى الاسكندرية ولا فى غيرها ، وتبعه فى رأيه هذا عدد من المؤرخين من بينهم بوشيه - لسكرى ، وتارن الذى قرر أن المدن اليونانية التى أسست فى العهد المتأغرق لم تكن فى نظامها مدنا يونانية بالمفهوم الذى ساد فى عصر دولة المدينة ، وإنما كانت مدنا من نوع جديد (٢٠٩) .

Momsen : Roemische., Gesch v, p. 557; Bouché — (٢٠٩)
Leclercq : Hist. des Lagides. III. pp. 152ff, Tarn :
Hellenistic Civilisation (3rd. ed.), p. 185.

ولكن مع ذلك فان كل الشواهد تشير الى وجود هذا المجلس وإلى أنه كان أحد عناصر نظامها منذ فترة تأسيسها ؛ ومن هذه الشواهد الخطاب الذى وجهه الامبراطور كلاوديوس إلى السكندريين (٢١٠) .
والذى يقول فيه ، فى أثناء مناقشته لالتماسهم بخصوص إقامة مجلس للشورى ، « أما عن أنكم كنتم تتمتعون بمجلس للشورى فى عهد ملوككم الأقدمين فهذا أمر لا أريد أن أخوض فيه » . وواضح من الرد أن السكندريين ذكروا أن مدينتهم كان لها مجلس للشورى فى عهد الملوك البطالمة ، ولا يمكن أن تتصور أنهم كاذبون فى دعواهم ، إذ لو كان الأمر كذلك لما تردد كلاوديوس فى أن يواجههم بسكندريتهم ولكن رده عليهم أنهم يطلبون إليه ما لم يستطاعوا الحصول عليه من ملوكهم وبني جلدتهم ، بدلا من أن يلجأ إلى مداورتهم ليتخلص من الطلب الذى أسرجوه به ، كما يظهر لنا من كلامه حين يذكر لهم فى نفس الرسالة : أن هذه هى المرة الأولى التى يتقدمون فيها بمثل هذا الطلب وأنه لا بد أن يدرسه فى ضوء مصالحته الخاصة وتبعاً لما يعود على المدينة بالخير والنفع . أما عن تجاهله لفكرة وجود هذا المجلس تحت حكم البطالمة ، فهذا أمر إن دل على شئ فأنما يدل على أنه يريد الافلات من حجة دامغة فى يد السكندريين وهى أن المجلس قد وجد فعلاً فى فترة ما ، وأن التجاهل هو طريقته فى التهرب من الرد على هذه الحجة .

(٢١٠) Bell : (P. Lond.) , Jews and Chrtstians in Egypt. 1924, p. 84
Hunt & Edgar : Select Papyri, II, no. 212, p. 84

هذا ، وليس خطاب كلاوديوس هو الشاهد الوحيد على وجود مجلس الشورى السكندري ، وإنما توجد إلى جانبه أدلة قياسية وأخرى استنتاجية . فمجالس الشورى وجدت في عدد كبير من المدن التي قامت في العصر المتأغرق على النمط اليوناني سواء في مصر أو في خارجها ، ومن بين هذه المدن برغامة وأنطاكية في خارج مصر ، وبطوليمايس في داخلها ، وفي هذه الأخيرة عثر في ١٨٩٦ على ثلاثة قرارات صادرة من المجلس الشعبي ومجلس الشورى بها (٢١١) . كذلك كانت الظروف التي أحاطت بقيام الدول المتأغربة تشجع على إنشاء مثل هذه المجالس ، فحكم هذه الدول كانوا يعملون جاهدن دلي اجتذاب الاغريق لكي يهاجروا إلى دولهم ويقيموا ويستقروا بها ، إذ كانوا يعتمدون في تأسيس ممالكهم على ما لهُؤلاء المهاجرين من دراية عسكرية لم ينسوا أن الاسكندر استطاع بالاعتماد عليها أن يقيم امبراطورية مترامية الأطراف ، وعلى ما كان لديهم من خبرة في الجوانب الادارية والاقتصادية والفنية وغيرها . وطبيعي أن يعمل هؤلاء الملوك على إيجاد الجو الذي تتوفر فيه كل أو أغلب دواعي الاغرام لهُؤلاء المهاجرين ، وهو جو دولة المدينة اليونانية الذي ظل اليونان على تعلقهم به حتى بعد أن أصبح نظام دولة المدينة شكلا فقد موضوعه بعد ظهور القوة المقدونية . وقد كانت المجالس التشريعية دون شك هي أهم مقومات هذا الجو اليوناني .

ونحن لا نعرف شيئا عن تكوين هذا المجلس ، ولكنه بالقياس على ما كان معروفا في المدن اليونانية لن يكون تكوينه على النطاق الواسع

الذى عرفته مجالس العامة التى ينتمى إليها مجالس السكندريين الذى سبق ذكره ، وإنما ستكون عضويته على نطاق ضيق بطريقة تقصر هذه العضوية على المواطنين الذين يتميزون بوحدة أو أكثر من ميزات السن أو الثروة أو المكانة . ولا أريد أن أقول هنا إن مجلس الشورى السكندري كانت له نفس القوة أو نفس المجال الذى عرفته مجالس الشورى فى عصر ازدهار دولة المدينة ، أو أنه استطاع أن يقف من الناحية السياسية ، فى وجه الاتجاه الاوتوقراطى الذى دمج حكومات العالم المتأغرق والذى سار البطالمة عليه ؛ ولكن هذا المجلس بتكوينه هذا وعضويته المتميزة كان دون شك على جانب لا بأس به من الوزن الأدبى الذى قد يصبح معه يوما ما نواة تبلور حولها مصالح المواطنين السكندريين ، وقد يكون هذا هو السبب الذى من أجله حل هذا المجلس فى فترة غير معلومة أثناء الحكم البطلمى ، وهو ترجيح يشير إليه أكثر من دليل ، رغم ما يحيط بهذه المسألة حتى الآن من غموض واختلاف فى رأى .

والأدلة على اختفاء مجالس الشورى فى أثناء العهد البطلمى غير قليلة ، سواء تلك التى تقوم على تفسير بعض الوثائق وكتابات المؤرخين القدماء الذين أشاروا إلى هذا المجلس ، أو التى تستمد قوتها من الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى أخذت تبلور نحو أواسط العصر البطلمى . وفى معالجتي للنوع الأول من الشواهد ولنسجمها بالشواهد الكتابية ، سأختار النصوص الثلاثة التى لا يحيط أى شك أو غموض بألفاظها أو نوع كتابتها أو الوقت الذى تنسب إليه (٢١٢) ، بحيث تصبح مادة صالحة للنقاش:

(٢١٢) هناك نصان لا يمكن الاعتماد عليهما كلياً لما يحيط بهما من غموض أو نقص ،

وسأبتدىء بنص يذكر فيه المؤرخ ديوكاسيوس أن أوكتافيان ، عند فتحه لمصر ، ترك الإدارة على ما هي عليه ولكنه « أمر بأن يمارس السكندريون حياتهم السياسية دون أن تكون في لهم عضوية مجلس الشورى » (٢١٣). وقد يفسر ذلك بأن مجلس الشورى السكندري كان لا يزال قائماً في الوقت الذي تم فيه فتح مصر على يد الرومان وأن أوكتافيان أمر بحله ، وهو تفسير قوى ومعقول ، ولكنه ليس التفسير الوحيد ، فقد يكون معنى النص كذلك أن السكندريين طلبوا إليه أن يعيد إليهم هذا المجلس ، ولكنه رفض مطالبهم وأمر بأن يمارسوا حياتهم السياسية بدونهم .

على أن هذا التفسير الأخير قد لقي اعتراضات من موريس إنجرز Maurits Engers الذي أشار إلى أن الخوف الشامل الذي سيطر على السكندريين غداة انتصار أوكتافيان عليهم والذي صورته بلوتارخوس أدق

= الأول نقش نشره E. Breccia في : Iscrizione Grechee Latine,

no. 146. pl. XXVI. 64 وقد حاول Plaumann تكميله ودراسته

تحت عنوان ' Bemerkungen zu den Aegyptischen Eponymen

Datierungen aus Ptolemaisher Zeit, (Klio XIII) pp. 485-90

أنظر تعليق p. 72 Lutfi A-W. Yehya: op. cit, Jouguet: op. cit ;

أما النص الثاني فتتضمنه بردية نشرها Vitelli & Norsa في مجلة

Bull. de la Soc. d'Arch. d'Alex. xv. suppl وأعاد التعاقب

عليها في العدد ١٧ من نفس المجلة .

J H. Oliver: Aegyptus xl pp. 165-7 أنظر كذلك عن هذا النص

Jouguet: op. cit.: Lutfi A-W. Yehya: op. cit., pp. 73-4

Dio Cassius: Ll. 17

تصوير ، لا يمكن أن يحررنا منه على التقدم اليه بمثل هذا المطلب .

وحقيقة أن بلوتارخوس يذكر لنا أن السكندريين كانوا في ذهول تام من الخوف بعد هزيمتهم وأنهم لقوا قاهرهم ساجدين في خشوع وخضوع عندما دخل مدينتهم بعد انتصاره (٢١٤) . ولكن هذا جانب واحد من الصورة ، أما الجانب الآخر الذي يصوره بلوتارخوس نفسه ، والذي يشترك معه ديون كاسيوس في تصويره ، فإيربنا موقفا آخر ، نرى فيه أوكتافيان وقد عفا عن السكندريين ، بل نراه يعلنهم بهذا العفو في خطاب حرص على أن يلقى به بلغتهم اليونانية ، وضمنه إلى جانب إعلان العفو ، لإظهار إعجابه بجمال مدينتهم وتقديره لعظمة مؤسساتها . ثم نراه يعيد إليهم أسراهم دون أن يلحق بهم أى أذى ، ويكرم آريوس ، أحد فلاسفتهم الظاهرين ، الذى اصططحبه أوكتافيان أثناء إقامته بالمدينة ، واستمع إلى آرائه وأظهر تقديره لشخصيته بأكثر من طريقة (٢١٥) .

إن هذا الجو يخالف دون شك الصورة الأولى التى اعتمد عليها إنجمرز فى اعتراضه ، فهو جو مشجع إلى حد كبير ، ولا يستبعد أن يعمل السكندريون على الانتفاع به لصالحهم ، وبالفعل نجدهم ، بعد أن استعادوا شيئا من طمأنينتهم يحاولون أن يؤثروا على أوكتافيان وأن يجتذبوه إلى جانبهم ، فبعد أن يزور قبر الإسكندر نجدهم يدعونه إلى زيارة قبر قيصر

M. Engors: Der Brief des Kaisers an die Alexandriner, (٢١٤)
Klio, XX. p. 171; Plut: Anton; LXXX
Plut.: Ibid; Dio Cassius: Ll. 163-5 (٢١٥)

ملوكهم والى زيارة معبد حابى (أيس) (٢١٦) . وليس غريبا فى وسط هذا الجو المشبع بمحاولة التقرب والنواد من الجانبين ، أن يطلب الإسكندريون الى أوكتافيان أن يعيد اليهم مجاس الشورى الذى تمتعت به فى يوم من الايام مدينتهم التى نوء بجمالها .

وهنا قد يقول فائل : اذا كان أوكتافيان قد أتمع مع الإسكندريين سياسة الاستمالة ولين الجانب ، فلم لم يحقق رغبتهم هذه التى تقدموا بها اليه ؟ والجواب على هذا عسيرا ، فأوكتافيان كان يعرف أين تنتهى سياسة اللين وأين يجب أن تبدأ سياسة الحزم . وقد ظم ذلك واضحا فى معاملته للإسكندريين ؛ فهو قد زار قبر الاسكندر مثلا ، ولكنه رفض دعوتهم لزيارة قبور البطالمة لما قد يكون فى ذلك من معنى الاعتراف بهؤلاء الملوك أو بسياستهم ، وهو أمر لم يكن يريده ، وهكذا كان جوابه الحازم الحاسم فى هذه المناسبة هو أنه جاء لزيارة ملك (يقصد الاسكندر) وليس لزيارة قبور الموتى ، (٢١٧) . كذلك كان أوكتافيان يدرك ، الى حد ما يذكر لنا ديون كاسيوس ، أن مصر بلد وفير السكان ، وأنه قد يفتتح بهذه الوفرة العددية فى ظرف أو فى آخر ، وأنه لهذا ليس من الخير أن يلحق بهم أذى لا مبرر له فند يكون سبب مضايقة له من جانبهم فى يوم من الايام ، وعلى هذا اتجه مع سكان العاصمة المصرية الى سياسة الملاينة والجمالة .

ولكن أوكتافيان كان يدرك كذلك ما لفتح مصر من قيمة فى تدعيم

مركزه الجديد الذى أصبح فيه ، بعد قضائه على أنطونيوس ، سيداً للإمبراطورية الرومانية . فمصر بثروتها من الحبوب التى ستوفر لسكان رومه ما يحتاجونه من الخبز اليومى ، وبموقعها الاستراتيجى الممتاز قرب الحدود الشرقية المضطربة للإمبراطورية الرومانية ، وبمركزها التجارى المتوسط بين حوض البحر المتوسط وبين الشرق الغنى بخيراته - كل هذه المميزات جعلت منها مكسباً لا يمكن التفريط فيه . وقد ظهر حرصه هذا فى قراره الذى حرم فيه أفراد طبقة مجلس الشيوخ ، وهى الطبقة الأرستقراطية التقليدية (التى كانت لاتزال تتمتع بنفسوذ أدبى كبير فى رومه رغم تركيز السلطة الفعلية فى يد أوكتافيان) من أن يسكنوا ولاية لمصر ، والذى اتخذ فيه ولايته عليها من طبقة الفرسان (مخالفين بذلك العرف السياسى الذى سارت عليه رومه فى هذا المجال) كما حرم فيه على أعضاء هذا المجلس أن يدخلوا الولاية الجديدة دون إذن صريح منه (٢١٨) إن أوكتافيان الذى اتخذ كل هذه الحيلطات ليحافظ على كسبه الجديد ليس من المعقول أن يجيب السكندريين إلى تكوين مجلس قد يسبب له فى يوم من الأيام متاعب هو فى غنى عنها ، وبخاصة لما كان يعرفه عن المصريين والسكندريين بوجه خاص من ميل إلى الثورة والترد ، وهو أمر قد خبره شخصياً عقب فتحه لمصر مباشرة (٢١٩).

(٢١٨) أنظر عن هذه الاجراءات : عبد اللطيف احمد على ، نفس المرجع ، ص ٥٤ .
 راجع تحليل موقف أوكتافيان فى مجلس الشيوخ الرومانى بخصوص مصر :
 لطفي عبد الوهاب يحيى ، مصر فى العصر الرومانى ، صفحات ٨١ وما بعدها .

والنص الثانى الذى سأشير اليه يتضمنه خطاب كلاوديوس الذى أسلفت الإشارة اليه ، وسأورد هنا الجملة التى تهمنا أكثر من غيرها فى هذا الخطاب مكرراً ، لصالح المناقشة ، جزءاً منها ذكرته فى مناسبة سابقة ، وهذه الجملة هى قول كلاوديوس للسكندريين « أما هن تمتعتنكم بمجلس للشورى تحت حكم ملوككم الاقدمين فهذا أمر لا أريد أن أخوض فيه ، ولكنكنكم تعلمون أنه لم يكن لكم مثل هذا المجلس تحت حكم الابطاطرة الذين سبقونى ، (٢٢٠) ويعاقب مان Milne على هذه الجملة فيها يخص الفكرة التى أريد أن أثبتها - وهى أن السكندريين كان لهم مجلس للشورى من البداية ثم فقدوه على يد أحد ملوكهم من البطالمة - فيقول إنه إذا كان الأمر كذلك لما تردد كلاوديوس فى الإشارة إلى هذه الحقيقة حتى يتخلص من تلبية السكندريين إلى مطالبهم ، ولكن كانت إجابته الحاسمة فى هذا الموضوع : كيف تطلبون إلى أن أعيد لكم المجلس الذى رأى ملوككم وبنو جلدتكم ، الذين يعرفونكم أكثر من غيرهم ، أنكم لا تستحقونه ، فسحبوه منكم . (٢٢١)

ولكننى أريد تفسير هذه الجملة بشكل آخر أرى أنه لا يبتعد كثيراً عن الصواب ، مؤداه أن السكندريين حين ذكروا «ملوكهم الاقدمين» لم يقصدوا ملوكهم بوجه عام ، وهو التفسير الذى يقدمه مان ، وإنما قصدوا بذلك ملوكهم الاولين ليفرقوا بين هؤلاء وبين ملوكهم الاواخر والا فها لزوم وصفهم بالملوك الاقدمين ، اذا كان ليس هناك فى تاريخ السكندريين ملوك

Bell; op. cit., Hunt & Edgar : op. cit.

(٢٢٠)

Milne; A Hist. of Eg. under Rcm. Rule, (3rd. ed.) 284. (٢٢١)

جدد غير البطالة . وهذا الاتجاه من جانب السكندريين إلى التفريق بين ملوكهم الاوائل والاواخر أمر أعتقد أنه يرتكز على أساس معقول ، فالبطالة الاواخر قد اتخذوا من السكندريين في كثير من الاحوال موقفا معاديا ساموهم في أثاثه كثيرا من الاضطهاد والتعذيب ، كما حدث مثلا في عهد بطليموس يولرجيتيس الثاني الذى أغلق دار الحكمة وشدت العلماء السكندريين وأعمل التفتيل في سكان المدينة حتى كاد يقضى عليهم ، ومثل بطليموس الحادى عشر الذى أراد السكندريون أن يبعده عن العرش وقاسوا على يديه ، من جراء ذلك ، الكثير من الاضطهاد والتكيل الذى هبط في بعض الاحيان إلى مستوى اغتيال شخصياتهم بل وإلى الاستمالة بقائد روماني وجنود رومانية في احتلال مدينتهم (٢٢٢) . وإزاء هذا العداء المتبادل بين السكندريين وبين البطالة الاواخر، وهو عداء كثيرا ما اتخذت رومه نفسها في أثاثه موقف الحكم الذى يوفق بين خصمين أو يميل نحو أحدهما دون الآخر - إزاء هذا العداء أجد من المعقول أن يفرق السكندريون بين هؤلاء الملوك الاواخر وبين ملوكهم الاقدمين .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فأعتقد أن السكندريين كان لديهم سبب آخر قوى لهذا التفريق ، فهم قد عرفوا من خبرتهم الشخصية مع أغسطس (أوكتافيان) أن الاباطرة الرومان قد ازمعوا تجاهل البطالة وما يتعلق بهم ، وأنهم لا يكونون لهم أى تقدير ، على نحو ما ذكرت في مكان سابق ، وأنهم على عكس ذلك يعرفون بعظمة الاسكندر ، مؤسس

الاسكندرية وينظرون إلى أعماله بكثير من الاحترام والتبجيل ، ولما
هذا الوضع فمن الطبيعي ، إذا أراد الاسكندريون لمطلبهم أن يجاب ، أن
يحاولوا ربطه بطريقة أو بأخرى بشخصية الاسكندر أو أولئك الذين ساروا
على نهجه . وهكذا يربط الاسكندريون ازدهار مجدهم الذي ينفون إعادته ، بعهد
البطلمة الاوائل خلفاء الاسكندر الحقيقيين الذين اتبعوا سنته وتمسكوا
بتقاليده ، بينما يربطون في ذهن الامبراطور فقدانهم لهذا المجلس بعهد
البطلمة الاواخر الذين حادوا عن الطريق التي سنها الاسكندر .

أما النص الاخير الذي سأورده في هذا العدد فهو ما ذكره المؤرخ
سبارتيانوس من أن الامبراطور سبتيميوس سيفروس أقام للاسكندريين
مجلسا للشورى ، أما في عهد من قبله من الاباطرة فلم يكن لهم هذا
تماما كما كان في عهد الملوك ، (٢٢٣) ، والنص يبدو قاطعا في صراحته ويؤكد
لا يترك مجالاً للشك في أن الاسكندريين لم يكن لهم مجلس للشورى في عهد
البطلمة . ولكن لا أريد أن آخذ هذا النص على علته كعبير دقيق
عن حقيقة لا تقبل المجادلة . والسبب في ذلك أن الرومان لم يكن لديهم
اهتمام كبير بمعرفة شئون مصر أو أمورها الداخلية في عهد البطلمة الاوائل
ولما بدأ هذا الاهتمام في أواسط القرن الثاني ق م. حين أخذت المسألة
المصرية تحتل مكانا بارزا في برامج الاحزاب السياسية المتصارعة في رومه .
وقد كانت زيادة سكيو ايميليانوس Scipio Aemilianus لمصر في الفترة
التي تقع بين سنتي ١٤٥ و ١١٨ ق م. تقريبا ، كبعث من قبل مجلس الشيوخ
الروماني ليفصل في النزاع الاسرى القائم بين أعضاء البيت البطلمي إذ ذاك

هو المناسبة الأولى التي أبدى فيها الرومان هذا الاهتمام ، إذ أن مجلس الشيوخ الروماني اعتبر هذه الزيارة جزءاً من زيارة عامة لمنطقة شرقى البحر المتوسط بغرض تفقد الأحوال بها .

أما قبل هذه الزيارة فلم يكن الرومان ، سواء كانوا ساسة أم قادة يولون مصر اهتماماً كبيراً حتى في الأحوال التي لجأ فيها الملوك المصريون إلى رومه يستجدون بها لسبب أو لآخر ، والتي كانت فيها رومة تستجيب لهذا الاستجداد . فمثلاً حين وجد بطليموس إبيفانيديس نفسه في ١٩٠ ق.م . يواجه خطراً مزدوجاً من قبل أنطيوخوس الثالث ملك سلوقية وفيليب الخامس ملك مقدونية ، اللذين اتفقا فيما بينهما على اقتسام أملاك مصر ، أرسل إلى رومة يستعديها على أنطيوخوس ودعم رسالته هذه بهدية من القمح والمال وبعرض يضع فيه موارد مصر تحت تصرف الرومان ، ورغم أن رومة حاربت سلوقية لموقفها هذا الذي يثير الاضطراب في الشرق الأدنى وانتصرت عليها واذلتها في موقعة ماجنيسية سنة ١٩٠ ق.م . ومعامدة أباميه بعد ذلك بسنتين ، إلا أنها رفضت بشكل قاطع الهدية والعرض اللذين تقدم بهما الملك المصري . وسيقف الرومان موقفاً مماثلاً في ١٧٠ - ١٦٨ ق.م حين يدخل أنطيوخوس الرابع مصر ويحاصر الاسكندرية حيث يرسل مجلس الشيوخ الروماني مبعوثه بوبليوس لايناس C. Popilius Laenas لينقذ الموقف وبمجرد أن تلتهى مهمته ، بعد أن أرغم الملك السلوقي على الانسحاب ، يترك مصر عائداً إلى رومه .

في مثل هذه الظروف لا ننتظر أن يكون الرومان علم دقيق بالأحوال الداخلية لمصر ، إذ لم يكن لديهم ، كما قدمت ، الاهتمام الكافي بهذه المنطقة

ولم نكن مسألة وجود مجلس للشورى بالاسكندرية أمرا يهمها بشكل جدى كما أن سبارتيانوس كاتب متأخر ، وهو حين يتكلم عن أحوال مصر فى عصر البطالمة إنما يكتب عن فترة سبقت تاريخه بقرون ويعتمد إما على الرواية أو على مصادر رسمية لم يكن لها علم .

وعلى هذا فإن رأى فى هذا النص أن سبارتيانوس ، أو بالآخرى المصدر الذى اعتمد عليه ، كانت معرفته بأحوال مصر الداخلية قاصرة على عهد الاباطرة الرومان ، وعلى الشطر الأخير من عهد البطالمة حين بدأ ساسة رومه يولون المسألة المصرية اهتماما خاصا . ولما لم يكن للإسكندرية فى هذه الفترة مجلس للشورى فقد استنتج سبارتيانوس ببساطة أن هذا المجلس لم يوجد قبل عهد الامبراطور سبتيميوس سيفروس ، سواء فى عهد الاباطرة أو البطالمة .

وهكذا تشير هذه النصوص الثلاث الى احتمال قوى هو أن مجلس الشورى الاسكندرى الذى وجد فى الفترة الأولى من العهد البطلى ، اختفى فى عهد أحد البطالمة الأواخر ، على أن المصادر المكتابية ليست الوحيدة التى ترجح هذا الاحتمال ، وإنما تدعمه كذلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى أحاطت بحكم البطالمة منذ بدايته والتى تبلورت وظهرت نتائجها فى أواسطه . والظروف التى أعنيها تدور أساسا حول علاقة البطالمة بطبقة اليونانيين الذين استقروا فى مصر فى العصر المتأغرق . وقد سبق أن ذكرت أن البطالمة ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من حكام الممالك المتأغرة ، اتجهوا فى تدعيم سلطانهم فى ملكهم الجديد الى الاعتماد على هذه الطبقة من اليونان المهاجرين لما كان هؤلاء من كفاية عسكرية ولما كانوا عليه من

تجربة ودراية في ميدان التنظيم الاقتصادي والإداري وقد استخدم البطالة كل الطرق الممكنة لاجتذاب هؤلاء اليونان واغرائهم بالإقامة في مصر ، ونجحوا في ذلك الى حد كبير .

وقد رأينا أن الذين أتوا الى مصر استجابة لدعاية البطالة ، لم يكتفوا بالعمل في وظائف الجهاز الإداري التي كانت تتعلق أساسا بسلطة الملك ، رأس الحكومة المركزية ، وتخضع خضوعا تاما لإدارته وأرادته ، وأن أعدادا كبيرة منهم اتجهت من البداية ، وبشكل واضح ، الى البحث عن موارد معيشية مستقلة ، ويظهر هذا الانحياز بشكل خاص بين هؤلاء المهاجرين في ميدان التجارة ، كمورد اقتصادي مستقل ، وهو ميدان نشطوا فيه وتشعبت مصالحهم الى حد كبير ، رغم الصعوبات الكثيرة التي كانت لابد أن تخفف بمزاولة النشاط التجاري في بلد يقوم نظامه الاقتصادي أساسا على الاحتكار الملكي . كما رأينا أن نوع هذه المصالح الى نوع من التماسك الطبقى عند اليونان الموجودين في الاسكندرية بوجه خاص . حيث المصالح التجارية على أوسعها ، وأدى بالنالى الى كثير من الاحتكاك بين هذه الطبقة والملك بسبب تناقض المصالح ، ظهر في أكثر من موقف عدائي بين الطرفين ، وفي أكثر من موقف انتقامي من جانب الملك وبخاصة في الفترة التالية لمعركة رفع التي أثبتت أن الاغريق لم يعودوا ، مثلها كانوا من قبل ، الجنود الذين يمكن أن يعقد البطالة على كفاءتهم العسكرية (٢٢٤) .

(٢٢٤) راجع الحديث عن دعائمه دولة البطالة في القسم الثاني من هذه ==

تحت هذه الظروف أجد أنه من الطبيعي أن يوجه البطالة ضرباتهم
وجه خاص إلى مراكز التجمع التي قد تصبح مراكز لتبلور الرأي العام
لطبقة اليونانيين المهاجرين ، وبخاصة في الإسكندرية التي كانت المركز
الأساسي لتجمعاتهم ، ومن المنطقي أن يكون تنظيم مثل مجلس الشورى
بأعضائه من ذوى الشخصيات البارزة من المراكز الأساسية لتجمع أصحاب
المصالح الاقتصادية الذين كان البطالة يسعون إلى تفتيت ما يقوم بين أفراد
طبقتهم من تماسك ، تمهيدا للقضاء على زحفهم المتزايد على نطاق المصالح
الملكية . وفي رأى أن مجلس الشورى قد حل على أثر ضربة من هذه
الضربات ، على نسق ما حدث ، على سبيل المثال ، حين أغلقت الجامعة
وشلت العلماء في عهد بطليموس الثامن (٢٧٥) .

هذا اذن هو وضع مجلس الشورى الإسكندري على النحو الذى أرجحه .
لقد وجد فى الإسكندرية منذ البداية ممثلا أحد ملامح نظام المدينة اليونانية ،
وحقيقة أننا لا نعرف شيئا عن تكوينه كما أن مسألة اخفائه لاتزال موضعا
للمناقشة ، ولكن هذه الظروف ذاتها تفسير ، كما ذكرت ، إلى أن هذا

== الدراسات ، وبخاصة الدعامة الاجتماعية . أنظر كذلك اعتراضا على هذا
التفسير لتطور العلاقة بين البطالة واليونان ، يمثل وجهة نظر أخرى .
فى : إبراهيم نصحي ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالة (١٩٥٩)
ص ٣٤ ، حاشية ٤

(١٢٥) راجع الدعامة الأدبية لحكم البطالة فى القسم الثانى من هذه الدراسات

المجلس كانت له شخصية أدبية كما كان له حظ لا بأس به للتوجيه الاجتماعى والاقتصادى بين طبقة اليونان المقيمين .

* * *

ومن الوضع الذى كان عليه هذا المجلس والمجالس التشريعية الأخرى يمكننا أن نقول إن الاسكندرية خطط ، من ناحية المجالس التشريعية ، خطوات لا بأس بها فى سبيل استكمال صفة المدينة اليونانية ، ولكنها لم تستكمل هذه الصفة تماما ، وما كان لها أن تستكملها تماما ، فقد كان عصر دولة المدينة قد دخل فى مرحلة أفوله قبل أن تؤسس مدينة الاسكندرية .

الباب الثاني عشر

الوضع الاقتصادي للإسكندرية

وأنقل الحديث الآن إلى الوضع الاقتصادي الذي كانت عليه الإسكندرية. وهنا أقول : إنه إذا كانت الإسكندرية قد عكست ، في المجال السياسي ، التيارين أو الاتجاهين اللذين ميزا العصر المتأغرق وهما الدولية من جانب ، والعالمية التي تحولت إلى ازدواجية حضارية من جانب آخر ، سواء في اختيار موقعها كعاصمة ، أو في وضعها السياسي كقوة لدولة تتبع النظام الفردي المطلق ، وكمدينة يونانية تحفظ بشكل دولة المدينة في نفس الوقت - إذا كانت الإسكندرية قد عكست هذين التيارين في المجال السياسي ، فإن أحد هذين التيارين على الأقل ، وهو التيار الذي يتميز بالنشاط الدولي الواسع يظهر بشكل واضح إذا نظرنا إلى الوضع الاقتصادي للإسكندرية في عصر البطالمة .

١ - موقع الإسكندرية كميناء

وفي هذا المجال نجد أن الإسكندرية ، التي جعلها المهندس دينوكراتيس ميناء ذات قسمين بتوصيلة جزيرة فاروس بشاطئ القرية المصرية القديمة راقودة ، أصبحت الميناء المصرية الأولى في المياه العميقة . فميناء بلوزيون (الفرما) ، على ما يذكره لنا سترابون ، كانت تقع على فرع النيل البلوزي (الشرق) على بعد عشرين ستاداً من ساحل البحر ، بينما كانت الميناء النهرية

نقراطيس تقع على الفرع الكانوبي (الغربي) بعيدا جدا عن البحر وموغلة في داخل الدلتة ، أما كانوب التي كانت تعتبر المنفذ البحري لميناء نقراطيس ، فنحن لا ندري إذا كانت قد قامت فيها استعدادات أو معدات بحرية هامة ، ولعلها كانت لا تزيد عن مكان محمي عند مصب النهر (٢٢٦) .

على كل حال لقد فاقت ميناء الاسكندرية هذه الموانئ بشروط كبير . حقيقة إنه بينما فقدت نقراطيس قيمتها تدريجيا كميناء احتفظت باوزون Pelousion بقيمتها كفتاح لمصر من الشرق تدخل عن طريقه كل منتجات سورية ، كما كانت جهاركها على جانب كبير من النشاط في القرن الثالث ق م (٢٢٧) ، ولكن نشاط باوزيون لم يكن شيئا إلى جانب نشاط الاسكندرية التي بدأت ميناؤها تهتدب إليها أنظار الشرق والغرب ، بينما هيمأت لها ميناؤها النهرية ، التي كانت متصلة بالنيل عن طريق ترعة شديدة ، أن تكون على اتصال مباشر بطريق القوافل الموصلة إلى أعماق القارة الافريقية . وهكذا كانت الاسكندرية هي المركز الأساسي الذي تستقبل عن طريقه مصر كل ما تحتاجه من الخارج ، وفيها كانت تتركز ثم توزع نحو الشمال

(٢٢٦) عن بلوزيون أنظر : Strabo I, 21 راجع كذلك H. Kees
Pelusion (R.E.) عن كانوب أنظر للكتاب نفسه (R.E.) Canopus عن
نقراطيس أنظر Jouguet : Trois Études, p. 90 .

(٢٢٧) أنظر على سبيل المثال قائمة الواردات القادمة من سورية لحساب أبو الوثيوس (المشرف على الشؤون المالية في عهد بطليموس فيلادلفوس) في برديه :
(259) (59012 p. Cairo-Zen . راجع كذلك (Melangos : Glotz, I)
pp. 7-48 A. Andradès : Les Droits des Douane prélevés
par les Lagides sur le Commerce Extérieur .

أو الشرق أو الجنوب غالبية واردات الجهات المطلة على بحر ليجة وورادات إفريقية وكثيرا من واردات الشرق التي كانت تأتي عن طريق الخليج العربي وشبه جزيرة العرب (٢٢٨).

٢ - تشعب حركة الصادرات والواردات

ولنلق الآن نظرة سريعة على حركة الواردات والصادرات لنقدر، على أساس صحيح ، قيمة الدور الذي كان منوطا بالاسكندرية والذي جذب إليها أنظار البطالمة ، كمرق اقتصادي من الطراز الأول يصلح لأن يكون الميناء الأول في ملكهم الجديد الذي عاصر قيامه واستمراره أنشطة تيارات دولية عرفها القسم الشرقي لحوض المتوسط . لقد كانت الأخشاب من أهم الواردات ، فأخشاب الأشجار المحلية مثل النخيل والآل والبلخ والجميز لانهلح صلاحية كاملة لأعمال المعمار وبناء السفن . وقد كانت مصر في حاجة متزايدة إلى قسدر كبير من الأخشاب في هذه المرحلة التي اتجهت فيها سياسيا وحربيا نحو البحر المتوسط على نحو ما أسفلت ، وكان لابد لها بالتالي من أسطول يحمي سواحلها . وهكذا كان لابد من استيراد كميات كبيرة من الأخشاب مثل خشب شجر الأرض الذي كان يأتي من الشاطئ السوري ، والسرو الذي كان يأتي من مينايتوس ، والصنوبر الذي كان يأتي من شمالي البلقان والذي أراد فيلادلفوس أن يؤثله في مصر ، وأنواع أخرى من خشب الزينة التي كانت تأتي من الأقاليم الإدارية في الجنوب . حقيقة كانت بلوزيون هي الميناء التي يأتي عن طريقها خشب الأرض ، أما الباقي فقد كان يأتي من مناطق بحر ليجة أو من إفريقية عن

طريق الاسكندرية (٢٢٩).

كذلك كان القطران يمثل جانبا هام من واردات مصر في ذلك الوقت ،
فهي مادة لا يمكن الاستغناء عنها في صناعة السفن التي كانت تقوم عليها
قوة البطالة البحرية ، كما كان اقتناؤها أمرا حيويا لصانعي الفخار في دهان
الاوعية التي كان البطالة يصدرون فيها الزيت - وقد كانت تجارتهم من
أقوى أركان نظامهم الاحتكاري ، والقطران كان يأتي من غابات مقدونية
ومن مضاب آسية الصغرى . وقد انعكست أهمية هذه التجارة التي كانت
تهم البطالة بوجه خاص ، بسبب تعلقها باحتكارهم الاقتصادي كما ذكرت ،
في أهمية المستوى الذي كانت عليه علاقاتهم الخارجية مع ملوك مقدونية
ومع أمراء شم ملوك برغامة في آسية الصغرى . وقد وصل من ارتباط
هذه التجارة بسياسة البطالة في هذا المجال أن كانت تذبذبات ثمن القطران
بجزيرة هيلوس - وهي سوق التبادل الدولي في ذلك الوقت - تدل على
على ما يعتري العلاقة السياسية بين مصر وبرغامة ومقدونية من صعود
وهبوط (٢٣٠) .

كذلك كانت مصر مفتقرة إلى المعادن . حقيقة كانت بها مناجم الذهب
في النوبة وشبه جزيرة سيناء ، وحقيقة إن البطالة ربما لم يصاوا من مستوى
الترف إلى ما كان عليه الفراعنة ، إذا كان لنا أن نتخذ مخلفات هؤلاء
كشاهد على ما وصلوا إليه في هذا الصدد ، ولكن مع ذلك فقد كان البطالة
يحيون حياة فيها كثيرا من البذخ ويقدمون على وجوه متعددة من الانفاق

Préaux: L'Économie Royale, p.p.159-69 (٢٢٩)

G. Glotz : L'Histoire, de Delos d'après le prix. (٢٣٠)
d'une denrée (R.É. G., XXIX), pp. 281-325.

لأكثر من سبب ويحتاجون بالتالى إلى مقادير كبيرة من الذهب ، وكانت المناطق التى يستوردونه منها هى أسبانيا والهند . والشىء ذاته يقال عن الفضة ، فرغم أن الأدوات والمصنوعات الفضية كانت من الكماليات الشائعة المرغوبة عند الطبقة المتوسطة والمثيرة فى ذلك الوقت ، لم تكن مصر تمتلك من موارد الفضة شيئاً ذا قيمة ، وإنما كانت هذه تانى من المناطق المطلة على الشواطىء الشمالية للبحر الأبيض المتوسط : قليل منها من مناجم اللوريون فى أتكة وأغلبها من أسبانية ومن قانس بالذات . وما ينطبق على الفضة ينطبق على الحديد الذى لم يكن يعدن فى مصر وإنما كان يأتى من جزر بحر إيجه ومن منطقتى الهلسبون وأرمينية ، وعلى النحاس الذى كانت تستخرج منه كميات ضئيلة فى منطقة القيوم بينما كان الجزء الأساسى منه يأتى من قبرص التى كانت قسماً من الامبراطورية البطلمية لوقت طويل (٢٣١) .

ولم تكن هذه كل واردات مصر فى عهد البطالمة ، فقد كانت تستورد الرخام الذى تفتقر إليه من الجزر اليونانية ، وكانت رغم توفر صناعة المنسوجات بها ، تستورد الأصواف من ميلتوس ، والمنسوجات الكالية من صور ، والأقمشة المذهبة من برغامه ، والشفافة من كورس وأمرجوس ، والحرائر من فينيقية ، والمنسوجات السميكه من قليقية ، والأبسطة من المدن الايوليه على على الساحل الغربى لآسية الصغرى . هذا الى جانب مجموعة كبيرة متنوعة من مواد الاطعمة السمى كانت تستوردها لغرض الاستهلاك اليومى ، فقد كان السكندريون يعرفون نحو ستة أنواع من

العسل الذى يأتى من مناطق بحر إيجه والجبن الذى يأتى من جزيرة خيوس والياميش والرمان والتين وأنواع مختلفة من الخنور كانت محببة إلى ثرائهم الذين كانوا يريدون المحافظة على طريقة الحياة الإغريقية التقليدية ، فكانوا ، رغم وجود صناعة الخنور في مصر ، يقبلون على الخنور الواردة من رودس وخيوس وكيندوس (٢٢٢).

وأخيرا فقد كانت هناك مستوردات مصر من الحيوانات ، ونذكر على سبيل المثال الجمل التى كانت قد بدأت منذ بداية العهد البطلمى تكون عنصرا هاما من عناصر الحياة اليومية في مصر سواء كأداة للنقل أو لاستخدامها في أغراض الزراعة . ولذا كانت مصر قد بدأت في تربية الجمل محليا بشكل ظاهر في عهد فيلادلفوس فإن الخيل ، التى عرفتها مصر منذ غزو الهكسوس ، كانت تستورد بصفة تكاد تكون دائمة في عهد البطلمة ، وكان أغلبها يذهب لتغطية حاجة الجيش في سلاح الفرسان الذى كان جديدا بالنسبة لمصر ، والذى كان يلعب دورا هاما في كافة الجيوش التى تسير على النظام المقدونى (٢٢٣) وقد رأينا أهمية الدعامة العسكرية في الصراع بين المايليك المتأغربة (التى كانت تسير على النظام المقدونى في جيوشها) .

* * *

ولزام هذه الواردات كانت مصر تصدر قدرا كبيرا من منتجاتها مثل القمح والبردى وأنواع معينة من المنسوجات والمصنوعات الزجاجية ومجموعة أخرى من المنتجات التى كانت تعتمد على خامات تستوردها مصر جزئيا أو

كلياً من الخارج ، مثل العطور التي كانت خاماتها تأتي من بلاد العرب والصومال وسورية وآسية الصغرى ، والحلى والمجوهرات التي كانت تصنع من أحجار نفيسة أو شبه نفيسة تأتي من الصحارى العريية — ومن جزر البحر الأحمر ، ومثل الادوات المصنوعة من العاج ومن ريش النعام التي كانت القوافل تأتي بها عن طريق النيل أو الطرق الصحراوية من الصومال أو من أعلى النيل (١٣٤) .

ولنأخذ تجارة القمح والبردى كمثال لتجارة الصادرات والدور الذي لعبته كأساس اقتصادى لسياسة البطالة والذي كان يتبلور أساساً حول ميناء الإسكندرية . لقد كانت تجارة القمح تلعب في عهد البطالة دوراً أساسياً يوازى أو يفوق الدور الذى يلعبه القطن فى يومنا هذا ، وكان ملوك البطالة يعتمدون اعتماداً كبيراً على تجارة القمح فى تدعيم نفوذهم السياسى فى البحر المتوسط . حقيقة إنه من غير الثابت ومن غير المحتمل أن ملوك البطالة احتكروا لأنفسهم هذه التجارة ، ولكن من المقطوع به أنهم كانوا يستولون على جزء كبير من محصول البلاد من القمح وبهذا الجزء كانوا يستعينون على تشكيل وتدعيم صلاتهم السياسية مع المناطق المطلة على سواحل البحر المتوسط .

Préaux: op. cit., pp. 255, 353 - 4; C. W. Murray: (٢٢٤)
Roman Roads and Stations in the Eastern Desert of
Egypt (J.E.A., 1925) , p. 144; M. K. Abdel - Aliem,
Alexandrian Trade in Aromata in the Graeco- Roman
Times, 1954, (وهى رسالة غير مطبوعة مودعة بمكتبة كلية الآداب فى
جامعة الإسكندرية) ص ٢٤ وما بعدها .

ولم يكن هذا بالشئ الجديد الذى ابتدعه البطالمة فإن الخطيب الاثينى ديموستينيس يظهر لنا فى إحدى خطبه كيف كان التجار الذين يحصلون على القمح من مصر يستطيعون التلاعب بأسعار القمح فى أسواق البلاد اليونانية بمنعه عن إحداها أو تصديره إلى الأخرى ، كما حدث فى عهد كليومينيس الذى كان الإسكندر قد أقامه منظمًا للمشئون المالية فى مصر بعد فتحها . وستكون سياسة البطالمة فى توسيع دائرة نفوذهم معتمده على الأخرى على سياسة القمح ، إذ أن البطالمة رغم أنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال المحتكرين الوحيدين لهذه التجارة فى حوض المتوسط بشكل يسمح لهم بالتحكم المطلق فى هذه المنطقة عن طريق إجاعة سكانها . إذ كانت هناك جهات أخرى تلتج القمح مثل مناطق البحر الأسود وصقلية وسورية وبرقة وقرطاجنة . إلا أن البطالمة كانوا دون شك أكبر مصدرى القمح فى مصر إن لم يكن فى العالم المتأخرى كله . وقد استطاعوا عن طريق هذه التجارة أن يقوموا بدور سياسى ظاهر فى شرق البحر المتوسط ، فنحن مثلاً نجد بطليموس سوتر ينفذ رودس بتمويلها بالقمح أثناء حصارها فى ٣٠٤ ق م . بينما كان بطليموس ابيفانيس يعمل على توثيق صلته برومة عن طريق تصدير القمح إليها وهكذا كانت الاسكندرية فى تلك الفترة تعتبر تقريباً الميناء التى تصدر أكبر مقادير من القمح فى تلك المنطقة (٢٣٥) .

أما ورق البردى فقد كانت مصر هي الدولة الوحيدة المصدرة له ، وكانت صادراتها منه بكميات وافرة جعلت منها سيد السوق بلا منازع ، يدل على ذلك أنه حين فرض عليه بطليموس فيلادلفوس احتكارا ملكيا جزئيا ، ارتفعت أثمانه في سوق ديلوس التي كانت مركز تجارة التبادل في شرقى البحر الأبيض المتوسط ولم تكن قيمة تجارة البردى من الناحية السياسية قاصرة على تدعيم هذه الناحية بتحكم مصر الاقتصادي في هذه التجارة ، بل لقد أدت كذلك إلى تحكم مصر بطريق غير مباشر في الناحية الثقافية في شرقى البحر المتوسط ؛ فقد أصبحت مصر الموطن الأول لصناعة الكتب وأدى هذا إلى تركيز الحركة الثقافية فيها وكان عاملا هاما من عوامل اجتذاب المفكرين والعلماء وكافة رجال القلم إليها ، وقد بلغ هؤلاء شأوا كبيرا في ميادين تخصصهم على نحو ما أسلفت . حقيقة إن هذا التحكم لم يمكن تاما ، فإن برغامة ، مثلا ، حاولت أن تتخلص من هذه السيادة الثقافية التي فرضها البطالمة على العالم المتأغرق ، بإنتاجها نوعا من الجلود الصالحة للكتابة ، ولكن رغم ذلك فقد ظلت مكتبة الاسكندرية ، بسبب ورق البردى هي المسيطرة الأولى على كل ما يتعلق بإنتاج الكتب حتى من ناحية الشكل - وهو أمر لا يمكن تجاهله عند الكلام على الانتاج الثقافي الذى اتخذ البطالمة قاعدة أدبية لد نفوذهم السياسى (٢٣٦) .

هذه إذن هي الصادرات والواردات التي أصبحت الاسكندرية مركزا لها ، وقد كان موقع الاسكندرية دون شك هو خير موقع يقوم عليه هذا المركز الذى كانت تتفرع عنه طرق التجارة إلى فينيقية وفلسطين وسورية

وآسية الصغرى وتراقية وجميع جزر بحر إيجه وإلى ألبنة وكورنثة وصقلية وإيطالية والمستعمرات الاغريقية على شواطئ غالة وأسبانية وإلى قرطاجة وبرقة ، وأخيراً إلى الصومال وبلاد العرب والشرق الافصى (*) .

٣ - الاسكندرية كميناء تدعم الاتجاه الاقتصادى السياسى للبطالة

ولم تكن الاسكندرية مجرد معقد أو ملحق لهذه الطرق التجارية بحيث يمكن أن نقول إنه كان من الممكن أن تصبح الميناء الاول فى مصر دون أن تكون بالضرورة عاصمة البلاد ، ولكنها كانت كذلك خير مكان يستطيع منه البطالة أن يدخلوا هذه الطرق التجارية فى دائرة نفوذهم لتخدم سيطرتهم السياسية - وهو اتجاه كان يشكل بعد من أبعاد سياستهم الخارجية وقد حرص عليه البطالة أشد الحرص ، تدل على ذلك تفاصيل توسعهم فى حوض البحر المتوسط وهو المكان الذى كان قد أصبح منذ فترة ليست بالقصيرة قبل قيام ملكهم مسرحاً للمنافسات التجارية العنيفة (٢٣٧) .

ويكفى لاثبات هذا الاتجاه السياسى الاقتصادى أن نلقى نظرة سريعة على الاماكن التى دخلت قلب الامبراطورية البطلمية . فقد كانت هذه تضم فى القرن الثالث قبرص وبرقة والغور (جوف سورية) وفينيقيه وفلسطين ولقية ذات الغابات الواسعة وكارية ذات التجارة الذشطة وحيث تزدهر زراعة الكروم وتربية النحل ، وأجزاء من أيونيه وبخاصة مدن

Jouguet: op. cit., 103

(*)

(٢٣٧) راجع الباب الثامن من هذه الدراسات

هيليتوس وساموس وإفسوس ومجموعة من جزر بحر إيجه وجزيرة لسبوس
الكبيرة الغنية وأجزاء من جزيرة كريت وثيرة وبعض مناطق في شبه
جزيرة البلوبونيسوس والخرسونيس وجزء من تراقية (٢٣٨) . وكلها ، كما
هو ظاهر ، إما أماكن تطل على الطرق التجارية في البحر المتوسط أو
تبدأ منها هذه الطرق أو مناطق ذات إنتاج خاص له قيمته في إنماء السياسة
الاقتصادية البطلمية .

كذلك مما يصور الاتجاه الجدى لبناء جانب من سياسة البطالمة الخارجية
على أساس اقتصادى - الأمر الذى كان لا بد أن يؤثر على انتقائهم
لماصمة ملكهم في مصر بحيث تستخدم هذه السياسة - أنهم حرصوا على
إنماء العلاقة الودية مع بعض جزر البحر المتوسط التى كانت لها أهمية
خاصة كمحطات على الطرق التجارية البحرية وسأخذ مثالا على جزيرتي
رودس وديالوس .

أما الجزيرة الأولى - وكانت تكون ، مع مدن ليندوس وباليوسوس
وكاميروس ، الدولة الرودية - فقد كان القائمون على الحكم فيها أقلية
من التجار الذين كانت تهمهم حرية الملاحة في البحر المتوسط وتأمين
طرقها ، وكانت أهميتها بالنسبة لمصر هى موقع مينائها كمحط تجارى للسلع
المتبادلة بين مصر من جانب آسية الصغرى وبلاد اليونان من جانب آخر ،
مثل العطور التى كانت تصنعها مصر والتوابل التى كانت الاسكندرية هى
سوقها الكبرى . وهذا إلى جانب الخمور التى كانت تستوردها مصر من
رودس والحبوب التى كانت تصدرها إليها .

وستكون من مظاهر الالهية التجارية لرودس بالنسبة للاقتصاد المصرى أن يحرص البطالمة على إقامة علاقات سياسية طيبة مع هذه الجزيرة طوال القرن الثالث ق م. وستظهر هذه العلاقة الطيبة في أكثر من صورة. فن الناحية الشككية نجد أن لقب سوتر (المنقذ) الذى اتخذه بطليموس الاول أضفى عليه أول ما أضفى من قبل جزيرة رودس وجزر الكوكلاذيس ، بينما نجد أن إحدى الجزر الصغيرة فى الميناء الكبيرة بالاسكندرية ستسمى أتيرودس نسبة إلى الدولة الصديقه ولن يقتصر الامر على ذلك ، بل سنجده هذه العلاقة الطيبة تنعكس بشكل موضوعى فى العلاقات السياسية بين البلدين ، فرودس اتخذت منذ بدايه العصر المتأغرق موقفا معاديا من خصوم البطالمة ومنافسيهم وبخاصة السلوقيين ، الذين كان فى إمكانهم دائما أن يهددوا ممتلكات رودس على الساحل الاسيوى ، وستكون رودس إحدى الدول التى تعرض رومة على محاربة أنتيوخوس الثالث ، عدو بطليموس الخامس ، فى بداية القرن الثانى ق م. (٢٢٩) .

والشئ ذاته يقال عن ديلوس ، إحدى جزر اللوكلاذيس ، فقد كانت هى الاخرى محطا متوسطا ممتازا للقوافل التجارية الآتية من الشرق والغرب ومن الشواطىء الشمالية وأغواة أفريقية . وكما حرص البطالمة على انهاء العلاقات الودية مع رودس فقد اتبعوا نفس السياسة مع ديلوس ، وفى

(٢٢٩) V. Gaertingen: Rhodes, R. E., Suppl. V. على أن هذا بطليمه الحال ، لم يمنع من انقلاب رودس على مصر فى بعض الاحيان ، كما حدث فى عهد بطليموس الثانى ، فيلادلفوس ، على سبيل المثال ، أثناء اشتباكه مع أنطيوخوس الثانى (الملك السلوقى) حوالى ٢٦٠ ق م. فى غرب آسيه الصغرى (أثناء الحرب السورية الثالثه) فقد وقفت قوة رودسيه بحريه فى وجه قوة بطليمه بحريه وانتصرت عليها Polyæn.: V, 18.

هذا المجال تشير كثير من النقوش إلى وجود جمعية من الوكلاء والسامسة
السكندريين في هذه الجزيرة ، كما تشير إلى قيام علاقة ودية مع
البطالمة (٢٤٠) .

* * *

وهكذا نجد أن موقع الاسكندرية ووضعها كميناء ، لا يقل في قيمته
بالنسبة للبطالمة عن موقعها ووضعها كعاصمة . فاذا كان هذا الاخير قد
أثبت أن خير مكان يوجه منه البطلمة سياستهم الدفاعية عن مصر ويطلقون
منه دعائمهم السياسية ، في عصر كانت صفته الأولى هي الصراع بين حكام
العالم المتأغرق فان المنافسة التجارية المتزايدة في المنطقة وضروره السيطرة
على الطرق التجارية الدولية بالنسبة للبطالمة أمام منافسيهم ، كانت تستوجب
أن تكون الاسكندرية بالذات ، عاصمة البطلمة ومقر حكمهم ، هي نفسها
الثغر الاول في مصر .

الباب الثالث عشر

الوضع الإجتماعى فى الإسكندرية

كان الحديث حتى الآن عن الوضعين السياسى والاقتصادى للاسكندرية وقد رأينا الفكرة العالمية والطابع الدولى يصيبان النشاط الذى اقترن باسم هذه المدينة فى كلا المجالين ، وإن كان ذلك قد تم بدرجات متفاوتة . وفيما يخص فكرة العالمية بالذات فإن المفهوم الذى دارت فى حدوده كان قد تقلص كثيرا ، كما لمسنا ، عن ذلك الذى ابتدأه الاسكندر حين وضع أساس هذه المدينة فى السنوات الاولى من حملته على الشرق ، بحيث وصلت فى الجانب السياسى الى ما يقرب من مجرد الازدواجية التى يلتقى فيها النظام الشرقى بالنظام اليونانى . وحتى فى هذا المجال . فإذا كان الاتجاه الفردى المركزى للنظام الشرقى قد تغلب على الاتجاه الشعبى الجماعى للنظام اليونانى ، فقد كان ذلك نتيجة لدواعى سياسية أكثر مما كان انبثاقاً من فكرة أو نظرية عالمية .

١ -- الصلة العامة للمجتمع الاسكندرى

ولكن إذا كانت الصمة العالمية قد تراجعت حتى اقتربت من الازدواجية فى الجانب السياسى ، وإذا كانت قد تحولت الى مجرد تفوق للنشاط البطالى فى المجال الدولى ، فإن الوضع مختلف بعض الشيء فى الجانب الإجتماعى . فهنا نجد أن الفكرة العالمية فى أوسع حدودها كادت تصبح حقيقة واقعة . وإذا كانت لم تتم فإن ذلك كان بسبب الموقف السياسى الذى اتخذته

البطالة ، والذي وضع حدودا إجتماعية وقانونية بين العناصر البشرية الموجودة في هذه المدينة بحيث تم اللقاء بين هذه العناصر ، ولكن دون أن ينتهى ذلك بالتفاعل الكامل بينها لتصبح الاسكندرية وحدة اجتماعية ذات صفة عالمية .

وفي الواقع فإن الأبعاد المتعددة التي أعطتها البطالة لعاصمة ملكهم قد ساعدت كثيرا في تحويل هذه المدينة إلى ما يمكن أن نسميه ملتقى عالميا لعدد من العناصر والجنسيات التي تنتمي إلى القارات الثلاثة المطلة على البحر المتوسط والتي استقر قسم بين أبنائها في الاسكندرية بينما كانت إقامة القسم الآخر عابرة مؤقتة .

ولقد أراد البطالة أن يكون لعاصمتهم مركز دولي في العالم المتأغرق وسلمكوا ، في سبيل تحقيق ذلك ، كل الطرق التي وجدوها في متناول أيديهم . وهكذا وجدنا أول حكام هذه الأسرة يحرص على أن ينقل جثمان الاسكندر إلى الاسكندرية ، وهو يقدم على ذلك رغم قرار مؤتمر بابل الذي حدد مكان دفنه في مقدونية. وقد كان ضريح الاسكندر دون شك كعبة لسكان العالم المتأغرق فقد عبد الاسكندر كإله ، وعلى أقل تقدير فقد حقق بانتصاره على الامبراطورية الفارسية في حياته القصيرة ما كان يعتبره اليونان معجزة غير قابلة للتحقيق. ولنا أن نتصور أفواجا عديدة مستمرة وهي قادمة إلى الاسكندرية من المسند اليونانية ، وربما غير اليونانية ، التي كانت تطل على القسم الشرقي للبحر المتوسط ، لتخرج إلى هذا الضريح ، الذي يحوى الجثمان الحى soma كما رأى أن يسميه اليونان ، لبطل وإله . بل لقد أصبح الضريح فعلا أحد المعالم الرئيسية

في الاسكندرية . إن لم يكن أهم هذه المعالم جميعا . وقد رأينا السكندريين في مناسبة سابقة ، يأخذون أوكتافيان لزيارة هذا الضريح (حتى قبل أن يطلبوا اليه زيارة قبور ملوكهم) ، وقد أبدى الفاتح الروماني تقديره للفاتح المقدوني وترحيبه لزيارة ضريحه (*) .

كذلك كانت الاسكندرية هي المركز الرئيسي لعبادة سرايس وقد سبق أن أثرت ، إلى انتشار هذه العبادة خارج مصر بشكل ظاهر ، بحيث أصبح من المرجح أن البطالمة كانوا يهدفون من وراء تشجيعها إلى هذا الانتشار الخارجي قبل أن يكون غرضهم منها هو التقريب بين الاغريق والمصريين داخل البلاد . وكما كان الحال فيما يخص ضريح الاسكندرية ، فليس من العسير أن نتصور أعدادا من أتباع هذه العقيدة وقد أتوا إلى الاسكندرية في زيارات البقر الرئيسي لعبادة هذا الإله . وهو إن يكون تصورا خاطئا ، فإن انتشار عبادة سرايس في العالم المتأغرق لم يكن انتشارا سطحيا بحيث يصبح سرايس مجرد إله جديد يضيفه سكان هذه المنطقة إلى قائمة آلهتهم في عصر درج على تعدد الآلهة ، وبالتالي فإن إضافة إله جديد فيه قد لا تعني في كل الأوقات شيئا كثيرا . وإنما كان لهذا الانتشار جذورا عميقة في الوقت نفسه ، فقد كانت عقيدة سرايس من العقائد القليلة التي تثبت بها الوثنيون وناضلوا لاستبقائها حين بدأت المسيحية تغزو آفاق الحوض الشرقي للبحر المتوسط (**) .

(*) Plut.: Ant. LXXX . راجع الباب الخاص بالوضع السياسي لمدينة الاسكندرية

H. I. Bell: op. cit., 39-40

(**)

ونحن نستطيع أن نلصق في وضوح مدى انتشار هذه العقيدة وأنفسر ما كان لها من عمق في نفوس أتباعها من رسالة حفظها لنا إحدى برديات زينون ، مدير أعمال أبولونيوس الذي رأيناه في مناسبة سابقة مشرفاً على الشئون المالية لمصر في عهد بطليميوس الثاني فيلادلفوس ، والرسالة مكتوبة في فبراير ٢٥٧ ق.م. وموجهة من زويلوس Zoilos ، أحد سكان أسبندوس Aspendos في آسية الصغرى إلى أبولونيوس وفي السطور التالية عرض لأهم ما جاء في الرسالة (٢٤١) .

إلى أبولونيوس ، من زيلوس

تحياتي

حين كنت أقوم على خدمة سرايس ، في سبيل رعاية صحتك ومصالحك مع الملك بطليميوس ، حدث أن كنت سرايس يترامى لي كثيراً أثناء نومي ، وهو يصر على أن أعبر البحر اليك وأحضر اليك (في الاسكندرية) لاطلاعتك على تحذيره بأنه من الضروري أن تكمل معبداً ومحراباً له في الحى الإغريق بالقرب من الميناء ، وأن تقوم بالشعائر الدينية اللازمة وتقدم القرابين اليه . وحين طلبت اليه ان يعفني من هذه المهمة أصابني بمرض شديد جعل حياتي في خطر . فابتلت اليه في صلواتي ووعدت بأن أنفذ ما أمر به إذا شفيت . وحين شفيت جاءتني رجل من مدينة كنيديوس وأخذ على عاتقه أن يبني السرايوم (معبد الآله سرايس) في ذلك المكان .

(أى مدينة كنيديوس) وأحضر الأحجار اللازمة للبناء . ولكن الإله ما لبث أن أنذره ألا يبنى المعبد (هناك) وكان أن توقف عن البناء . وحين حضرت إلى الاسكندرية وترددت في أن أفتحك في الموضوع ، بينما ناقشت معك أمورا أخرى انتهت بموافقتك عليها ، عاد إلى المرض مرة أخرى عدة أشهر . ولهذا لم أستطع أن أقابلك بعد ذلك مباشرة . ولذا فإنني أرجو منك ، يا أبولونيوس ، أن تنفذ أوامر الإله سرايس حتى يرضى عنك ويعلى مراتبك عند الملك ويهبك الصحة والعافية ولا تجعل تكاليف هذا الأمر تشغلك ، فإنها إن تكون بالشئ الكثير ، وسأعمل معك كل ما يتطلبه هذا الأمر من نفقات . إلى اللقاء ،

والرسالة ، كما هو واضح تشير إلى أكثر من مكان خارج مصر انتشرت فيه هذه العبادة ، وإلى مدى الإيمان بالإله سرايس ، وإلى وضع الاسكندرية كمركز رئيسي يتوجه إليه عابدين هذا الإله - وهو أمر يسهل معه أن تتصور ، كما ذكرت ، أعدادا من عابدين سرايس يأتون لزيارة الاسكندرية حتى يحجوا إلى مقر الإله .

وإذا كان الاغريق يتوافدون على الاسكندرية . كمركز أدبي للعالم المتأغرق بسبب ضريح الاسكندر وعبادة سرايس ، فإن توافدهم على هذه المدينة ازداد بسبب دعامة ثالثة أو ركن ثالث من أركان هذا الوضع الأدبي ، وهو جامعة الاسكندرية . وقد كان علماء هذه الجامعة وأمناء مكتبتها (وقد كانوا هم الآخرون علماء وأدباء كبارا كما رأينا في حديث سابق) - كانوا ينتمون إلى مناطق عديدة من العالم المتأغرق فمن بين أمناء المكتبة ، على سبيل المثال ، نجد أرسطوفانيس ينتمي إلى بيزنطيون

(بيزنطة) ، وأرستارخوس يلتقى إلى جزيرة ساموتراقية وزينودوتوس إلى إفسوس^(٢٤٢) ومن بين علماء الجامعة نجد أبولودوروس ، المؤرخ والكاتب الاقتصادي يأتى من أثينا ، بينما جاء من تراقية ، ديونيسيوس الذى كتب أول قواعد نحوية محددة للغة اليونانية^(٢٤٣) . وإذا كان علماء الاسكندرية يأتون من كافة شواطئ الحوض الشرقى المتوسط ، ففي تصورى أن أعدادا كبيرة من الباحثين والدراسين كانوا يأتون إلى جامعتها من هذه المناطق كذلك ، وبخاصة إذا أدخلنا فى اعتبارنا المكانة العلمية التى احتلتها هذه الجامعة فى العالم القديم .

* * *

ولم يكن مركز الاسكندرية الدولى ، الذى أدى إلى أن تصبح ملتقى العديد من الافواج الآتية من مختلف مناطق البحر المتوسط ، وبخاصة القسم الشرقى منه - أقول لم يكن هذا المركز قاصرا على الناحية الأدبية . فنحن نسمع عن أعداد من هؤلاء الوافدين يأتون إلى الاسكندرية ويقيمون فيها ، لوقت قصير أو طويل أو بصفة دائمة ، لأسباب أخرى تتصل بمجالات أخرى . وعلى سبيل المثال ففي المجال التجارى ، الذى كانت الاسكندرية مركزا أساسيا ، بل المركز الأساسى ، له فى شرقى المتوسط ، أذكر عقدا يتصل بقرض تجارى بحرى يرجع إلى أوسط القرن الثانى ق.م^(٢٤٤) .

Grenfell and Hunt: Oxyrrhinchos Papyri, X, 1241; (٢٤٢)

Athenaios : Deipnosophits, IV, 184 c. (٢٤٣)

Friedrich Bilabel : Sammelbuch der Griechichen = (٢٤٤)

ومن بين الأشخاص الذين يشير إليهم العقد، وهم اثنا عشر ، نرى صاحب مصرف اسمه الأول رومانى ، ونرى من بين شركاء الرحـله metochoi شخصا من ماسيلييه (مرسيله الحالية) وآخر من لاكيدايونية (فى جزيرة المورة الحالية) ، كذلك ترى بين ضامى القرض يونانيا من سالونيكـة (سالونيكى الحالية) وآخر من قرطاجـه (تونس الحالية) ، بينما نجد لباقى الأشخاص أسماء يونانية .

وهذا القرض يشير فى وضوح الى مدى عالمية اللقاء فى المجال التجارى فى مدينة الاسكندرية ، وهو لقاء لم يقتصر على شواطئ القسم الشرقى للبحر المتوسط ، وإنما اتسعت أبعاده لتسجل أشخاصا من رومه وقرطاجـه والساحل الجنوبى لغاله (فرنسه الحالية) . والتجمع المذكـور يعتبر دون شك نموذجا لغيره من التجمعات التى كانت تتم فى ميناء الاسكندرية لمزاوم العمليات التجارية التى رأيناها فى مناسبة سابقة تمتد فى أكثر ومن اتجاه ، شمالا الى سورية وآسيه الصغرى وشمالا وغربا فى البحر المتوسط، وجنوبا على طول البحر الاحمر .

كذلك تظهر هذه المجموعة المتنوعة الاجناس من الأشخاص الذين كانوا يغدون الى الاسكندرية إما بصفة مؤقتة كمبعوثين ، أو كأجانب مقيمين . ومن أمثلة النوع الأول أعضاء الوفود الذين كانوا يأتون الى الاسكندرية من أغلب أنحاء العالم المتأغرق ليحضرُوا أعياد أو احتفالات

Papyri, II, 7169

راجع تحليلا لهذا العقد فى W.L. Westermann : Alexandria in the Greek Papyri, (B.S.A.A , 38), 41—2.

البطولية Ptolemaieia التي كان البطالمة يقيمونها كل أربعة أهوام على نمط أعياد الباناتية التي كان يقيمها الآثينيون في أثينا كل أربعة أعوام كذلك . ويوجد الآن في المتحف الروماني في مدينة الاسكندرية عدد من الاواني الجنائزية التي كان يودع فيها رماد الجثث لبعض هؤلاء المبعوثين الذين كان يوافيهم الموت أثناء مقامهم في الاسكندرية . (٢٤٥)

ومن أمثلة النوع الثاني ، والاجانب المقيمين ، ما يشير إليه نصان من عهد بطليموس التاسع والنصان تعبرسطورهما عن الامتان الذي تشعر به فئة من الاجانب المقيمين في الاسكندرية كما يوجد نص ثالث من عهد الملك نفسه يعبر فيه الرومانيون الذين يعملون في شئون التجارة وأعمال الميناء الخاصة بالسفن عن شكرهم العميق لهذا الملك على حمايته لهم ورعايته لشؤونهم . والنصوص الثلاثة ترجع إلى الشطر الأخير من القرن الثاني ق م . (٢٤٦).

وأخيرا ، فقد كان من بين الاسباب التي أدت الى تعدد الاجناس في الاسكندرية بشكل ينفى عليها الطابع العالمي ، اعتياد البطالمة على الجنود المرتزقة بشكل متزايد على نحو ما رأينا أثناء الحديث عن الدعامه العسكرية لدوله البطالمة وقد كانت الاسكندرية بوجه خاص مركزاً لحاميه عسكريه كبيره ،

(٢٤٥) هذه الاواني الجنائزية موجوده في غرفة ١٧ - ١٨ في المتحف "بيرثاني الروماني بالاسكندرية ، راجع بعض صور هذه الاواني وتعليق موجز عليها في Evariste Breceia : Alexandria ad Aegyptum, (الطبعة الانجليزية) pp. 222-3

(٢٤٦) (النص الثالث) 113 (النصاب الاول) , Archiv, M.L. Strack

فالإسكندرية كانت العاصمة. وقد رأيناها تشكل هدفا لمن يريدون الاعتماد على مصر من خصوم البطالمة ، كما حدث في عهد بطليموس الخامس حين حاصرها أنتيوخوس الرابع ، الملك السلوقي . كذلك رأينا الجنود يشتركون في بعض القرارات التي اتخذها الإسكندريون في أوقات الأزمات . ومحصلة كل هذا أن عددا كبيرا من هؤلاء الجنود ، الذين ينتمون إلى أغلب مناطق العالم المتأخرق من أوريين وأسيويين ، كانوا يظهرون بأعداد كبيرة في شوارع الاسكندرية (٢٤٧).

وبما يدل على العدد الكبير من هؤلاء الجنود المرتزقة الموجودين في الاسكندرية ، بكل ما يعنيه وجودهم من تعدد الجنسيات والمناطق التي ينتمون إليها . التقسيم الذي قسم إليه بوليبيوس سكان الاسكندرية حين زار هذه المدينة في أواسط القرن الثاني ق.م. وفي هذا التقسيم نجد عناصر ثلاثة : المصريون ، والجنود المرتزقة والإسكندريون (وهم المواطنون الاغريق في الاسكندرية) . وهو تقسيم يدل على مسدى ظهور عنصر الجنود (بجنسياتهم المختلفة) لوائر الاسكندرية (وفي حالة بوليبيوس فإن الزيارة لم تعجبه !) (٢٤٨) .

ويبدو أن هذا التقسيم ، الذي يظهر هؤلاء الجنود المتعددي الجنسيات ، رغم عدم دقته من ناحية الحديث عن الجاليات التي كانت تقيم بالاسكندرية (فهو لا يذكر المقدونيين أو اليهود مثلا) - أقول ،

(٢٤٧) راجع الباب الخاص بالدعامة العسكرية ، والباب الخاص بالمرحلة الثانية من السياسة الخارجية البطلمية ، الباب الخاص بالوضع السياسي للاسكندرية .

راجع كذلك : Mostafa El Abbadi : A Side-light on the Social Life of Ancient Alexandria (Cahiers d'Alexandrie, 1964), p. 46
(٢٤٨) مذكور في Strabe : xvii, 112

رغم هذا فقد كان هذا التقسيم متعارفا عليه وشائعا حتى من الناحية القانونية .
فنحن نراه يظهر على سبيل المثال ، في إحدى البرديات التى تعالج بعض
الإجراءات القانونية المتصلة بالمحاكم ، وفيها نرى تقسيما لسكان الاسكندرية
يكاد يكون مطابقا لهذا التقسيم السابق ، ونرى الجنود ، مرة
أخرى ، يظهرن كفئة أساسية من الفئات الثلاثة التى يتكون منها
هؤلاء السكان(*) .

ومرة أخرى ، نجد فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية ، عددا
من الاوانى الجنائزية التى عثر عليها فى مناطق الابراهيمية والحضرة
والقبارى (بالاسكندرية) والتى كانت تحوى رماد الجثث المحترقة لعدد
من الجنود الذين ماتوا ، والذين أتوا من أماكن مختلفة فى العالم المتأغرق
من بينها تراقية وكريت وتسالية وغيرها (٢٤٩) .

* * *

هذه هى بعض الأسباب التى جعلت من الاسكندرية مجتمعا له الطابع
العالمى فى تعدد الجنسيات التى ينتمى إليها سكانه المقيمون العابرون . ولم

(*) P. Hamburg: 168, ll. 5-10 والفئات الثلاثة هى بالترتيب التى تظهر
فى البردية هى : الجنود stratiotai والمواطنون politai والآحر ون
alloi (ويقصد بها غير المواطنين من السكان) . واستخدمه كلمة strati-
tai (بمعنى الجنود بشكل عام) وليس كلمة misthophoroi (أى المرتزقة بالذات)
لا يعنى أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مرتزقة ، إذ كان اسم جناس كلمة stratiotai
بمعنى المرتزقة قبل ذلك بكثير ، ابتداء من القرن الرابع ق م حين أصبح
الاعتماد على الجنود المرتزقة فى العالم اليونانى أمرا شائعا
(٢٤٩) غرفة ١٧ - ١٨ من المتحف اليونانى الرومانى (راجع ح ٢٤٩) . انظر
أعلاه ، Breccia : loc. cit. .

يقتصر هؤلاء العابرون على الآتين من مصر في كل الأحيان ، وإنما كان إلى جانبهم أولئك الذين يأتون إلى الاسكندرية من المناطق الداخلية (مرة أخرى بجنسياتهم المتعددة) إما الزيارة أو لإنجاز عمل أو مصلحة في العاصمة ، كما يحدث الآن حين يسافر أبناء مصر إلى القاهرة لأسباب مشابهة .

وفي هذا المجال نحدد إحدى البرديات التي تشير إلى وضع معين في أثناء القرن الثاني ق.م والبردية تحوى قرارا أصدره المشرف على الشؤون المالية dioecetes إلى المسؤولين في الأقاليم يوجه نظرهم فيه إلى مراعاة المدل في المعاملات المالية في الأقاليم التي يقومون على شئونها لأن عددها كبيرا (من سكان الأقاليم) يأتون إلى الاسكندرية متظلمين من هؤلاء المسؤولين ومن الموظفين التابعين لهم ، وبخاصة الذين يقومون على جمع الضرائب ، بسبب التعسف والطرق غير القانونية التي يتبعونها (٢٥٠) .

في مثل هذا الجو إذن نستطيع أن نتخيل شوارع الاسكندرية وهي تغص بعديد من العناصر التي كانت تضم اليونانيين الآتين من مختلف مناطق البحر المتوسط ، والإيطاليين والقيليقيين والاحباش والعرب والوافدين من باكثريه وسكيثيه والهنود والفرس . كما نستطيع أن نتصور المتجول في هذه الشوارع وقد ترامت إلى أذنيه كافة اللهجات اليونانية وربما عدد كبير

(٢٥٠) Wilcken: Urkunden der Ptolemaerzeit, 1, 113 . راجع

كذلك : El-Abbadi: A Sidelight on the Social life etc.

من اللغات الآسيوية والإفريقية . (٢٥١) كما نستطيع في هذا الجو كذلك أن نفهم المنظر القصير الذي يصوره لنا الأديب ثيوكريتوس Theokritos عنه امرأتين ثنارتين في أحد شوارع الاسكندرية ، فحين يشكو أحد المارة من ثنارتها باللهجة الدورية (لإحدى اللهجات اليونانية) ذات المخارج المفتوحة العريضة يسكون رد أكثرهما جرأة ، في نغمة فيها كثير من الاعتزاز ومن النهكم . : وماذا يضيرك من ثنارتها ؟... وهل تصدر أوامرك إلى نساء من سيراكوزة . ولعلك فنحن من أصل كورنثي . وأظن أنه من المسموح به أن تتكلم النساء ذات الأصل الدوري باللهجة دورية ١ ، (٢٥٢) . والرد ذاته يدل بطريق غير مباشر على العديد من اللهجات الأخرى التي كانت معروفة في الاسكندرية ، وبالتالي على العديد من العناصر التي كانت موجودة بها .

وقد استطاع أحد الباحثين الحديثين أن يعدد من بين الجفسيات التابعة لهذه العناصر ثمانية وخمسين جفسية على الأقل ، من بينها نحو أربعين ينتمى أصحابها إلى مدن يونانية مختلف (٢٥٣) . ولعل هذا الجو العالمي الطابع الذي كان يختلف بالضرورة عن بقية مناطق مصر ، حيث يغلب الطابع المصري الموحد (مع مجموعات متفرقة من اليونانيين المقيمين في

Breccia : op. cit., 32; Jouguet : Trois Études, 110 (٢٥١)

Theokritos : XV (٢٥٢)

Heichelheim : Auswärtige Bevölkerung im (٢٥٣)

Ptolemaierreich, (Klio, Beiheft, XVII), 83 sq ; Archiv IX, 47 sq, XII, 54 sq.

التي كان يتكون منها هذا المجتمع . لقد سبق أن أشرت إلى تقسيم بوليوس لسكان الاسكندرية إلى ثلاث فئات هي الجنود والسكندريون (المواطنون الاغريق) والمصريون (أهل البلاد الذين لم يكونوا يعتبرون مواطنين) . كما أشرت إلى التقسيم الذي ظهر في البرديات المتعلقة بالمعاملات القانونية والتي كانت تشير على التقسيم نفسه . ولكن التقسيم المذكور يتعلق أساسا بحقوق المواطنة من جانب حيث التفرقة في الحقوق المدنية بين الإغريق السكندريين الذين كانت لهم حقوق المواطنة وبين المصريين من أهل المدينة الذين لم تكن لهم هذه الحقوق وبين الجنود المرتزقة الذين كانت إقامتهم في المدينة مسألة مؤقتة مهبط طالت هذه الإقامة .

ولكن الحديث الآن سيكون عن سكان الاسكندرية ، ليس من الزاوية التي تتعلق بحقوق المواطنة فحسب ، وإنما من حيث وضعهم كفئات أو أقسام دائمة يتكون منها المجتمع السكندري ، لها حياتها الخاصة بصرف النظر عن تمتعها بحقوق المواطنة أو عدم تمتعها بهذه الحقوق . وفي هذا المجال نجد أن بعض العناصر التي كانت تقيم في العاصمة البطلمية كانت بشكل جاليات Politeumata لها كياناتها الذاتي وتنظيماتها الخاصة وتمتع بدرجات متفاوتة من الحقوق والامتيازات ، كما كان البعض الآخر من هذه العناصر يعيش في المدينة دون أن يكون لهم هذا المكيان . كذلك كان المنتمون لكل عنصر يقيمون عادة في حي من الأحياء التي كانت المدينة تنقسم إليها . فالإيونان والمقدونيون مثلا كانوا يقيمون في الحي الملكي ، واليهود في حي الدلتة ، والمصريون في حي راقوده (كوم الشقافة الحالية) وحي فاروس (رأس النين والآن فرشى الحالية) هكذا .

وإذا بدأنا الحديث عن المصريين الذين كانوا يقيمون في الاسكندرية فنحن نجد أنهم لم يكونوا يتمتعون بحقوق المواطنة السكندرية ، ومن ثم لم يكن لهم كيان محلي خاص من الناحية المدنية ، وإنما كانت الصفة الوحيدة لهم هي صفتهم كرعايا بشكل مباشر للحكومة المركزية الممثلة في حاكم المدينة strategos (٢٥٥) وقد كانوا عادة من أصحاب الحرف الصغيرة . وقد ظلوا في مجموعهم محافظين على صيغتهم الوطنية بعيدا عن مؤثرات الحياة أو الحضارة الإغريقية . ورغم ذلك ، ورغم أنهم لم يكونوا يتمتعون بحقوق المواطنة ، فقد كان من بينهم أفراد استطاعوا أن يصلوا إلى مراكز اجتماعية ممتازة مثل السكينة القائمين على عبادة سرابيس ، كما كان منهم كذلك من شغل بعض وظائف البلاط الملكي في الشطر الأخير من حكم البطالمة (٢٥٦) ، وهؤلاء كانوا عادة من بين الفلاكل الذين اصنابغوا بالحضارة الإغريقية .

W. Schubart: Spüren der Politischen Autonomie in (٢٥٥)
Aegypten unter der Ptolemaier (Klio, 1910) pp. 41-71

وبقارن وضع المصريين تحت حكم حاكم المدينة بوضعهم في العصر الروماني

تحت حكم الوالي Praefectus في العصر الرماني ، راجع : P. Jouguet :

La Vie Municipale d'ane l' Egypte Romaine (المقدمة) ،

صفحات ٤ - ٤٤ و ص ١٩١ حاشية ١ . هذا والمعنى الأصلي للفظ strategos ،

كما هو معروف ، هو القائد العسكري ، ولكنه بدأ يأخذ هذه الصفة المدينة

(إلى جانب الصفة العسكرية في أغلب الأحوال) في العصر المتأخر .

(٢٥٦) مثال ذلك ديونيسوس بيتوسرابيس Dionysos-Petosrapis (والاسم

ذاته يوحى بالصيغة الإغريقية) في عهد بطليموس السادس : Diodoros

أما عن العناصر التي كانت لها جاليات فمن المتصور أن تكون على رأسها جالية المقدونيين ، وإن كنا لا نعرف شيئا كثيرا عن هذه الجالية. وفي حدود هذه المعلومات البسيطة فقد كان هؤلاء يمثلون طبقة ممتازة سواء من ناحية حقوقهم أو من ناحية وضعهم الاجتماعي . وقد كانت هذا طبيعيا ، إذا أدخلنا في اعتبارنا أن البيت الحاكم نفسه كان ينتمي إلى العنصر المقدوني ، وأن هذه الطبقة تضم الرتب العسكرية العليا في القوات الضاربة للبطالة . وأنهم كانوا يشكلون الحرس الملكي كما كانوا يؤلفون قلب الجيش حتى معركة رفح على الأقل (٢٥٧) وقد كانوا إلى جانب ذلك هم أعضاء مجلس المقدونيين ، الذي رأيناه يجتمع ليفصل في المسائل الخاصة بأمور العرش وقضايا الخيانة العظمى (٢٥٨).

وقد كان أبرز الجاليات السكندرية هم اليونان أو الإغريق . ومن بينهم كانت فئة السكندريين ، Alexandreïs التي كان أفرادها يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة في كافة المجالات (٢٥٩) ، سواء منها السياسية مثل الاشتراك في المجالس التشريعية أو الاجتماعية مثل حق امتلاك أراضي في المدينة ، هذا إلى جانب تمتعهم بامتيازات أخرى قد لا تتمتع بها بعض العناصر الأخرى ، مثل الإعفاء من أعمال السخرة ومن بعض الضرائب. وقد كان هؤلاء ينقسمون إلى عدد من القبائل التي تنقسم بدورها إلى أحياء اتخذت أسماءها انتسابا إلى اسم إله أو بطل إغريقي أو لقب ملك من ملوك البطالة . وكان وصول كل فرد من أفراد هذه الطبقة إلى حق

(٢٥٧) راجع الحديث عن اندمجة العسكرية لحكم البطالة في هذه الدراسات .

(٢٥٨) راجع الباب الخاص بالوضع السياسي للسكندرية .

Strabo, xvii, 1.

(٢٥٩)

المواطنة رهن بتسجيله في قائمة أحد هذه الأحياء ، وقضائه فسترة من
التثقيف والتدريب العسكرى في منظمات الشباب ephēbeia على نمط
ما كان سائدا في المدن الإغريقية في بلاد اليونان منذ القرن الرابع ق.م.
أما من كان خارج هذه الدائرة فلم يكن له حق التمتع بحقوق المواطنة
السكندرية .

وقد كان الاتجاه السائد حتى فترة قصيرة هو أنه ، داخل نطاق
حقوق المواطنة ، كانت هناك درجات أو طبقات من المواطنين ،
وأنة كانت هناك مثلا طبقة المواطنين Pioltai وطبقة أخرى
هى طبقة السكندريين Alexandreis . وأن تفرقه بين الطبقتين كانت قائمة
في بعض الجوانب وأن هذه التفرقة ، في أحد الآراء ، حدثت فيها
تطورات بمضى الوقت . وقد كان أساس هذا الاتجاه هو أن أسماء
بعض الإغريق كانت تقرن باسم الحى الذى ينتمى إليه ، بينما كانت
أسماء البعض الأخرى لاتتقرن باسم الحى وإنما يسكنفى بذكر صفة «سكندرى»
إلى جانبها . وحيث أن عضوبة الحى كانت تؤهل صاحبها لحقوق المواطنة
الكاملة ، فقد كانت الاستنتاج هو أن صفة «السكندرى» ، لاتؤهل
صاحبها لهذه الحقوق الكاملة ، ومن ثم يكون لأصحاب لقب
«السكندريين» ، حقوق أقل ، أو بعبارة أخرى مواطنين من الدرجة الثانية .

ولكن ظم . في السنوات الأخيرة اتجاه جديد أكثر اتفافا مع مالدينا
من وثائق ، مؤداه أن صفة «المواطنين» ، وصفة «السكندريين» ، كانتا متطابقتين
وأن عدم ظهور اسم الحى بجانب صفة «السكندريين» لم تكن تعنى اطلاقا
انتفاء صفة المواطنة الكاملة عنهم ، وإنما كان معناها أنهم ، لسبب أو لآخر ،
لم يكونوا قد سجلوا بعد في قوائم الأحياء التى كانت المدينة تنقسم إليها ،

عالمًا بأن فترة انتظار هذا التسجيل لم تكن تحرمهم من أية ميزات تستتبعها حقوق المواطنة الكاملة (٢٦٠).

أما العنصر الرابع من سكان الاسكندرية فهو عنصر اليهود. وقد كان لهؤلاء، هم الآخرون، حتى خاص يعيشون فيه. ويذكر لنا المؤرخ اليهودي جوزيفوس أن اليهود كانوا متساوين مع المقدونيين، كما يصفى عليهم صفة الاسكندرانيين، الذين رأينا المواطنين الإغريق في الاسكندرية يتصفون بها (٢٦١). ولكن يبدو أن كل ما كان يتمتع به اليهود هو أنه كانت لهم

M. El-Abadi : The Alexandrian Citizenship, (٢٦٠)

(J.E.A. 48, 1962 pp. 106 sq. وقد كانت نقطة الاعتماد الرئيسية

للباحث هي بردية تظهر فيها صفة politai بوجه عام ثم يبدأ تحديد هذه الصفة

إلى سكندري Alexandreus وسكندرية Alexaudris (على أساس أن

politai (مفرد politai) ليس له مؤنث. وهكذا ظهر التطابق في النص

الواحد بين تسمية المواطنين وتسمية السكندريين. والبردية هي P.Hal.

1,219-21 وكانت نظرية تقسيم المواطنة إلى درجات قد بدأها شوبارت

في: W.Schubart: Alexandrische Urkunden aus der Zeit des

Augustus (Archiv für Papyr. V) pp.35ps. وتبعه فيها،

مع تغييرات أو إضافات تفصيلية، عدد كبير من بينهم: Wilcken

Grundzüge, 25 sq.; E.Breccia: op. cit., 32, A.H.M. Jones,

Cities of the Eastern Roman Provinces, 311; Rostvotzeff

Soc. & Econ. Hist. of the Hell. World, II, 1064.

Taubenschlag: Laws of Greco-Roman Egypt (الطبعة الثانية)

12, 582 Sq. هذا وقد أورد الباحث في ص ١٠٦ من بحثه قائمة لأهم

أتباع هذا الاتجاه

Joseph.: C. Apion, II.4; Antic.Jud.XII., 1

(٢٦١)

جالية مثل تلك التي كانت للمقدونيين . أما عن حق المواطنة الاسكندرية ، فمن المسلم به أنه كان باستطاعة أفراد منهم أن يحصلوا عليه ، ولكن من غير المتصور أن يكون هذا الحق قد أضفى عليهم ككل (٢٦٣) . هذا وقد كان لهم ، في داخل جاليتهم ، مجلس مكون من سبعين عضواً ، وفي فترة متأخرة نسمع عن رئيس لجاليتهم من بين صفوفهم (١٣٦٣) .

ويبقى أخيراً من العناصر أو الطوائف التي كان يتكون منها سكان الاسكندرية عنصر الفرس ، الذين كانوا يأتون من ناحية الوضع الاجتماعي بعد طائفة اليهود (٢٦٤) ولنا أدب نتصور أن بعضهم كانوا لفتح الاسكندرية ، وأن البعض الآخر نزح الى الاسكندرية أثناء حكم الاسكندر أو الحكم البطلمي ، سعياً وراء الفرص التي هيأتها عاصمة البطلمة للهجرة من ذوي الكفايات .

(٢٦٢) Jouquet : Trois Études. p. 117

(٢٦٣) كان الاسم الذي يطلق على هذا الرئيس هو إثنارخوس Ethnarchos أظن . Strabo : apud Joseph., Antic. Jud , xlv, 7,2 أو جينارخوس Genarchos أنظر Philon: C. Flaccus, 10 واللفظان يفيدان معنى الرئيس الملى ، أو رئيس الطائفة ،

(٢٦٤) E. Breccia : op. cit., 33

المحتويات

الاهتمام

تقديم الكتاب

القسم الاول

عصر جديد وحضارة جديدة

الباب الاول : حول بدايات عصر جديد ٣ - ٣٤

١ - العصر الجديد والتقاء حضارتى الشرق والغرب ... ٣

٢ - اللقاء الحضارى قبل هذا العصر ... ٨

٣ - تعريف العصر الجديد وطبيعته ... ١٥

الباب الثانى : الشرق واليونان والعصر الجديد ٣٥ - ٦٣

١ - اتجاه الحضارة الشرقية ... ٢٥

٢ - اتجاه الحضارة اليونانية ... ٤٣

٣ - الشرق واليونان فى فجر العصر الجديد ... ٥٤

الباب الثالث : مقدونية والاسكندر وقيام العصر الجديد ٦٤ - ٩٤

١ - ظهور مقدونية والسيطرة على اليونان وعلى الشرق ٦٤

٢ - شخصية الاسكندر ... ٦٨

٣ - نهاية الاسكندر وقيام حكم خلفائه ٨٥

صفحة

القسم الثاني

دولة البطالة : القاعدة والدعامات

الباب الرابع : قاعدة الدولة الجديدة ٩٧-١٢٣

- ١ - أرض الدولة الجديدة ٩٨
- ٢ - ظروف الدولة الجديدة ١٠٢
- ٣ - مؤسس الدولة الجديدة ١٠٩

الباب الخامس : الدعامة العسكرية ١٢٤-١٤٨

- ١ - نظرة عامة على القوة العسكرية عند البطالة ... ١٢٥
- ٢ - العناصر الرئيسية في هذه القوة العسكرية ... ١٣٣
- ٣ - القوات العسكرية البطالية بعد معركة رفع ... ١٤٥

الباب السادس : الدعامة الاقتصادية ١٤٩-١٦٩

- ١ - إحتياجات الدولة الجديدة ١٥٠
- ٢ - تطوير الإقتصاد المصرى ١٦١
- ٣ - سيطرة البطالة على الإقتصاد المصرى ٥٦

الباب السابع : الدعامات الاجتماعية والأدبية ١٧٠-١٩٤

- ١ - نظرة عامة ١٧٠
- ٢ - البطالة والتركيب الطبقي للمجتمع ١٧١

صفحة

- ٣ - الدين وتدعيم حكم البطالمة ١٧٨
٤ - الثقافة وتدعيم حكم البطالمة ١٨٦

القسم الثالث

السياسة الخارجية للبطالمة

الباب الثامن : المرحلة الأولى : التوسع والصمود ١٩٧-٢١٧

- ١ - الاتجاه التوسعي في هذه المرحلة ١٩٨
٢ - آراء في تفسير هذا الاتجاه ٢٠٤
٣ - تقييم الاتجاه التوسعي في سياسة البطالمة ٢١١

الباب التاسع : المرحلة الثانية : التدخل الروماني ٢١٨-٢٣٥

- ١ - الظروف الدولية بعد رفع ٢١٨
٢ - بداية التدخل الروماني في شئون مصر ٢٢١
٣ - ترايد التدخل الروماني في شئون مصر ٢٢٦

الباب العاشر : المرحلة الأخيرة : عهد كليوباترة السابعة ٢٣٦-٢٦٠

- ١ - اتجاه جديد في السياسة الخارجية البطلمية ٢٣٦
٢ - الصراع بين مصر ورومه ٢٤١
٣ - الصراع ونهاية ملك البطالمة ٢٥١

القسم الرابع

الاسكندرية عاصمة البطالة

- الباب الحادى عشر : الوضع السياسى للاسكندرية ٢٦٣ - ٣٠٠
- نظرة عامة ٢٦٣
- ١ - موقع الاسكندرية كعاصمة لدولة البطالة ... ٢٦٤
- ٢ - الوضع السياسى للاسكندرية كعاصمة ... ٢٦٨
- ٣ - الوضع السياسى للاسكندرية كمدينة يونانية ... ٢٧٣
- الباب الثانى عشر : الوضع الاقتصادى للاسكندرية ٣٠١ - ٣١٣
- ١ - موقع الاسكندرية كميناء ٣٠١
- ٢ - تشعب حركة الصادرات والواردات ... ٣٠٣
- ٣ - الاسكندرية كميناء تدعم الاتجاه الاقتصادى السياسى للبطالة
- الباب الثالث عشر : الوضع الاجتماعى فى الاسكندرية ٣١٤
- ١ - الصفة العامة للمجتمع السكندرى ٣١٤
- ٢ - الجماليات المسكونة للمجتمع السكندرى ٣٢٥

مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0220235

مطبعة الميصرى

٩ شارع ابن شوكي - عفتا الرمل

للسنة ٢٧٤٠ هـ

مصر

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com